الحيوان

في القرآن الكريم

الطبعة الأولى
1446 هـ
2025 م

اسم الكتاب: الحيوان في القرآن الكريم
المؤلف: د. محمد حمدي درويش
موضوع الكتاب: دراسة
عدد الصفحات: ٢٣٦ صفحة
عدد الملازم: ١٤.٧٥ملزمة
مقاس الكتاب: ١٧ x ٢٤
عدد الطبعات: الطبعة الأولى
الترقيم الدولي: 978-9921-815-77-1

القاهرة - جمهورية مصر العربية
٠١٠١٢٣٥٥٧١٤
٠١١٥٢٨٠٦٥٣٣
elbasheer.marketing@gmail.com
elbasheernashr@gmail.com

جميع حقوق الطبع والنسخ والترجمة محفوظة لدار البشير للثقافة والعلوم. حسب قوانين الملكية الفكرية. ولا يجوز نسخ أو طبع أو اجتزاء أو إعادة نشر أية معلومات أو صور من هذا الكتاب إلا بإذن خطي من الناشر

الحيوان
في القرآن الكريم

دراسة دلالية

تأليف

د. محمد حمدي درويش

دار النشر

إهداء

إلى أسرتي الصغيرة وعائلتي الكبيرة.

إلى روح والديّ

إلى كل من كان له فضل عليّ

إلى من يدركون أن كل مخلوق من مخلوقات الله يحمل رسالة من رسائل التدبر والتأمل.

أهديكم هذا الكتاب داعيًا الله أن يجد كل قارئ فيه ما يثري عقله، ويهدي روحه، ويقربه من جمال القرآن وسعة معانيه، ومن حكمة الله التي تتجلى في خلقه.

مقدمة

الحمد لله الذي لا يحصي نعماءه العادون، ولا يؤدي حقه المجتهدون. الأول فلا شيء قبله، والآخر فلا شيء بعده والظاهر فلا شيء فوقه، والباطن فلا شيء دونه. هو الذي أرسل محمدًا ﷺ بالهدى ودين الحق وأنزل على قلبه القرآن نورًا لا تطفأ مصابيحه، وسراجًا لا يخبو توقده وبحرًا لا يدرك قعره، وجعله ريًا للعلماء، وربيعًا لقلوب الفقهاء ومحاجّ لطرق الصلحاء، وهو ناطق لا يعيا لسانه وبيت لا تهدم أركانه، وعز لا تهزم أعوانه، وهو حجة الله على خلقه، الآمر الزاجر والصامت الناطق، وسيبقى النص القرآني معينًا لا ينضب، وكنزًا لا يفنى، وبحرًا زاخرًا يفيض نورًا وعلمًا؛ فقد بلغ هذا الكتاب من المقام منتهاه ومن الفضل أعلاه.. وصفه النبي ﷺ فقال: "كتاب الله فيه نبأ ما كان قبلكم، وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم، وهو الفصل ليس بالهزل.. من تركه من جبار قصمه الله ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله، وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم هو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا يشبع منه العلماء، ولا يَخْلَقُ على كثرة الرد ولا تنقضي عجائبه.. صدق رسول الله ﷺ.

معنى هذا أنه لو ذكر لفظ في القرآن، لكان حريًا بنا أن نقف أمام هذا اللفظ وقفة تأمل وفهم ودراسة.. فما بالنا وقد حظي الحيوان بجانب ليس بالقليل من كتاب الله ﷻ.

وكان من أسباب اختياري لهذا الموضوع أني رأيت مدى عناية الله ﷻ بالحيوان في كتابه العظيم، بل إن هناك بعض السور سميت بأسماء الحيوانات، وهو ما يبين لنا قدر هذا المخلوق الذي رافق الإنسان منذ فجر التاريخ الإنساني، وتأثر كلاهما بالآخر تأثرًا كبيرًا كان له سمته البارز في حياة الإنسان.

فقد استطاع الإنسان أن يعتمد على الحيوان في كثير من أعماله وحاجاته اليومية؛ فاتخذ من لحمه قُوتَه، ومن لبنه شرابه، ومن جلده ملبسه، وخيمته، ومن عظمه سلاحه ووقوده، واتخذه كذلك وسيلة انتقال من مكان لآخر، لا سيما العربي الذي نزل القرآن بلسانه، إذ ارتبط العربي بالحيوان ارتباطًا وثيقا في السلم والحرب، في اللهو والجد.

وقد عبر القرآن الكريم عن هذه المنافع وغيرها في غير موضع مؤكدًا أن العلاقة بين الإنسان والحيوان، وإن كانت علاقة تسخير - إذ سخر الله للإنسان كل ما في الكون ومن بينها الحيوان - بيد أنها علاقة قائمة على الرحمة والرفق.

وفي هذا الكتاب قمت بحصر مواضع ذكر الحيوان في القرآن الكريم ودراستها دراسة دلالية متناولًا كل موضع للحيوان في إطار السياق الوارد فيه لمعرفة دور الحيوان في هذا الموضع سواء ذكر الحيوان بلفظ عام أو بالإشارة إلى صفة من صفاته أو بلفظه الخاص ومسماه المعروف - مسترشدًا بصحيح الأحاديث النبوية الشريفة وآراء أهل العلم الثقات، وإلقاء الضوء على الظواهر البلاغية، مبتعدًا عن الإسرائيليات، مستنيرًا - بحذر - بما وصل إليه علماء الإعجاز العلمي في القرآن..

فأنا لست مع أو ضد الإعجاز العلمي على الإطلاق، بمعنى أننا بوصفنا مسلمين نؤمن بكتاب الله ﷻ وبكل حرف فيه ولسنا بحاجة إلى وضع قرآننا العظيم رهن نظرية علمية تصدق اليوم وقد تكذب غدًا أو بعد غدٍ.

وقد تحدث المفسرون كثيرًا عن الحيوان في القرآن الكريم لكن دون الالتفات إلى تجميع الآيات القرآنية التى ورد فيها ذكر الحيوان وتكوين موضوع واحد منها - يستثنى من هذا: المصنفات التى تحدثت عن القصص القرآني أو الأمثال القرآنية، وجاء فيها ذكر العنصر الحيوانى ودوره بصورة عارضة.

وينقسم الكتاب إلى ثلاثة فصول يسبقها تمهيد يشمل التعريف اللغوي لكلمة الحيوان.

والفصول الثلاثة جاءت على النحو التالي:

الفصل الأول: الحيوان في المثل القرآني.. وقسمت الأمثال القرآنية التي ورد فيها ذِكرُ الحيوان إلى أغراض دلالية موضحًا تصنيف المثل من بسيط ومركب، وما يتبع هذين القسمين من تقسيمات أخرى مدللًا على مناسبة كل حيوان لموضع المثل الذي ضرب به.

الفصل الثاني: الحيوان في القصص القرآني: وفيه ألقيت الضوء على دور العنصر الحيواني في القصص القرآني.

الفصل الثالث: الحيوان والإنسان: وتحدثت فيه عن جوانب شتى من انتفاع الإنسان بالحيوان، في شتى منافع الحياة، مدللًا على مفهوم الرحمة العامة التي اهتم بها الإسلام حتى مع الحيوان، موضحًا أن العلاقة بين الإنسان والحيوان علاقة تغلفها الرحمة.

وإن كان الحيوان مدار اهتمام هذا الكتاب فليس هذا من قبيل تمجيد الحيوان، بل التأمل والتعمق في هذه النعمة التي أنعم الله بها على الإنسان الذي هو خليفة الله في أرضه؛ إذ إن مغزى الوجود الحيواني على الأرض صالح الإنسان.

فسلم الكائنات الحية ينقسم إلى ثلاث درجات: ملائكة، وإنسان، وحيوان، ويتميز الوجود الإنساني في هذا السلم بأنه مرتبط بما هو أعلى وما هو أسفل؛ فإذا أخلص الطاعة لله وعلم حقيقة وجوده في هذا الكون وسما بأخلاقه؛ فعندئذ يمكنه الارتقاء إلى درجة الملائكة؛ بل أفضل لأنه ليس مفطورًا على الطاعة كالملائكة، وهذه سانحة لا تتاح لكائنات أخرى، وكذلك يمكن أن ينزل لمرتبة الحيوان إذا اقتصر سعيه على ما هو مادي أو ألغى عقله، هنا يكون كالحيوان، بل أضل لأنه ملك الآداة ولم يستخدمها.

فالوجود الإنساني وجود متحرك ليس متجمد الهوية، ومن هنا تأتي صلاحية الخلافة لأن الخليفة لا بد وأن يجمع بين صفتين: صفة المخلف له،

وصفة المخلف فيه، لذا استحق الإنسان دون سائر الخلق أن تكون له خلافة الله في الأرض.

فهذا الكتاب وإن اهتم بالحيوان في القرآن الكريم فإنه يرمي لغاية أبعد، وهي التأمل في بديع صنع الله ﷻ لنعمة الحيوان الذي سخره الله ﷻ للإنسان ليعينه على القيام بمهمته الأساسية في هذا الكون وهي عبادة الله وعمارة الأرض. ولا أدعي قدرتي على الإلمام بشتى عناصر الموضوع بما يليق بأهميته، أو أنني قلت كلمة النهاية في هذا الموضوع، فلم يكن هذا الكتاب إلا محاولة مجتهد. إن أصاب فالفضل لله ثم لأساتذتي الذين تتلمذت على أيديهم، وإن أخطأ حمد الله على أجر المجتهد. وما هذا إلا جهد المقل، وإن كان من توفيق فمن الله وإن كان من خطأ أو تقصير أو نسيان فمنِّي ومن الشيطان وحسبي ما بذلت من جهد وأخلصت من نية.

وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ

د. محمد حمدي درويش

***

تمهيد

التأسيس المعجمي لكلمة: "حيوان"

حينما نتحدث عن "الحيوان" فإننا نعني بذلك اللفظ كل كائن حي؛ كل كائن دبت فيه الحياة فهو حيوان، والحي: كل متكلم ناطق، والحي من النبات ما كان طرياً يهتز. فقد جاء في لسان العرب:

"الحيوان: اسم يقع على كل شيء حي"، وسمى الله الدار الآخرة حيواناً فقال: "وإن الدار الآخرة لهي الحيوان" قال قتادة: هي الحياة، وقال الأزهري: المعنى أن من صار إلى الآخرة لم يمت، ودام حياً فيها لا يموت؛ فمن أدخل الجنة حيا فيها حياة طيبة، ومن دخل النار فإنه لا يموت فيها ولا يحيا.

وكل ذي روح حيوان والجمع والواحد فيه سواء لأنه مصدر، وقال ابن سيده: الحيوان جنس الحي وأصله "حييان" فقلبت الياء التي هي لام الكلمة واوًا استكراهًا لتوالي اليائين لتختلف الحركات "مذهب الخليل وسيبويه" [1].

وفي هذا الكتاب: تناول للحيوان بأنواعه المتعددة التي يندرج تحتها: الأنعام، والإبل، وكذا الطير، والحشرات، والأسماك؛ والكتب التي تحدثت عن الحيوان لم تفرق بين كل جنسٍ وغيره مما أشرت إليه آنفاً، بل تندرج كلها تحت لفظ عام وهو الحيوان؛ فالجاحظ في كتابه الحيوان قَسَّم العالم على ما فيه من الأجسام إلى جمادٍ ونامٍ، والنامي على قسمين؛ حيوان، ونبات، والحيوان على أربعة أقسام؟ شيء يمشي، وشيء يطير، وشيء يسبح، وشيء ينساح [2].

(١) لسان العرب: لمحمد مكرم بن منظور الأفريقي المصري "٦٣٠ - ٧١١ هـ"، دار صادر بيروت - ط١، ١٩٥٦، مجـ١٤، صـ٢١٢ وما بعدها.

(٢) ينساح: يمشي على بطنه.

والنوع الذي يمشي على أربعة أقسام؛ ناس وبهائم وسباع وحشرات [١]

وقصد بالشيء الذي يطير: الطيور بأنواعها المختلفة، وبالشيء الذي يسبح: الأسماك وما يعيش في الماء، والشيء الذي ينساح بالزواحف.

كذلك الدميري في كتابه حياة الحيوان تحدث عن هذه الأنواع تحت اسم الحيوان. والحيوان: كل ذي روح ناطقاً كان أو غير ناطق [٢].

بل إن الإنسان سمي حيواناً ناطقاً؛ فقد ورد في كتاب "التعريفات" في باب تعريف "الحد التام": "أنه ما يتركب من الجنس والفصل القريبين كتعريف الإنسان بالحيوان الناطق" [٣].

***

(١) الحيوان: لأبي عمرو بن بحر الملقب بالجاحظ، شرح وتحقيق: دكتور. يحيى الشامي، دار ومكتبة الهلال ط١، ١٩٨٦، جـ١، صـ٢٦-٢٧.

(٢) المصباح المنير: لأحمد بن محمد بن على المقري الفيومي "ت ٥٧٧ هـ"، المطبعة الأميرية، ط٥، ١٩٢٢ جـ١، صـ١٦٠.

(٣) التعريفات: لعلى بن محمد بن على الجرجاني "٧٤٠ - ٨١٦هـ"، تحقيق: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط ١، ٢٠٠٠، صـ١١٢.

الفصل الأول

الحيوان في المثل القرآني

تمهيد

منزلة المثل:

لما عرفت العرب أن الأمثال تتصرف في أكثر وجوه الكلام وتدخل في أجل أساليب القول أخرجوها في أقواها من الألفاظ ليخف استعمالها ويسهل تداولها؛ فهي من أجل الكلام وأنبله وأشرفه وأفضله لقلة ألفاظها وكثرة معانيها ويسير مئونتها على المتكلم مع كبير عنايتها وجسيم عائدها.

ومن عجائبها أنها مع إيجازها تعمل عمل الإطناب ولها روعة إذا برزت في أثناء الخطاب [1] والمثل إذا وافق سمع المخاطب انتشر وكأنه عبارة ذات أجنحة وسهل حفظه وبقي لفظه مع جهل أصله وقصته.

والأمثال نوع من العلم متفرد بنفسه لا يقدر على التصرف فيه إلا من اجتهد في طلبه حتى أحكمه وبالغ في التماسه حتى أتقنه [2].

أهمية المثل القرآني:

للمثل القرآني أهمية عظيمة وما من شيء أدق وأهم في تحديد أهميته مما ذهب إليه القرآن نفسه، فقد امتن الله على عباده بضرب الأمثال لهم إذ قال ﷻ: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَـٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾(الإسراء-٨٩).

(١) جمهرة الأمثال: لأبي هلال العسكري، ط٢، صـ ٤.

(٢) نفسه: صـ ٥.

كما أكد القرآن الكريم اكتمال المثل ذاته في قوله ﷻ.

﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾(الفرقان – ٣٣)

كما يشير القرآن إلى عمومية ضرب المثل وإلمامه بشتى الجوانب في قوله ﷻ.

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾(الروم – ٥٨).

فما ضربت هذه الأمثال لنبدي بها إعجابنا فحسب، بل علينا إدراكها وفهم مغزاها والإفادة منها ففيها الكفاية.

فأمثال التنزيل وعد الله ﷻ بها وأوعد، وحَرَّم وأحل ورجى وخَوَّف، وقرع بها المشركين، وجعلها موعظة وتذكيرًا ودلَّ على قدرته مشاهدة وعيانًا، وعاجلاً، وآجلاً وله المثل الأعلى في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم [١]. فأغراض المثل متعددة لما لها من وقع مؤثر في النفس إذ هي خلاصة القول.

وإذا كانت هذه هي أهمية الأمثال في القرآن كما أوضحها القرآن نفسه فلا غرابة في أن يعتبرها النبي ﷺ من أوجه القرآن الخمسة إذ قال: "إن القرآن نزل على خمسة أوجه، حلال، وحرام، ومحكم، ومتشابه، وأمثال؛ فاعملوا بالحلال واجتنبوا الحرام واتبعوا المحكم وآمنوا بالمتشابه واعتبروا بالأمثال"[٢].

وتشتمل أمثال القرآن على بيان تفاوت الأجر، وعلى المدح والذم وعلى الثواب والعقاب، وعلى تفخيم الأمر وتحقيره، وعلى تحقيق أمر أو إبطاله، وامتن الله ﷻ علينا بذلك فقال: ﴿**وضربنا لكم الأمثال**﴾

والمثل القرآني أسلوب بياني يجمع في طياته نماذج حية مستمدة من الواقع المشاهد لتكون هذه النماذج أقيسة عامة للحقائق المجردة أو الأعمال المجربة أو

(١) أمثال الحديث: عبد الرحمن بن خلاد الرامهرمزي، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ط١ ١٩٨٨، تحقيق أحمد عبد الفتاح تمام، صـ ٩٤٨

(٢) البرهان في علوم القرآن الكريم: للزركشي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي، ط١، ١٩٧٥، صـ٤٨٦

الأمـور التـي لا تقـع تحـت الحـس والإدراك في الدنيـا والتـي يترتـب عليهـا أحـكام شـمولية ويبنـى عليهـا صـلاح أمـر النـاس في الدنيـا والآخـرة وبهـذا الإطـلاق العـام لمعنـى المثـل في القـرآن الكريـم نفهـم معنـى قولـه تعـالى:

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَـذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُورًا﴾ (الإسراء ـ ٨٩)

ومـن عجيـب أمـر الأمثـال في القـرآن الكريـم أنهـا تخلـو مـن المبالغـات التـي تخـرج الـكلام عـن المعـاني المـرادة إلى جـو مـن الخيـال المفـرط الذي يـؤدي إلى تشـتت الأذهـان، وذهـاب الحقائـق وخلـو الأسـباب عـن الإقنـاع العقـلي وإن صحبـه شيء مـن الإمتـاع العاطفـى.

لهـذا كانـت تشـبيهات القـرآن الكريـم وأمثالـه صـورًا حيـة تعـبر عـن الواقـع لا تعـدوه إلى غـيره، ومـع ذلـك تجدهـا لا تخلـو مـن الإمتـاع العاطفـي والتأثـير الوجـداني بـما اشـتملت عليـه مـن ألـوان المعـاني والبيـان والبديـع الـذي يخلـو تمامًـا مـن التكلـف والاعتسـاف مـع رقـة في النظـم [1] .

***

(١) الأمثال القرآنية: دكتور/ محمد بكر إسماعيل، مطبعة الأمانة، ط١، ١٩٨٦، صـ٧٧ - ٧٨

الأغراض الدلالية لضرب المثل بالحيوان في القرآن الكريم

الغرض الدلالي الأول: الله لا يستحيي من الحق

إن من الأمثال أمثالاً يكون غرضها الإقناع بفكرة من الأفكار وقد يصل الإقناع إلى مستوى الحجة البرهانية، وقد يقتصر على مستوى إقامة الحجة الخطابية، وقد يقتصر على لفت النظر إلى الحقيقة عن طريق صورة مشابهة.

والحجة البرهانية هي الحجة الملزمة التي تفيد اليقين. أما الحجة الخطابية فهي حجة إقناعية ظنية تفيد الظن الراجح، أما لفت النظر يكفي فيه إيراد المثل المشابه ولو لم يشتمل على أية حجة [١].

ولعل الآية ٢٦ من سورة البقرة والتي يقول فيها الله ﷻ:

﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ﴾

جاءت بغرض الإقناع بفكرة أن الله ﷻ له أن يضرب المثل بما يشاء من خلقه سواء أكان هذا المثل بعوضة أو شيئًا آخر فوق البعوضة لأن الله تعالى يقول الحق والله لا يستحيي من الحق؛ فحين يكون التمثيل بالمخلوقات التي يراها الناس في أعينهم حقيرة طريقًا قريبًا لبيان الحق ليس في ذكرها والتمثيل بها ما يدعو إلى الاستحياء. فالله ﷻ خالق جميع الكائنات الحية من أدناها إلى أرقاها وجعل في كل نوع منها أدلة كثيرة على كمال قدرته وكمال علمه وكمال حكمته [٢].

وجاء الإقناع هنا من خلال لفت النظر إلى حقيقة عن طريق صورة مشابهة.

---

(١) أمثال القرآن: عبد الرحمن حسن حبنكة، ص٦٦.

(٢) نفسه: صـ ٤١.

فلما كان ديدن المشركين إنكار القرآن الكريم والتشكيك في أنه كلام الله وراحوا يدللون على هذه القضية بكل طريقة مشروعة أو غير مشروعة وكان القرآن الكريم مشتملاً على تحدي العرب - أهل البلاغة والفصاحة والبيان - في أن يأتوا بسورة أو بعشر آيات أو بآية واحدة منه فإنهم سلكوا في المعارضة طريق الطعن في المعاني فلبسوا على الناس بأن في القرآن من سخيف المعنى ما ينزه عنه كلام الله ليصلوا بذلك إلى مرادهم وهو إلقاء الشك في نفوس المؤمنين تجاه كلام الله.

وقد روى الواحدي في أسباب النزول[1] عن ابن عباس أن الله تعالى لما أنزل قوله ﴿**إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ**﴾ (الحج - ٧٣)

وقوله: ﴿**مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاء كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ**﴾(سورة العنكبوت - ٤١)

قال المشركون أرأيتم أي شيء يصنع بهذا فأنزل الله تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لاَ يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ**﴾

وروى عن الحسن وقتاده أن الله لما ذكر الذباب والعنكبوت في كتابه وضرب بها المثل ضحك اليهود، وقالوا ما يشبه أن يكون هذا كلام الله فأنزل الله ﴿**إِنَّ اللَّهَ لاَ يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً**﴾الآية

ويضيف صاحب التحرير والتنوير متحدثًا عن سبب نزول هذه الآية: "إن المشركين كانوا يفزعون إلى يهود يثرب في التشاور في شأن نبوة محمد ﷺ وخاصة بعد أن هاجر النبي ﷺ إلى المدينة فيتلقون منهم صورًا من الكيد

(١) أسباب النزول: للواحدى النيسابوري (ت ٤٦٨هـ)، المكتبة التوفيقية ط٣، ٢٠٠٣ صـ٢٣.

والتشعيب فيكون قد تظاهر الفريقان على الطعن في بلاغة ضرب المثل بالعنكبوت والذباب، فلما أنزل الله تعالى تمثيل المنافقين بالذي استوقد نارًا وكان معظمهم من اليهود هاجت أحناقهم وضاق خناقهم فاختلقوا هذه المطاعن فقال كل فريق ما نسب إليه في إحدى الروايتين ونزلت الآية للرد على الفريقين، ووضح الصبح لذي عينين"[١] .

فنحن الآن أمام مثل بمعنى الشبه مطلقًا لا تمثيل هيئة بهيئة وفيه رد على المخالفين من وجهين:

أولاً: أن الله لا يستحيي من ضرب المثل بصفة عامة.

ثانيًا: أن الله لا يستحيي أن يضرب مثلاً بالبعوضة وما فوقها. فكما أنه لا يستنكف عن خلقها فهو كذلك لا يستنكف عن ضرب المثل بها.

ومعنى قوله: ﴿**إن الله لا يستحيي**﴾: أي لا يترك ضرب المثل بالبعوضة ترك من يستحيي أن يمثل بها لحقارتها [٢] .

﴿**ما**﴾ [٣] : إبهامية إذا اقترنت باسم نكرة زادته شياعًا وعمومًا كقولك أعطني كتابًا ما، تريد بمعنى أي كتاب كان، أو صلة للتأكيد كالتي في قوله ﴿**فبما نقضهم**﴾أي مثلاً حقًا أو البتة، وانتصب بعوضة بأنها عطف بيان أو بدل من قوله مثلاً.

والبعوضة واحدة البعوض، وهي حشرة صغيرة ذات خرطوم دقيق تحوم على الإنسان لتمتص بخرطومها من دمه غذاء لها وتعرف في لغة هذيل بالخموش، وأهل تونس يسمونه الناموس، وواحدته الناموسة.

---

(١) تفسير التحرير والتنوير: محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر، ط١٩٨٤،١، جـ١ صـ٣٥٧.

(٢) نفسه: جـ١، صـ٣٥٩

(٣) يرى ابن كثير أن (ما) هنا للتقليل.

ومن غرائب خلق البعوض أنه مع صغره أعطي كل ما أعطي للفيل مع كبره؛ فكل عضو خلق للفيل فللبعوض مثله مع زيادة جناحين، ففي ذلك إشارة إلى أن خلق أحدهما ليس أصعب من خلق الآخر.

فسبحان من قسم له الأعضاء الظاهرة والباطنة والقوى كذلك كما للحيوان الكبير؛ فانظر إلى صغر جسمه فإن الطرف يدركها بالشدة لصغره، ثم إلى رأسه لأن رأسه لم تكن من جسمه وفيها القوى الباطنة الخمس؛ لأن فيها الحس المشترك لأنها ترى الحيوانات فتمشي إليها، وفيها الخيال لأنها إذا وقعت على الحيوان تغمس خرطومها، وإذا وقعت على الحائط لا تفعل ذلك، وفيها الوهم لأنه يفرق بين من يقصدها فتهرب وبين من لا يقصدها فتبقى، وفيها الحافظة لأنها تجذب الدم وتهرب في الحال لعلمها بأنها أوجعت فيأتيها صدمة المتألم، وفيها المفكرة؛ لأنها إذا أحست بحركة يد الإنسان تهرب لعلمها أنها مهلكة، وإذا سكنت يده عادت إلى مكانها لعلمها أن المنافي ذهب وأن محل الغذاء قد خلا، ولها خرطوم بالغ الدقة ومع دقته مجوف حتى يجري فيه الدم الرقيق، وخلق في رأس ذلك الخرطوم قوة يضرب بها جلد الفيل والجاموس فينفذ فيهما؛ فسبحان من لا يعرف دقائق حكمه إلا هو.[1]

ونلحظ أن القرآن الكريم أفرد لفظ ﴿**بعوضة**﴾ كما أشار إلى خطر البعوضة؛ فالبعوضة على ضآلة حجمها قد أوتيت قدرات خارقة فعينها عين مركبة تتألف من مئات العيينات المستقلة تشريحيًا والمتكاملة وظيفيًا مما يعطيها قدرة هائلة على الرؤية ليلاً ونهارًا في كل أطياف الضوء، وأنثى البعوض تتغذى على دماء ذوي الدماء الحارة فتغرس مثقابها في جلد الإنسان فتفرز لعابها الذي يحمل مركبات عضوية تؤدي إلى احتقان الجلد والإصابة بالكثير من الأمراض مثل الملاريا، والملاريا الخبيثة، وداء الفيل، والحمى الصفراء، والحمى الدماغية، والحمى الشوكية، وغيرها من الأمراض التي أدت إلى إهلاك الملايين.

(١) عجائب المخلوقات: للقزويني (٦٠٠ - ٦٨٢هـ)، مكتبة الإيمان، ط١، ٢٠٠٣ صـ٣٤٣،٣٤٢

من هنا كان ضرب المثل بها في القرآن الكريم على شدة خطرها مع ضآلة حجمها، وعلى وجود ما هو أخطر وأدق منها وما هو أعظم منها حجمًا وخطرًا من مخلوقات الله الأخرى.

وفي زمن الوحي لم يكن أحد يدرك حقيقة خطر البعوضة فكانوا يستهينون بها، وفي زماننا - زمن التقدم العلمي - تقف البشرية عاجزة أمام أخطار هذه الحشرة الصغيرة. كما أن إفراد لفظ (بعوضة) وتأنيثه في هذا النص القرآني المعجز يشير إلى عيشة البعوض عيشة فردية، وإلى تمايز الأنثى عن الذكر في هذه الحشرة الخطيرة وإلى تفرد الأنثى وحدها - دون الذكر - بهذا الخطر الداهم وهي حقيقة لم يعرفها الإنسان إلا في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين.(١)

وقوله: فما فوقها: أي فالذي هو أعظم منها في الجثة كالذباب والعنكبوت والحمار والكلب.

وقد تشير ﴿ما﴾ إلى تعدد أنواع البعوض - فهي تضم ما بين الألفين أو الثلاثة آلاف نوع وتأتي في المرتبة الثانية تعدادًا بعد النحل فإن القوم أنكروا تمثيل الله لها بكل هذه الأشياء، أو أراد فما فوقها في الصغر كجناح البعوضة حيث ضربه ﷺ مثلاً للدنيا، وهذا أولى، لأن الآية نزلت في بيان أن الله تعالى لا يمتنع عن التمثيل بالشيء الحقير فيجب أن يكون المذكور ثانيًا أحقر من الأول، والفاء هنا تفيد الترتيب في الذكر؛ لأنه يذكر في هذا المقام الأخس كقول النابغة الذبياني (البسيط):

يا دَارُ مَيَّةَ بالعلياءِ فالسندِ أقوَت وطَالَ عليهَا سَالِفُ الأبدِ(٢)

---

(١) من آيات الاعجاز العلمي: دكتور/ زغلول النجار، ط ١، ٢٠٠٦، ص-ـ١٧٦ وما بعدها.

(٢) خزانة الآدب: لعبد القادر بن عمر البغدادي (١٠٣٠- ١٠٩٣ هـ)، تحقيق عبد السلام هارون - مكتبة الخانجي، ط١، ١٩٨٦، جـ ١١، صـ ٣٢.

لأنه يذكر في تعريف الأمكنة الأخص بعد الأعم فكأن العلياء موضع وسيع يشتمل على مواضع منها السند [١]

كما أن كلمة "فوق" تستعمل في معنى التغلب والزيادة في صفة سواء كانت من المحامد أو المذام يقال: فلان خسيس وفوق الخسيس، وفلان شجاع وفوق الشجاع، وتقول أعطى فلانًا فوق حقه: أي زائد على حقه.

وهو في هذه الآية صالح للمعنيين؛ أي ما هو أشد من البعوضة في الحقارة، وما هو أكبر حجمًا، ونظيره قول النبي ﷺ **"ما من مسلم يشاك شوكة فما فوقها إلا كتبت له بها درجة ومحيت عنه بها خطيئة"**[2] رواه مسلم، ويحتمل أقل من الشوكة في الأذى مثل نخبة النملة، كما جاء في حديث آخر، أو هو أشد من الشوكة مثل الوخز بسكين، وهذا من تصاريف لفظ "فوق" في الكلام؛ لذا كان لاختياره في هذه الآية دون لفظ "أقل" ودون لفظ "أقوى" مثلاً موقع من بليغ الإعجاز، والفاء عاطفة ما فوقها على بعوضة أفادت تشريكهما في ضرب المثل بهما وحقها أن تفيد الترتيب والتعقيب، لكنها هنا لا تفيد التعقيب، وإنما استعملت في معنى التدرج في الرتب بين مفاعيل أن يضرب، ولا تفيد أن ضرب المثل يكون بالبعوضة ويعقبه ضربًا بما فوقها، بل المراد بيان المثل بأنه البعوضة وما يندرج في مراتب القوة زائدًا عليها درجة تلي درجة.

ولما كان إنكار المنكرين ناشئًا عن كفرهم وفسقهم كان من حكمة الله وعدله أن يحكم بضلالتهم، ولما كان علم المؤمنين بأنه الحق من ربهم ثمرة إيمانهم كان من حكمة الله أن يحكم لهم بالهداية.

---

(١) غرائب القرآن ورغائب الفرقان: لنظام الدين الحسن بن الحسين القمي النيسابوري (ت ٧٢٨ هـ) تحقيق إبراهيم عطوة، مطبعة البابي الحلبي، ط ١٩٦٤،١، جـ ١، ص٢١٩ وما بعدها.

(٢) صحيح مسلم، كتاب: البر والصلة، باب: ثواب المؤمن فيما يصيبه، جـ ٨، صـ ٣٠٤، رقم ٢٥٧٢.

لذا جاء ختام الآية ﴿**يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ**﴾ وأهل الهدى كثير في أنفسهم، وحين يوصفون بالقلة:-

(وقليل من عبادي الشكور، وقليل ما هم) إنما يوصفون بها بالقياس إلى أهل الضلال وأيضًا فإن المهديين كثير في الحقيقة وإن قلوا في الصورة قال أبو تمام (البسيط):

إنَّ الكرامَ كَثيرٌ في البلادِ وإن قَلُّوا كما غَيرُهُم قُلٌّ وإن كَثُروا[1]

إذن فهذا مثل من الأمثال المصرحة أو القياسية والتي يصرح فيها بلفظ المثل أو ما يقوم مقامه وقد صرح هنا بلفظ (المثل) مبين لشأن من شئون كماله ﷻ في كتابه العزيز وقاض على الذين يتحامون ذكر البعوضة وأمثالها في كتاب الله؛ فالله لا يترك ضرب مثل من الأمثال حياء منه سواء كان بعوضة أو أصغر منها حجمًا وأقل عند الناس شأنًا فإن الله يقول الحق ولا يستحيي من الحق.

الغرض الدلالي الثاني: الإيمان قوة والكفر ضعف

نبه القرآن الكريم في غير مرة إلى فساد اعتقاد الكفار وإشراكهم بالله وإظهار زيف ما يرمون إليه، وأثبت بالدليل القاطع، والحجة البالغة أن الكفر ضعف.. نعم فالكافر يحيط به الضعف من كل ناحية، فهو ضعيف في دعواه باتخاذه أولياء من دون الله، كما أنه يستمد هذا الضعف من تلك الأصنام التي يتخذها آلهة من دون الله، فليس هناك سوى قوة واحدة هي قوة الله ﷻ وما عداها من قوة الخلق فهو هزيل ضعيف واهن، ونظفر بهذه القضية عبر الآية ٧٣ من سورة الحج قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ**﴾.

(١) ديوان أبي تمام: حبيب بن أوس الطائي (ت ٢٣١ هـ)، شرح: إيليا الحاوي، دار الكتاب اللبناني ط١، ١٩٨٢، صـ٢٨٢

فهذا المثل يكشف عجز الشركاء الذين يزعم المشركون أنهم شركاء الله عن أن يخلقوا حيوانًا مهما كان حقيرًا، بل عجزهم عما دون ذلك بكثير. وهو عجزهم عن التحكم والتصرف بالأشياء الدقيقة الصغيرة جدًا التي يستطيع الذباب أن يحس بها ويقبض عليها ويسلبهم إياها ولا يستطيعون هم أن يحسوا بها ولا أن يقبضوا عليها ولا أن يستنقذوها من الذباب؛ لدقتها وصغرها وضعف أبصارهم عن رؤيتها وضعف حواسهم عن إدراكها وعدم قدرتهم على التحكم أو التصرف بها[1]، والغرض من هذا المثل الإقناع وسوق الدليل على ضعف وفساد ما يذهب إليه المشركون واعتمادًا على تقديم الدليل البرهاني؛ ففي قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ**﴾ إنما جاء بلفظ الماضي لأنه معلوم من قبل لكل ذي عقل، والمراد بالناس هنا الناس كلهم من المؤمنين وأهل الكتاب والمشركين الذين يسمعون هذه الآية من الموجودين يوم نزولها ومن يأتون بعدهم إلى يوم القيامة، وحري بنا أن نذكر أن السورة قد افتتحت ب- ﴿**يا أيها الناس**﴾ وها هي تنتهي بها أيضًا وهو شبيه برد العجز على الصدر، ومما يزيده حسنًا أن يكون العجز جامعًا لما في الصدر وبعده حتى يكون كالنتيجة للاستدلال، لكنا نلاحظ أن ضرب المثل هنا جاء بفعل مضارع مبني لما لم يُسمَ فاعله، وهو ما يختلف عن مواضع أخرى أسند فيها الفعل ضرب لفاعله كقوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لاَ يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا**﴾، في سورة البقرة و﴿**ضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً عَبْدًا مَّمْلُوكًا**﴾ في سورة النحل، و﴿**ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً**﴾ في سورة الزمر: و﴿**وَضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً رَّجُلَيْنِ**﴾ في سورة النحل؛ حيث أسند فعل ضرب للفظ الجلالة كما أسند في مواضع أخرى للمشركين ﴿**فَلاَ تَضْرِبُواْ لِلّهِ الأَمْثَالَ**﴾ سورة النحل، ﴿**وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ**﴾ سورة يس، ولعل ذلك أول ما يلفت النظر، وبدهي أن له علة، بل يرجعها صاحب التحرير والتنوير إلى أحد احتمالين:

(١) أمثال القرآن: صـ١٩٢، ١٩٣

أولهما: أن يقدر الفاعل لفظ الجلالة ﴿**الله**﴾تعالى وأن يكون المثل تشبيهًا تمثيليًا، أي أوضح الله تمثيلاً يوضح حال الأصنام في فرط العجز عن إيجاد أضعف المخلوقات كما هو مشاهد لكل أحد.

ثانيهما: أن يقدر الفاعل ﴿**المشركين**﴾ويكون المثل بمعنى المماثل أي جعلوا أصنامهم مماثلة لله تعالى في الإلهية.

وجملة ﴿**إن الذين تدعون من دون الله**﴾إلى آخرها يجوز أن تكون بيانًا لفعل ﴿**ضرب**﴾على الاحتمال الأول في التقدير: أي بين تمثيل عجيب. ويجوز أن تكون بيانًا للفظ ﴿**مثل**﴾لما فيها من قوله ﴿**تدعون من دون الله**﴾على الاحتمال الثاني كما أن صيغة الأمر في ﴿**استمعوا له**﴾، هنا بمعنى تدبروا لأن السماع المجرد لا نفع فيه[1].

ولا يخفى أن استخدام صيغة الأمر هنا بغية استرعاء الأسماع وتنبيه السامعين بأن يتهيأوا لتلقي هذا المثل لما هو معروف لدى البلغاء من استشرافهم للأمثال ومواقعها.

فنحن أمام مثل من الأمثال التصريحية إذ صدر بلفظ ﴿**مثل**﴾ وفيه تشبيه حالة بحالة فشبهت الأصنام المتعددة المتفرقة من قبائل العرب وفي مكة بالخصوص بالعظماء - أي أن عابديها - أو شبهت هيئتها بهيئة ناس تعذر عليهم خلق أضعف المخلوقات وهو الذباب بله المخلوقات العظيمة كالسماوات والأرض والجبال. ولم ينته السياق الدلالي عند إظهار عجزهم عن الخلق بل امتد ليشمل عجزهم من خلال أربعة محاور تظاهرت لإظهار شدة عجز المتخذين آلهة من دون الله.

الأول: استخدام الأداة لن الدالة على النفي على التأبيد.

الثاني: الاجتماع، والذي دل عليه قوله تعالى: ﴿**ولو اجتمعوا له**﴾كأنه قال: مستحيل أن يخلقوا الذباب مشروطًا عليهم اجتماعهم جميعًا فكيف إذا انفردوا؟

(١) الأمثال القرآنية: محمد بكر إسماعيل، مطبعة الأمانة، ط١، صـ١٩٩

والثالث: عجزهم عن مجرد التحرك لاسترداد ما سلبهم الذباب إياه، والظاهر في قوله تعالي ﴿**وإن يسلبهم الذباب شيئًا لا يستنقذوه منه**﴾؛ فلو فرض أن الذباب سلب منهم شيئًا لا يستطيعون رده، بل لا يستطيعون الحركة لطلبه وهو ما دلنا عليه قوله ﴿**لا يستنقذوه**﴾ذلك الفعل المحلى بحروف الطلب (ا. س. ت): أي مجرد طلب الإنقاذ ورد ما سلب منهم.

الرابع: أن السالب هو أضعف المخلوقات فكيف وإن حاولتم استرداد شيء سلبه منكم من هو أقوى من الذباب؟

ولكن لماذا استخدم الذباب؟ فخلق الذباب مستحيل كخلق الجمل والخيل لأن الذباب يحتوي على ذلك السر المعجز سر الحياة فيستوي في استحالة خلق الجمل والفيل، لكن الأسلوب القرآني يختار الذباب الحقير لأن خلقه يومئ بالعجز عن خلق ما هو أكبر منه، والسياق سياق تحقير وإظهار عجز ما اتخذه المشركون آلهة من دون الله فجاء ضرب المثل بالذباب مناسبًا تمامًا في هذا السياق.

فالذباب: اسم جمع ذبابة وهي حشرة طائرة معروفة وتجمع على ذباب بكسر الذال، فذكر الذباب لأنه من أحقر المخلوقات التي فيها الحياة المشاهدة وعن ابن عباس أنهم كانوا يطلون الأصنام بالزعفران ورؤوسها بالعسل ويغلقون عليها الأبواب فيدخل الذباب من الكوى فيأكله، وقيل سمي الذباب ذبابًا لأنه كلما ذُبَّ آب. ولكن لماذا كان استرداد ما أخذه الذباب أمرًا مستحيلاً؟

والإجابة: كما ذكرها د. زغلول النجار في كتابه "الإعجاز العلمي للحيوان": "إن الذباب يتغذى على النفايات المختلفة وإن كانت أشربة الناس وأطعمتهم لا تسلم من هجماته، والذبابة المنزلية تتذوق الشراب أو الطعام بمجرد أن تحط عليه، وذلك بواسطة خلايا حساسة منتشرة في كل من شفتها وأقدامها، فإن راقها سلبت منه ما تستطيع وهربت بسرعة فائقة كما يفعل اللصوص، فإن كان ما سلبته شرابًا امتصته بواسطة خرطومها ليصل إلى جهازها الهضمي

المزود بالقدرة على إفراز الخمائر القادرة على هضمه وتمثيله تمثيلاً كاملاً في ثوانٍ معدودة، وبذلك لا يمكن استنقاذه منها. أما إذا كان الطعام صلبًا فإن الذبابة المنزلية تفرز عليه من بطنها عددًا من الإنزيمات والعصائر الهاضمة بالإضافة إلى لعابها، وتبدأ في إذابة ما تقع عليه من الطعام الصلب فورًا مما يمكن الذبابة من امتصاصه بخرطومها وبأجزاء فمها ذات الطبيعة الإسفنجية ومن ثم لا يمكن استرجاعه أبدًا، أواستنقاذه بأي حال من الأحوال [1].

الغرض الدلالي الثالث: من صفات الكفار

ليس بعد الكفر ذنب. وكما ذكر الله ﷻ في كتابه العزيز المؤمنين وصفاتهم وما ينتظرهم في الآخرة من نعيم مقيم ورضوان من الله أكبر فكذلك تحدث القرآن كثيرًا عن الكفار وصفات الكافرين وما ينتظرهم في الآخرة من خزي وعذاب وغضب من الله.

ومن أهم ما يتصف به الكفار هو عدم الإصغاء لأمر الله ﷻ وحجتهم في ذلك أنهم وجدوا آباءهم على هذه الحال وهم إنما يتبعون ما ألفوا عليه آباءهم، فضرب هذا المثل تنبيهًا للسامعين لهم أنهم إنما وقعوا فيه بسبب ترك الإصغاء: قال تعالى: ﴿**وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لاَ يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاء وَنِدَاء صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ**﴾(البقرة ـ ١٧١)

أي فيما هم فيه من الغي والضلال والجهل كالدواب السارحة التي لا تفقه ما يقال؛ فهي لا تسمع إلا الصوت فقط ولا تفهم معناه وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿**ومثل الذي ينعق بما لا يسمع**﴾ قال: كمثل البقر والحمار والشاة إن قلت لبعضهم كلامًا لم يعلم ما تقول غير أنه يسمع صوتك كذلك الكافر إن أمرته بخير أو نهيته عن شر أو وعظته لم يعقل ما تقول غير أنه يسمعك.

(١) من آيات الإعجاز العلمي في الحيوان: دكتور/ زغلول النجار صـ١٥٩

والنعق: نداء الغنم وفعله كضرب ومنع، ولم يقرأ إلا بكسر العين كقول الأخطل يصف جريرًا بأن لا طائل في هجائه. حيث قال: (الكامل):

فانعِق بضأنِكَ ياجَرِيرُ فإنما مَنَّتكَ نَفْسُكَ في الخَلاءِ ضَلالاَ (١)

وجاء هنا العطف بالواو ولم يفصل كما في قوله تعالى: ﴿**مثلهم كمثل الذي استوقد نارًا**﴾. (البقرة - ١٧) لأنه أريد هنا جعل هذه صفة مستقلة لهم في تلقي دعوة الإسلام ولو لم يعطف لما صح ذلك.

والمثل هنا لما أضيف إلى الذين كفروا كان ظاهرًا في تشبيه حالهم عند سماع دعوة النبي ﷺ إياهم إلى الإسلام بحال الأنعام عند سماع دعوة من ينعق بها في أنهم لا يفهمون، أو تشبيه حالهم بحال الغنم مع الراعي يدعوها فتقبل، ويزجرها فتنزجر وهي لا تعقل مما يقول شيئًا، ولا تفهم له معنى وإنما تسمع أصواتًا تقبل لبعضها وتدبر للآخر بالتعويد ولا تعقل سببًا للإقبال ولا للإدبار.

فكل من الحالة المشبهة والحالة المشبهة بها يشتمل على أشياء: داع ومدعو ودعوة، وفهم وإعراض وتصميم، وكل من هاته الأشياء التي تمثل مجتمعة أجزاء التشبيه المركب صالح لأن يكون مشبهًا بجزء من أجزاء المشبه به.

وهذا من أبدع التمثيل وقد أوجزته الآية إيجازًا بديعًا - كما قال صاحب التحرير والتنوير (٢).

وغرض هذا المثل هو تقريب صورة الممثل له إلى ذهن المخاطب! فقد يكون لدى المخاطب نوع جهالة من خلال إحضار صورة الممثل له بالفعل أمام المخاطب، وربما كان الممثل له صورة ذهنية أو وجدانية، أما في هذا المثل فالممثل له صورة مادية.

(١) طبقات فحول الشعراء: لمحمد بن سلام الجمحي (١٣٩-٢٣١ هـ)، شرح محمد محمود شاكر مطبعة المدني، ١٩٧٤، صـ ٤٩٧

(٢) التحرير والتنوير: للطاهر بن عاشور، جـ١، صـ ١١١.

فالتشبيه هنا تشبيه مركب جاء على شكل وحدة مركبة متداخلة أعطت بجملتها وجه الشبه دون ملاحظة التقابل الجزئي بين طرفي التشبيه، وقد اعتمد على تمثيل مدرك فكري بمدرك حسي ظاهر فالكفر مسألة ذهنية فكرية، وقد مثلت بهذه الصورة من ناعق يدعو غنمًا لا حظ لهم سوى سماع الأصوات، وجاءت هذه الصورة منتزعة من الواقع.

﴿**ومثل الذين كفروا**﴾ يرى الزمخشري أنه لا بد من مضاف محذوف تقديره: ومثل داعي الذين كفروا ﴿**كمثل الذي ينعق**﴾، أو مثل الذين كفروا كبهائم الذي ينعق [١]

فالمقصود ابتداء هو تشبيه حال الكفار لا محالة، ويستتبع ذلك تشبيه حال النبي ﷺ وحال دعوته، وللكفار هنا حالتان، حالة الإعراض عن داعي الإسلام، والثانية: حالة الإقبال على عبادة الأصنام، وقد تضمنت الحالتين الآية السابقة وهي قوله تعالى: ﴿**وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا**﴾ وأعظمه عبادة الأصنام فجاء هذا المثل بيانًا لما طوي في الآية السابقة.

والدعاء والنداء قيل بمعنى واحد؛ فهو تأكيد، وقيل الدعاء للقريب والنداء للبعيد، وقيل الدعاء ما يسمع والنداء قد يسمع وقد لا يسمع، والظاهر أن المراد بهما نوعان من الأصوات التي تفهمها الغنم، فالدعاء ما يخاطب به الغنم من الأصوات، والنداء رفع الصوت عليها لتجتمع إلى رعايتها ولا يجوز أن يكونا بمعنى واحد مع وجود العطف لأن التوكيد اللفظي لا يعطف. فإن حقيقة النداء رفع الصوت لإسماع الكلام أو المراد به هنا نداء الرعاة بعضهم بعضًا للتعاون على ذود الغنم [٢].

(١) تفسير الكشاف: (الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل): أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي (٤٦٧ - ٥٣٨هـ) تحقيق أ/ يوسف الحمادي، مكتبة مصر، ط١، صـ ١٩٦.

(٢) التحرير والتنوير: للطاهر بن عاشور، جـ١، صـ ١١٢.

وقوله صم بكم عمي: إخبار لمحذوف على طريقة الحذف المعبر عنه في علم المعاني بمتابعة الاستعمال بعد أن أجرى عليهم التمثيل والأوصاف، إن رجعت للمشركين فهي تشبيه بليغ وهو الظاهر، وإن رجعت إلى الأصنام المفهومة من ينعق فهي حقيقة وتكون شاهدًا على صحة الوصف بالعدم لمن لا يصح اتصافه بالملكة كقولك للحائط: هو أعمى. أو كما يرجح النيسابوري في غرائب القرآن:

(صم) عن سماع الحق والانتفاع به، (بكم) عن إجابة الداعي إلى سبيل الخير (عمي) عن النظر في الدلائل (فهم) لا يعقلون العقل المسموع ولا المطبوع.

وذلك أن طريق الاكتساب: الاستعانة بالحواس، ولهذا قيل:

"من فقد حسًا فقد علمًا" فلما فقدوا فائدة الحواس فكأنهم عدموها خلقة

وقال النبي ﷺ: "إن لكل شيء دعامة، ودعامة عمل المرء عقله فبقدر عقله تكون عبادته لربه أما سمعتم قول الله ﷻ حكاية عن الفجار ﴿**لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير**﴾ وقال: ما اكتسب المرء مثل عقل يهدي صاحبه إلى هدى ويرده عن ردى"[1]

وجاءت ﴿**فهم لا يعقلون**﴾ تقريع للمشركين كمجئ النتيجة بعد البرهان؛ فإن كان ذلك راجعًا للمشركين فالاستنتاج عقب الاستدلال ظاهر لخفاء النتيجة في بادئ الأمر، أي إن تأملتم وجدتموهم لا يعقلون لأنهم كالأنعام والصم والبكم.. إلخ، وإن كان راجعًا للأصنام فالاستنتاج للتنبيه على غباوة المشركين الذين عبدوها، ومجئ الضمير لهم بضمير العقلاء تهكم بالمشركين لأنهم جعلوا الأصنام في أعلى مراتب العقلاء وهو ما قال به صاحب التحرير والتنوير[2].

(١) غرائب القرآن: للنيسابوري جـ١، صـ٦٦.

(٢) التحرير والتنوير: للطاهر بن عاشور، جـ١، صـ١١٣

فهؤلاء قسم من الكفار رفضوا الاستجابة لداعي الإيمان لأنهم صمموا على ألا يؤمنوا واختاروا بكامل إرادتهم سبل الكفر على سبيل الإيمان وهم الذين قال الله بشأنهم في أوائل سورة البقرة:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ خَتَمَ اللّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عظِيمٌ﴾.

فلما استوى عندهم الإنذار وعدمه كان أحسن تمثيل لهم أن نمثلهم بالأنعام لأنها لا تفهم ولا تعي الكلام التي تخاطب به ولا تدرك دلالته.

ولما كانت عقدة هذا القسم من الكفار ذات أثر في أعماقهم ومن كانت عقدة كفره في أعماق نفسه كانت النتيجة الطبيعية التي تقضي بها سنة الله في خلقه أن يختم على قلبه فلا يقبل الهداية، وأن يختم أيضًا على سمعه فهو لا يسمع أقوال الهداية، أو تكون الغشاوة على سمعه فلا تسمح بانتقال أقوال الهداية إلى مراكز إدراكه الواعي، وأن يكون على بصره غشاوة لا تسمح بانتقال المرئيات المتضمنة عبرًا وعظات وآيات من آيات الله إلى مراكز وعيه.

فالصورة المرسومة في هذا المثل دقيقة ومعبرة، وهي صورة حية وحركية ونابضة وناطقة؛ فهي تصور واقع هؤلاء النفسي والشعوري كما أنها تصور حال مخاطبيهم من الداعين لهم إلى الإيمان حيث يتمزقون بمشاعر الخيبة وعدم جدوى عملهم. لذا فإن صدق المماثلة بين الممثل به والممثل له أمر ظاهر في هذا المثل، كما أن عنصر الحركة قد أضفى حيوية على هذا المثل، إذ بدا في هذه الصورة التمثيلية ناعق ينادي في قطيع من الغنم، والقطيع يموج بعضه في بعض، وهو لا يدري من كلام الناعق الخطيب شيئًا ونفس الخطيب المنادي تتمزق بمشاعر الخيبة وعدم جدوى عمله [1]

(١) أمثال القرآن: عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، ص ١١٩-١٢٠

وهـذا المثـل يتنـاول مسـألة التقليـد والمقلديـن، والتقليـد تعطيـل لنعمـة العقـل وعقـل لموهبـة الإدراك. والمقلـدون هـم الذيـن ألغـوا مداركهـم وأفهامهـم فلـم يتفكـروا في خلـق السـماوات والأرض، ولم يتوصلـوا ببحثهم واسـتقرائهم إلى الاعتقاد الجـازم والإيـمان المكـين وصمـوا عـن سـماع دعـوة الحـق سـماع تدبـر وتفهـم.

هـؤلاء هـم السـلبيون مسـلوبو الإرادة والمشـيئة والتـصرف الذيـن دعاهـم داعـي الله إلى مـا أنـزل الله فـكان قولهـم: لنـا في آبائنـا قـدوة وأسـوة فلـن نحيـد عـن معتقداتهـم ولـن نخـرج عـن سـنتهم [1].

فالكافـر الـذي يـرى الحـق ويعـرض عنـه ويـصرف نفسـه عـن دلائلـه وآياتـه فلا ينظـر فيهـا فهو كالحيـوان، يرضى بـألا يكون لـه فهم ولا علـم، بل يقوده غـيره يصرفه كيف يشـاء فهـو مع من قلدهـم من الرؤسـاء كالغنم مـع الراعي تقبل بدعائـه وتنزجر بندائـه مسـخرة لإرادتـه وقضائـه ولا تفهـم لماذا دعـا ولماذا زجـر؟ فدعوتهـا إلى الرعي وإلى الذبـح سـواء. وكذلـك شـأن كل من يسـلم اعتقـادًا بلا دليـل ويقبـل تكليفًا بغير فقـه ولا تعليـل، والآيـة صريحـة في أن التقليد بغير عقـل ولا هداية هو شـأن الكافرين، وأن المـرء لا يكـون مؤمنًـا إلا إذا عقـل دينـه وعرفـه بنفسـه حتـى اقتنـع بـه، فمـن ربي عـلى التسـليم بغـير عقـل - والعمـل ولـو صالحًـا - بغير فقـه فهو غـير مؤمن لأنـه ليس القصـد مـن الإيـمان أن يذلـل الإنسـان للخـير كـما يذلـل الحيـوان؛ بـل القصـد منه أن يرتقـي عقلـه وتتزكـى نفسـه بالعلـم بـالله والعرفـان في دينه فيعمـل الخير لأنـه يفقه أنه الخـير النافـع المـرضي لله، ويـترك الشر لأنـه يفهم سـوء عاقبتـه ودرجة مضرتـه في دينه ودنيـاه ويكـون فـوق هـذا عـلى بصـيرة وعقـل في اعتقاده فـلا يأخـذه بالتسـليم لأجل آبائـه وأجـداده، لذا وصـف الله الكافريـن بعد تقريـر المثل بأنهم ﴿**صم**﴾ لا يسـمعون الحـق سـماع تدبـر وفهم ﴿**بكـم**﴾ لا ينطقـون به عـن اعتقاد وعلـم [2].

(١) قـراءة تحليليـة في الحقـول الدلاليـة لـضرب الأمثـال القرآنيـة: دكتـور/ محمـد إبراهيـم الطـاووسي صـ١٨٥-١٨٦

(٢) تفسـير المنـار: الأسـتاذ الإمـام الشـيخ محمـد عبـده، تأليـف محمـد رشـيد رضـا، الهيئـة المصريـة العامـة للكتاب طـ١٩٧٢،١، جـ٢، صـ٧٦

كما أن الآية ١٧٦ من سورة الأعراف تتناول كذلك صفة من صفات الكفار فهي تتحدث عمن ذكر في الآية السابقة عليها وهو الرجل الذي آتاه الله آياته فتركها فأتبعه الشيطان واختلف المفسرون في هذا الرجل الذي نزلت فيه الآيات، فقال البعض إنه بلعم بن باعوراء، وقال قتادة عن ابن عباس: هو صيفي بن الراهب، وقال كعب: كان رجلاً من أهل البلقاء وكان يعلم الاسم الأكبر وأيًّا ما كان اسم هذا الرجل فلسنا بصدد تحقيق تاريخي لشخص بعينه؛ فالإشارة القرآنية تعني حقيقة دائمة مستقلة عن الأشخاص.

فالواضح أنه رجل آتاه الله علمًا فلم يثبت على الإيمان فجاءت الآية التي نحن بصددها حيث قال تعالى:

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾(الأعراف - ١٧٦)

فنجد أنفسنا بين يدي مثل من الأمثال المصرحة التي صرح فيها بلفظ المثل بالإضافة كذلك إلى كاف التشبيه، واستعمال القرآن لفظ المثل بعد كاف التشبيه مألوف بأنه يراد به تشبيه الحالة بالحالة ومثله **﴿كمثل الذي استوقد نارًا﴾** في سورة البقرة.

لذلك تعين أن التشبيه هنا لا يخرج عن المتعارف عليه في التشبيه المركب، فهذا ضال تحمل كلفة اتباع الدين الصالح وصار يطلبه في حين كان غير مكلف بذلك في زمن الفترة فلقي من ذلك نصبًا وعناءً؛ فلما حان اتباع الحق ببعثة النبي ﷺ تحمل مشقة العناد والإعراض عنه في وقت كان جديرًا فيه بأن يستريح من عنائه لحصول طلبته فكانت حالته شبيهة بحالة الكلب الموصوف باللهث في حالة وجود أسباب اللهث من الطرد والإرهاب والمشقة وهي حالة الحمل عليه، وفي حالة الخلو عن ذلك السبب وهي حالة تركه في دعة ومسالمة والذي ينبه على هذا المعنى قوله **﴿أو تتركه﴾**، والغرض من هذا التشبيه تقريب صورة الممثل له إلى ذهن المخاطب

فيوضح حالة اللهث النفسي والظمأ لمطالب الحياة الدنيا لدى المكذبين بآيات الله وانسلاخهم منها بعد أن آتاهم الله إياها إخلادًا إلى الأرض وطلبًا للطمأنينة فيها والاستمتاع بلذتها بحالة الكلب الذي يلهث باستمرار؛ فهذا تمثيل مركب وجاء على شكل لوحة بها كافر ترك آيات الله وانسلخ منها، وكلب لاهث حال يحمل عليه أو يترك جاءت في صورة تدرك بالحس، وهذه الصورة التمثيلية منتزعة من الواقع؛ فصورة الكلب اللاهث حاضرة في ذهن المتلقي.

وقد جاء التعبير بالإفراد لا بالجمع في قوله ﷻ ﴿**الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها**﴾(الأعراف - ١٧٥) إبرازًا للمسئولية الفردية لدى هؤلاء المنسلخين وإعلامًا بأن قضية هؤلاء ليست قضية جماعية تؤثر فيها ضواغط الجماعة؛ بل هي قضية إيمانية سلوكية فردية فهل حقق المنسلخ من آيات الله بإيثاره الدنيا وإخلاده إلى الأرض واتباع هواه ما يصبو إليه؟

ويأتي الجواب فيدل بإشارته الأدبية الرفيعة على أنه لم يحقق ذلك لنفسه بل ظل يتابع أهواءه ويلاحقها دومًا في كد لاهث لا تنتهي حاجته من الدنيا.

﴿**ولو شئنا لرفعناه**﴾: إلى منازل الأبرار (بها) أي بتلك الآيات، ﴿**لكنه أخلد إلى الأرض**﴾، أصل الإخلاد اللزوم على الدوام فكأنه قيل لزم الميل إلى الأرض، ومنه أخلد فلان بالمكان إذا لزم الإقامة به.

ومعنى قوله: ﴿**واتبع هواه**﴾أنه أعرض عن التمسك بما آتاه الله من الأيات ثم إنه لو جاء الكلام على ظاهره لقيل ولو شئنا لرفعناه بها ولكنا لم نشأ، بيد أن قوله ﴿**ولكنه أخلد إلى الأرض**﴾لما دل على هذا المعنى لا جرم أقيم مقامه[1]." واللهث حالة تؤذن بحرج الكلب من جراء عسر تنفسه عن اضطراب باطنه، وإن لم يكن لاضطراب باطنه سبب آت من غيره.

(١) غرائب القرآن: للنيسابوري، ج-٩، صـ٨٥

قال الليث: اللهث هو أن الكلب ونحوه إذا ناله الإعياء عند شدة العدو وعند شدة الحر، فإنه يطلع لسانه من العطش وكل شيء يلهث من إعياء أو عطش إلا الكلب إن شد وهيج لهث، وإن ترك لهث أيضًا لأجل أن ذلك الفعل القبيح طبيعة أصيلة فيه؛ فمعلوم أن الكلب حيوان من ذوات الأربع، ذو أنياب وأظفار كثير النبح في الليل قليل النوم فيه كثير النوم في النهار يألف من يعاشره، ويحرس مكانه من الطارقين الذين لا يألفهم ويحرس الأنعام التي يعاشرها، ويعدو على الذئاب، ويقبل التعليم لأنه ذكي ويلهث إذا تعب أو اشتد عليه الحر كما يلهث بدون ذلك لأن في خلقته ضيقًا في مجاري النفس يرتاح له باللهث [1]

واللهث سرعة النفس مع امتداد اللسان لضيق النفس، وفعله بفتح الهاء وبكسرها ومضارعه بفتحها لا غير والمصدر: اللهث بفتح اللام والهاء، ويقال: اللهاث بضم اللام لأنه من الأدواء وليس بصوت.

فالكلب يلهث دومًا وتفسير ذلك أنه يلجأ للهاث لتزويد جسمه بقدر كاف من الأكسجين، وضبط كل من كمية الماء ودرجة الحرارة فيه، وتهويته في حالة الحر الشديد، والسبب في ذلك أن جسم الكلب لا يحمل غددًا عرقية إلا في باطن أقدامه فقط وهي لا تفرز من العرق ما يكفي لتنظيم درجة حرارة جسمه؛ لذا فإن الكلب يستعين بعملية (اللهاث) لتعويض غيبة الغدد العرقية في غالبية جسمه ولوجود الشعر الكثيف الذي يغطي أغلب الجسم فيرفع من درجة حرارته خاصة في غيبة الغدد العرقية التي تقوم بتنظيم درجة حرارة أجساد أغلب الكائنات الحية الأرضية. وحقيقة اضطرار الكلب إلى اللهاث المستمر تقريبا من أجل خفض درجة حرارة جسده أو للتعبير عن شدة عطشه، أو عن الإجهاد الشديد الذي تعرض له، أو عن عارض عرض له، أو مرض عضوي أو نفسي ألم به أو فرح

(١) التحرير والتنوير: للطاهر بن عاشور، جـ ٩، صـ ١٧٧ ط

انتابه، أو حزن لمس قلبه أو غير ذلك من الانفعالات ووسائل التعبير عنها، كل ذلك لم يعرف إلا في دراسات علم السلوك الحيواني (Animal BeRaviour)، وهي دراسات مستحدثه لم تتبلور إلا في القرن العشرين، وهذا التشبيه القرآني كان سبقًا علميًا رائعًا وجاء مناسبًا تمامًا للمشبه به في هذا السياق [1]

فكما أن الكلب لاهث في كل حال كذلك هذا الحريص الضال إن وعظته فهو ضال وإن لم تعظه فهو ضال، لأجل أن ذلك الضلال والخسارة عادة أصلية وطبيعة ذاتية له كما أن ذلك الكلب إن شد عليه لهث وإن ترك لهث. ثم عم بالتمثيل جميع المكذبين الضالين فقال:

﴿**ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا**﴾.

فهذا المثل على إيجازه البديع هو صورة تمثيلية رائعة لحالة اللهث النفسي والظمأ لطالب الحياة الدنيا الذي كذب بآيات الله، وكانت علته النفسية أنه أخلد إلى الأرض طلبًا للطمأنينة فيها والاستمتاع بلذاتها، فمثل حالته بالكلب اللاهث باستمرار؛ فما أبدع هذه الصورة!

ومن صفات الكفار كذلك أنهم يلغون عقولهم فيتنازلون عن درجة الإنسان راضين بالدرجة الأقل بأن يكونوا كالأنعام أو أقل درجة؛ فقد ضرب الله ﷻ بالأنعام مثلاً للذين كفروا بل جعلهم أضل من الأنعام وذلك من خلال الآيات:

﴿**وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ**﴾(الأعراف - ١٧٩)

وقال تعالى: ﴿**أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً**﴾(الفرقان ـ ٤٤)

(١) من الإعجاز العلمى في الحيوان: دكتور/ زغلول النجار، صـ٣٤٣ وما بعدها

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾(محمد - ١٢)

ففي هذه النصوص ضرب الله الأنعام مثلاً للذين كفروا وذلك لأنهم لم يستعملوا ما وهبهم الله من قلوب وعقول وأبصار وأسماع فيما خلقت من أجله وهو استعمالها في معرفة أدلة وجود الله والغاية من الخلق. إنهم بتعطيل هذه الأجهزة العظيمة عن استعمالها فيما خلقت من أجله غدوا في الحياة الدنيا بمثابة الأنعام التي ترى ولكن لا ترى آيات الله في الكون ولا دلائل وجوده، وتسمع، ولكن لا تسمع براهين وجود الله ولا الوصايا التي تأمر بالخير وتنهى عن الشر؛ فعقولهم محجوبة عن معرفة الحقائق الكبرى المتصلة بالنجاة والسعادة العظمى وقلوبهم لا تفقه شيئًا من ذلك [١] قال جار الله: جعلوا كالأنعام بل أضل منها؛ لأن الأنعام تنقاد لأربابها التي تعلفها وتعرف المحسن من المسئ وتنجذب للمنافع وتتجنب المضار وتهتدي للمشارب والمراعي وهؤلاء لا ينقادون لربهم ولا يعرفون إحسانه من إساءة الشيطان، ولا يطلبون أعظم المنافع وهو الثواب، ولا يتقون أشد المضار وهو العقاب، ولا يهتدون للحق الذي هو المرتع الهني والمشرب الروي[٢] .

فالإنسان يشاركه سائر الحيوان في القوى الطبيعية، وفي منافع الحواس الخمس الظاهرة، وفي أحوال التخيل والتفكر، وإنما يحصل الامتياز بالقوة العقلية والفكرية التي تهديه إلى معرفة الحق لذاته والخير لأجل العمل به، فإذا لم تحصل هذه الغاية للإنسان صار في درجة الأنعام بل أضل وأدون، لأن الذي أعرض عن اكتساب الفضائل مع القدرة على تحصيلها من حيث النوع كان أخس حالاً ممن لم يكتسبها مع العجز عنها.

(١) أمثال القرآن: عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، صـ١٥٣

(٢) الكشاف: للزمخشري جـ ٣، صـ ٣٣٣

وقيل وجه الأضلية أن الأنعام مطيعة لله، والكافر غير مطيع، وقال مقاتل: الأنعام تعرف ربها وتبصر منافعها ومضارها فتسعى في تحصيلها ودفعها، وهؤلاء الكفار أكثرهم معاندون مصرون وقيل: إنها تفر أبدًا إلى أربابها ومن يقوم بمصالحها، والكافر يهرب عن ربه إلى الأصنام.

وقيل: إنها لا تضل إذا كان معها مرشد، والكافر يضل بعد إرسال الرسل وإنزال الكتب[1] وفي قوله تعالى: بل هم أضل للانتقال والترقي في التشبيه في الضلال وعدم الانتفاع به، ولما كان وجه الشبه المستفاد من قوله: كالأنعام "يئول إلى معنى الضلال" كان الارتقاء في التشبيه بطريقة اسم التفضيل في الضلال، ويحسن أيضًا أن يذكر في وجه التفضيل أن جهل الأنعام بسيط غير مضر، وجهل هؤلاء مركب مضر ووجه كونهم أضل من الأنعام: أن الأنعام لا يبلغ بها ضلالها إلى إيقاعها في مهاوي الشقاء الأبدي؛ لأن لها إلهامًا تتقصى به عن المهالك كالتردي من الجبال والسقوط في الهوات، هذا إذا حمل التفضيل في الضلال على التفضيل في جنسه وهو الأظهر. أما إن حمل على التفضيل في كيفية الضلال ومقارناته كان وجهه أن الأنعام قد خلق إدراكها محدودًا لا يتجاوز ما خلقت لأجله؛ فنقصان انتفاعها بمشاعرها ليس عن تقصير منها فلا تكون بمحل الملامة. أما أهل الضلالة فإنهم حجزوا أنفسهم عن مدركاتهم بتقصير منهم وإعراض عن النظر والاستدلال فهم أضل سبيلاً من الأنعام وذيل المثل في الآية من سورة الأعراف بقوله تعالى: ﴿**أولئك هم الغافلون**﴾ أي الكاملون في الغفلة، وتعليل لكونهم أضل من الأنعام وهو بلوغهم حد النهاية في الغفلة وبلوغهم هذا الحد أفيد بصيغة القصر الادعائي إذ ادعى انحصار صفة الغفلة بحيث لا يوجد غافل غيرهم لعدم الاعتداد بغفلة غيرهم.

وقد وقع التدرج في وصفهم بهذه الأوصاف من نفي انتفاعهم بمداركهم ثم تشبيههم بالأنعام ثم الترقي إلى أنهم أضل من الأنعام ثم قصر الغفلة عليهم.

(١) غرائب القرآن: للنيسابوري، جـ ١، صـ ٩٠ وما بعدها

أما الآية ٤٤ من سورة الفرقان فقد ذيل المثل بقوله تعالى: ﴿بل **هم أضل سبيلاً**﴾ونلاحظ الفارق بين ﴿**بل هم أضل**﴾، و﴿**بل هم أضل سبيلاً**﴾.

فالآية الأولى عبرت عن الضلال بوجه عام ولم تختص ضلال السبيل كما في الآية الثانية، وضلال السبيل عدم الاهتداء للمقصود لأن الأنعام تفقه بعض ما تسمعه من أصوات الزجر ونحوها من رعاتها وسائقها، وهؤلاء لا يفقهون شيئًا من أصوات مرشدهم وسائسهم وهو الرسول ﷺ.

والضلال في الآية الأولى يشمل ضلال السبيل وغيره - والله أعلم بمراده، أما في الآية ١٢ من سورة محمد

فقد جاء تشبيههم بالأنعام من جهة الغرض من الحياة؛ فإذا ما تحدثنا عن الطعام فإن الطعام يكون وسيلة لا غاية، فشُبه الكافرون بالأنعام من جهة أن الكافر غرضه من الحياة التنعم والأكل وسائر الملاذ لا التقوي والتوسل بالغذاء إلى الطاعة وعمل الآخرة، ومن جهة أنه لا يستدل بالنعم على خالقها ومن جهة غفلتهم عن مآل حالهم وأن النار مثوى لهم.

لكننا نلاحظ هنا العطف بين يتمتعون ويأكلون وتقديم التمتع ليكون معطوفًا عليه وفي ذلك حصر للتمتع في أمر حسي يلائمه الأكل وكأن متعتهم التي يسعون إليها حسية خالصة لا علاقة للنفس والروح بها إنها متع تتسق مع الأكل بدلالته المرتبطة - في أذهان المتلقين بالاحتياجات الغريزية الأساسية للإنسان.

وهذه الدلالة على ماتنم عنه من سفول في اهتمامات الكافرين لم تُستبقَ كما هي، بل جاءت وحدات الصياغة لتضيف إليها ما يزداد به النفور من الذين كفروا وتزيد رسم الصورة بإيجاد تشابه بين الكفار والأنعام وضوحًا؛ فقد عبر عنها بالمضارع (يتمتعون - يأكلون - تأكل) وكأن هذا الانكباب على المتع الحسية أمسى ديدن الكفار الملازم وسمتهم المميز[1]

(١) محمد والفتح: دكتور/ طارق سعد شلبي، دار الفردوس للطباعة، صـ٩٨-٩٩

وفي هذا المثل تبدو دقة التصوير وصدق المماثلة بين الممثل به والممثل له والتمثيل هنا قائم على التشبيه الصريح البسيط.

الغرض الدلالي الرابع: معجزة كل نبي تناسب عصره

قال تعالى في الآية ٤٩ من سورة آل عمران:

﴿وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللّهِ وَأُبْرِىءُ الأَكْمَهَ والأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾

تتحدث هذه الآية عن بعض القدرات التي وهبها الله ﷻ للمسيح عليه السلام ومنها أنه يخلق من الطين كهيئة الطير، واعتمادًا على هذا التشبيه التمثيلي المستخدمة فيه أداة التشبيه (الكاف) ندرس هذه الآية في معرض الأمثال باعتبار أن الأمثال المصرحة أو القياسية هي النوع الأول من الأمثال في القرآن الكريم، وهي ما يصرح فيها بلفظ المثل أو ما يدل على التشبيه، كما أن لفظ (مثل) قد يأتي في إطار التشبيه المفرد البسيط كقوله تعالى: ﴿**وحور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون**﴾، على الجانب الآخر نجد أن في القرآن آيات هي من الأمثال القياسية وإن لم يرد فيها (مثل) صراحة[1] كقوله تعالى: ﴿**لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لاَ يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ إِلاَّ كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاء لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاء الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلاَلٍ**﴾ (الرعد - ١٤)

فالمحور الارتكازي الذي اتكأ عليه بناء الأمثلة المصرحة أو القياسية هو طبائع النفوس الإنسانية الثابتة والنواميس الكونية والظواهر الطبيعية التي

(١) قراءة تحليلية في الحقول الدلالية لضرب الأمثال القرآنية: دكتور/ محمد إبراهيم الطاووسي صـ٦٩ وما بعدها

تحيط بالناس في مختلف العصور والبيئات؛ فجميع الصور في هذه الأمثال مستمدة من الحياة الإنسانية والحياة الحيوانية، وحياة النبات، وظواهر الكون، ومظاهر الطبيعة ومن المصنوعات أيضًا. وهذا منهج من أبلغ مناهج الأداء اللغوي وأبعدها تأثيرًا وفاعلية؛ فالمراد من التمثيل ألا يحدث إلا إذا كان الممثل ملموسًا لدى المتلقي ومجربًا عنه مسلمًا به.[1]

﴿**أني أخلق لكم من الطين**﴾الخلق: التقدير والترتيب لا الإنشاء والاختراع هذا رأي جل المفسرين - وفسره الجلال هنا بالتصوير لأنه من التقدير - والخلق في أصل اللغة التقدير، أي جعل الشيء بمقدار معين. يقال: خلق الإسكافي النعل ثم فراه أي عين شكله ومقداره ثم قطعه قال زهير بن أبي سلمي [الكامل]:

وأرَاكَ تَفرِي ما خَلقتَ وبَعضُ القَومِ يَخلُقُ ثُمَّ لا يَفرِي[2]

ومنه خلق الكذب والإفك قال تعالي: ﴿وتخلقون إفكًا﴾أي تقدرون وتزورون كلامًا يأفك سامعه أي يصرفه عن الحق.

وللعرب في كلمة خلق وجهات؛ أولها ما أشرت إليه آنفًا وثانيها: الإنشاء على مثال أبدعه ولم يسبق إليه وهو خاص بالله ﷻ وصفة من صفاته تعالي فهو الخالق والخلاق ولا تجوز هذه الصفة بالألف واللام لغير الله ﷻ ألا له الخلق والأمر تبارك الله أحسن الخالقين[3]

﴿**كهيئة الطير**﴾والهيئة: الصورة والكيفية: أي الصورة كصورة الطير من هيأت الشيء أصلحته بمعنى مثل، وهي صفة لموصوف محذوف دل عليه ﴿**أخلق**﴾: أي شيئًا مثل هيئة الطير وقرأ الجمهور: الطير وقد يقع على الواحد، وقرأه أبو جعفر ﴿**الطائر**﴾والطائر واحد الطير كراكب وركب

(١) قراءة تحليلية في الحقول الدلالية لضرب الأمثال القرآنية: دكتور محمد الطاووسي صـ٧٢

(٢) الأغاني: الإمام أبي الفرج الأصفهاني، دار الفكر، جـ٩، صـ ١٤٩

(٣) لسان العرب: لابن منظور، مادة "خلق"ج-١٠ صـ٨٥

وقيل: هو جمع وقيل: اسم جمع وأجاز أبو عبيده وقطرب إطلاق طير على الواحد، ولعله مبني على أن أصله المصدر كما وجهه ابن سيده، ولفظ الطير مؤنث بمعنى جماعة فيجعل قطعة من الطين مثل هيئة الطير في شكلها ومقادير أعضائها ﴿**فأنفخ فيه فيكون طيرًا**﴾ وهي المرحلة التالية بعد تقدير هيئة الطير، والضمير المجرور ب-﴿**في**﴾ هنا عائد إلى ذلك الموصوف لهيئة الطير ﴿**فيكون طيرًا**﴾، فنحن أمام بنية تشبيهية؛ **مشبه**: بعض الطين، و**مشبه به**: هيئة الطير، و**أداة التشبيه**: الكاف فهو تشبيه مرسل مجمل: ذكرت الأداة ولم يذكر وجه الشبه تدل على أن سيدنا عيسى كان عليه فعل التقدير والنفخ بأن يجعل قطعة من الطين مثل هيئة الطير في شكلها ومقادير أعضائها فتنفخ فيها بعد ذلك فتكون طيرًا بإذن الله وبمشيئته أو بتسهيله وتكوينه؛ إذ يجعل جلت قدرته نفسك سببًا لحلول الحياة في تلك الصورة من الطين، والله هو الذي يكون الطير ويجعله يطير[1].

وتمضي الآية بعد ذلك في ذكر باقي النعم التي أولاها الله تعالى لعبده عيسى بن مريم ﴿**وأبرئ الأكمه**﴾ قيل الأعشى وقيل الذي يولد أعمى وهو أشبه لأنه أبلغ في المعجزة ﴿**والأبرص**﴾ معروف ﴿**وأحيي الموتى بإذن الله**﴾: قال كثير من العلماء إن الله بعث كل نبي من الأنبياء بما يناسب أهل زمانه؛ فكان الغالب على زمان موسى عليه السلام السحر وتعظيم السحرة فبعثه الله بمعجزة تناسب هذا الزمان، أما عيسي عليه السلام فبعث في زمن الأطباء وأصحاب علم الطبيعة فجاءهم من الآيات بما لا سبيل لأحد إليه إلا أن يكون مؤيدًا من الذي شرع الشريعة فمن أين للطبيب قدرة على إحياء الجماد أو على مداواة الأكمه والأبرص وبعث من هو في قبره رهين إلى يوم التناد.

(١) تفسير المنار: الإمام/ محمد عبده، ج-٧، صـ٢٠٥

وقريب من هذه الآية أو لنقل إنها مرتبطة بها الآية ١١٠ من سورة المائدة ﴿... **وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذني فتنفتح فيها فتكون طيرًا بإذني**.... الآية﴾ بيد أن الاختلاف هنا أن آية آل عمران جاءت على لسان عيسى، والآية هنا جاءت خطاب من الله ﷻ لعيسى بمعنى: اذكر نعمتي عليك إذ تجعل قطعة من الطين مثل هيئة الطير في شكلها ومقادير أعضائها فتنفخ فيها فتكون طيرًا بإذني، وثمة اختلاف آخر واقع في الضمير ففي الآية من سورة آل عمران ﴿**فأنفخ فيه**﴾ أما هنا الآية من سورة المائدة ﴿**فتنفخ فيها**﴾. وكما جاء في تفسير التحرير والتنوير في هذا الشأن أنه عن مكي بن أبي طالب قال: إن الضمير في سورة آل عمران عاد إلى الطير والضمير في هذه السورة عاد إلى الهيئة، واختار ابن عطية أن يكون الضمير هنا عائدًا إلى ما تقتضيه الآية ضرورة، أي بدلالة الاقتضاء، وذلك أن قوله ﴿**وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير**﴾ يقتضي صورًا أو أجسامًا أو أشكالاً. وجعله في "الكشاف" عائدًا إلى الكاف باعتبار كونه صفة للفظ هيئة المحذوف الدال عليه لفظ ﴿**هيئة**﴾ المدخول للكاف، وكل ذلك ناظرًا إلى الهيئة لا تصلح لأن تكون متعلق ﴿**تنفخ**﴾؛ إذ الهيئة معنى لا ينفخ فيها ولا تكون طائرًا، وقرأ نافع وحده فتكون طائرًا بالإفراد كما قرأ في سورة آل عمران، وتوجيهها هنا أن الضمير جرى على التأنيث فتعين أن يكون المراد، ﴿**وإذ تخلق**﴾ أي تقدر هيئة كهيئة الطير فتكون الهيئة طائرًا. أي كل هيئة تقدرها تكون واحدًا من الطير. وقرأ الباقون ﴿**طيرًا**﴾ بصيغة اسم الجمع باعتبار ما يقدروه من هيئات كهيئة الطير [1].

فكان دور العنصر الحيواني ﴿**الطير**﴾ وسيلة لإثبات معجزة نبي الله عيسى عليه السلام التي جاءت لتناسب عصره.

(١) تفسير التحرير والتنوير: للطاهر بن عاشور، ج-٣، صـ١٠٢

الغرض الدلالي الخامس: العمل الضائع والاعتماد الخائب

حذر القرآن الكريم من اتخاذ أولياء من دون الله مبينًا ما يصيب هؤلاء الكفار من خيبة أمل ومذلة في الدنيا والآخرة، وصور من يتخذ من دون الله أولياء كمثل من يحتمي ببيت العنكبوت والذي هو أوهى وأضعف بيوت الحيوان؛ قال تعالى: ﴿**مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاء كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ**﴾(العنكبوت ـ ٤١)

فهذا مثل غرضه تنفير أهل البصر من أن يتخذوا من دون الله أولياء وجاء في صورة تمثيل مركب اعتمد على صورة تمثيلية مختلطة امتزجت فيها الأشياء المدركة بالحس الظاهر - كبيت العنكبوت وضعفه إذا ما قيس بالبيوت الأخرى - مع الأشياء المدركة بالحس الفكري كاتخاذ آلهة من دون الله، والصورة التمثيلية هنا منتزعة من الواقع؛ وهو بيت العنكبوت المعلوم ضعفه لكل ذي عينين. فلا يصعب على متدبر هذا المثل أن يلاحظ أن المثل كأنما يتوجه لمن يتخذ وليًا من دون الله قائلاً له: إن اعتمادك على أوليائك اعتمادٌ ضائع لا ينفعك شيئًا؛ فاعتمادك عليها شبيه باعتماد العناكب على بيوتها التي تتخذها مما تغزل من خيوطها التي تفرزها من غدد في صدرها [1] إذن نجد أن ضعيفًا يلجأ إلى ضعيف، فلا حماية ولا وقاية؛ فالبيت ينبغي أن يكون له أمور: حائط حائل، وسقف مظل، وباب يغلق وأمور ينتفع بها... فإن لم يحصل شيء من هذا فهو كالبيداء ليس ببيت، وبيت العنكبوت لا يجنها ولا يكنها، وكذلك المعبود ينبغي أن يكون فيه الخلق والرزق وجر المنافع وبه دفع المضار؛ فإن لم تجتمع هذه الأمور فلا أقل من دفع ضرر أو جر نفع، فإن لم يكن كذلك فهو والعدم سواء، فإذن كما لم يحصل للعنكبوت باتخاذ ذلك البيت شيئًا نافعًا كذلك الكافر لم يحصل

(١) أمثال القرآن: عبد الرحمن حسن حبنكة، صـ٨١

لـه باتخـاذ الأوثـان أوليـاء مـن معـاني الأوليـاء شيء[١] ، وجـاءت الآيـة متسـقة تمامًـا مـع مـا قبلهـا؛ فلـما بينـت الآيـات قبلهـا الأشـباه والأمثـال مـن الأمـم التـي اتخـذت الأصنـام مـن دون الله فـما أغنـت عنهـم أصنامهـم لمـا جاءهـم عـذاب الله، أعقـب ذلـك بـضرب المثـل لحـال جميـع أولئـك وحـال مـن ماثلهـم مـن مشركـي قريـش في اتخاذهـم مـا يحسـبونه دافعًـا عنهـم وهـو أضعـف مـن أن يدفـع عـن نفسـه، بحـال العنكبـوت تتخـذ لنفسـها بيتًـا تحسـب أنهـا تعتصـم بـه مـن المعتـدي عليهـا؛ فـإذا هـو لا يصمـد ولا يثبـت لأضعـف تحريـك فيسـقط ويتمـزق؛ وجملـة: ﴿**اتخـذت بيتًا**﴾حـال مـن العنكبـوت، وهـي قيـد في التشـبيه وهـذه الهيئـة المشـبه بهـا مـع الهيئـة المشـبهة قابلـة لتفريـق التشـبيه عـلى أجزائهـا؛ فالمشركـون أشـبهوا العنكبـوت في الغـرور بـما أعـدوه، وأولياؤهـم أشـبهوا بيـت العنكبـوت في عـدم الغنـاء عمـن اتخذوهـا وقـت الحاجـة إليهـا وتـزول بأقـل تحريـك وأقـصى مـا ينتفعـون بـه منهـا نفـع ضعيـف وهـو السـكنى فيهـا وتوهـم أن تدفـع عنهـم كـما ينتفـع المشركـون بأوهامهـم في أصنامهـم [٢] وهـو تمثيـل بديـع مـن مبتكـرات القـرآن.

ثـم عـرض عـلى العقـول صحـة المثـل المـضروب في قولـه تعـالى ﴿**وإن أوهـن البيـوت لبيـت العنكبوت**﴾فهـي جملـة معترضـة مبينـة وجـه الشـبه، وهـذه الجملـة تجـري مجـرى المثـل لقلـة جـدوى شيء مـا فاقتـضي ذلـك أن الأديـان التـي يعبـد أهلهـا غـير الله هـي أحقـر الديانـات، وأبعدهـا عـن الخـير والرشـد.

فكـما أن بيـت العنكبـوت لا يصلـح للبقـاء ولا للاسـتدفاء ولا للاسـتظلال ولا للاسـتكنان، والنسـيج في نفسـه إن فـرض لـه فائـدة كـما أن الصنـم في نفسـه يمكـن أن ينتفـع بـه في أي شيء آخـر. لكـن اتخـاذ النسـيج بيتًـا لا شـك أنـه غـير مفيـد، بـل مـضر كـما مـر؛ فكذلـك عبـادة الصنـم ثـم قـال: ﴿**لـو كانـوا يعلمون**﴾فحـذف

(١) التفسـير الكبـير للـرازي: أبـو عبـد الله محمـد بـن عمـر بـن الحسـن بـن الحسـين التيمـي الـرازي الملقـب بـالفخر الـرازي، (٥٤٤-٦٠٦ هـ) دار الغـد العـربي، ط١، ١٩٩١جـ ٢٤، صـ ٣٩٤.

(٢) تفسير التحرير والتنوير: للطاهر بن عاشور، ج-٢٠، صـ٢٥٠٣

الجواب، وتقدير الكلام: لو كانوا يعلمون أن هذا مثلهم وأمر دينهم لتابوا وندموا، وقد صح أن أوهن البيوت - وإن استقر - بيت العنكبوت فقد تبين أن دينهم أوهن الأديان [١] .

والعنكبوت صنف من الحشرات ذات بطون وأرجل وهي ثلاثة أصناف؛ منها صنف يسمى ليث العنكبوت، وهو الذي يفترس الذباب وكلها تتخذ لأنفسها نسيجًا تنسجه من لعابها يكون خيوطًا مشدودة بين طرفين من الشجر أو الجدران، وتتخذ في وسط تلك الخيوط جانبًا أغلظ وأكثر اتصالاً تحتجب فيه وتفرخ فيه وسمي بيتٌ لشبهه بالخيمة في أنه منسوج ومشدود من أطرافه [٢] ، واختيار بيت العنكبوت ليكون طرفًا في هذا التشبيه لأن ضعفه ظاهر بيّن فضعف بيت العنكبوت يكون من الناحيتين المادية والمعنوية.

١ - فمن الناحية المادية البحتة فإن بيت العنكبوت أضعف بيت على الإطلاق لأنه مكون من مجموعة خيوط حريرية غاية في الدقة تتشابك مع بعضها بعضًا تاركة مسافات بينية كبيرة في أغلب الأحيان، لذلك فهي لا تقي حرارة شمس ولا زمهرير برد، ولا تحدث ظلاً كافيًا، ولا تقي من مطر هاطل، ولا من ريح عاصفة، ولا من أخطار المهاجمين برغم الإعجاز في بنائها؛ فخيوط بيت العنكبوت حريرية دقيقة جدًا وبرغم دقتها الشديدة فهي أقوى خمس مرات من نظيرها من الصلب، وتتميز بمقاومة للشد أكبر من مثيلتها في الصلب؛ فحرير العنكبوت يعد واحدًا من أقوى المواد الموجودة على سطح الأرض لأنه يتحمل شدًا يصل ٤٢ ألف كيلو جرام على السنتيمتر المربع مما يكسبه قدرة هائلة للمط (**Stretching**) وإعطاء قدرة على الإيقاع بالفريسة من الحشرات دون أن يتمزق لذلك قال ربنا ﷻ ﴿**أوهن البيوت**﴾ ولم يقل أوهن الخيوط، وبقي بيت العنكبوت أوهن البيوت وأضعفها على الإطلاق على الرغم من شدة وقوة خيوطه.

(١) غرائب القرآن: للنيسابوري، جـ ٢٠، صـ ٩٤

(٢) التحرير والتنوير: للطاهر بن عاشور، ج-٢٠، صـ٢٥٣

٢- أما من الناحية المعنوية فيعد بيت العنكبوت الأوهن على الإطلاق لأنه بيت محروم من معاني المودة والرحمة التي يقوم على أساسها كل بيت سعيد، وذلك لأن الأنثى في أنواع العنكبوت تقضي على ذكرها بمجرد إتمام عملية الإخصاب، وذلك بقتله وافتراس جسده لأنها أكبر حجمًا وأكثر شراسة منه، وفي بعض الحالات تلتهم الأنثى صغارها دون أدنى رحمة، وفي بعض الأنواع تموت الأنثى بعد إتمام إخصاب بيضها وعندما يفقس البيض تخرج صغار العناكب فتجد نفسها في مكان شديد الازدحام بالأفراد داخل كيس البيض، فيبدأ الإخوة الأشقاء في الاقتتال من أجل الطعام أو من أجل المكان أو من أجلهما معًا؛ فيقتل الأخ أخاه وأخته حتى تنتهي المعركة ببقاء عدد قليل من العنيكبات التي تنسلخ من جلدها ويكرر من ينجو منها نفس المأساة التي تجعل من بيت العنكبوت أكثر البيوت وحشية وشراسة وانعدامًا لأواصر القربى، من هنا كان ضرب المثل ببيت العنكبوت مثلاً في الوهن والضعف مناسبًا تمامًا لأنه يشبه به حال من يعتمدون على غير الله [1]

الغرض الدلالي السادس: حال الناس يوم القيامة

ضرب الله أمثله تقريبية لما يجري من أحداث في الكون عند قيام الساعة وتغير نظام الكون القائم، وبعث الناس إلى الحياة الآخرة، فضرب مثلاً لصورة الناس وحشرهم للحساب والجزاء تارة بالجراد المنتشر، وذلك في قوله تعالى: ﴿**خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ**﴾(القمر ـ ٧)

وتارة أخرى بالفراش المبثوث، وذلك في قوله تعالى: ﴿**يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ**﴾(القارعة ـ ٤)

أما في المثال الأول: فقد سبق هذه الآية قوله تعالى ﴿**فتول عنهم يوم يدع إلى شيء نكر**﴾وفي تفسير هذه الآية يقول ابن كثير قال تعالى: فتول

(١) من الإعجاز العلمي في الحيوان: دكتور / زغلول النجار، صـ١٤٠ وما بعدها

يا محمد عن هؤلاء الذين إذا رأوا آية يعرضوا ويقولوا هذا سحر مستمر وأعرض عنهم وانتظرهم ﴿**يوم يدع الداع إلى شيء نكر**﴾[1] ويرى صاحب تفسير التحرير والتنوير أن في قوله تعالي: ﴿**يوم يدعو الداعي**﴾ جمع كثيرًا من الأهوال آخذ بعضها بحجز بعض بحسن اتصال ينقل كل منها ذهن السامع إلى الذي بعده دون أن يشعر بأنه يعدد لها أشياء:

أولها: دعاء الداعي فإنه مؤذن بأنهم محضرون إلى الحساب لأن مفعول ﴿**يدعو**﴾ محذوف بتقدير: يدعوهم الداعي لدلالة الضمير عنهم على تقدير المحذوف.

ثانيهما: أنه يدعو إلى شيء عظيم لأن ما في لفظ ﴿**شيء**﴾ من الإبهام يشعر بأنه مهول، وفي تنكيره من التعظيم ما يحسم ذلك الهول.

ثالثها: وصف شيء بأنه نكر أي موصوف بأنه تنكره النفوس وتكرهه والنُكُر بضمتين قليل في الصفات، ومنه قولهم روض أُنُف، أي جديدة لم ترعها الماشية.

رابعًا: خشعًا أبصارهم أي ذليلة ينظرون من طرف خفي لا تثبت أحداقهم في وجوه الناس، وهي نظرة الخائف المفتضح، وهو كناية لأن ذلة الذليل، وعزة العزيز تظهران في عيونهما.[2]

إذن فالصورة هنا جاءت موضحة للحالة النفسية لهم وقد دعوا للفصل، ثم تأتي بعد ذلك وصف حالهم وسرعة انتشارهم فيتشبهون بالجراد المنتشر في الاكتظاظ واستتار بعضهم ببعض من شدة الخوف وزيادة على ما يفيده التشبيه من الكثرة والتحرك والتدافع والتصادم بعضهم ببعض. وهذا تشبيه تمثيلي يشبه هيئة خروج الناس من القبور بهيئة خروج الجراد متعاظلاً يسير غير ساكن.

(١) تفسير ابن كثير: ج-٧، صـ٧٤٦

(٢) تفسير التحرير والتنوير: للطاهر بن عاشور، ج-٢٧، صـ١٧٨

والجراد: اسم جمع جرادة وهي حشرة ذات أجنحة أربعة مطوية على جنبها وأرجل أربعة، أصفر اللون غالبًا؛ ولكن لماذا اختير الجراد من بين الكائنات ليشبه به خروج الناس من قبورهم يوم البعث؟.

إن دورة حياة الجراد تبدأ بوضع البيض الملقح في أماكن محددة وتقوم الأم برعايته حتى يفقس في شهر مايو من كل عام فتخرج منه الحوريات التي تقوم بعمليه الانسلاخ من جلدها عدة مرات حتى تصل إلى حجم الحشرة البالغة التي تحيا في بادئ الأمر حياة فردية ثم تبدأ بتكوين جماعة تنتهي برحلة الهجرة الجماعية التي تقطع فيها أسراب الجراد مسافات شاسعة، ويصل عدد الجراد المهاجر في السرب الواحد إلى عشرات البلايين، ومن هنا كان تشبيه خروج الخلق الذين عمروا الأرض من أول وجودهم عليها إلى آخر لحظة من هذا الوجود، والذين يصل عددهم إلى عشرات بل مئات البلايين بالجراد المنتشر، وهو تشبيه في غاية الدقة العلمية؛ لأن سرب الجراد المهاجر يغطي مساحات من الأرض تقدر بأكثر من ألف كيلو متر مربع ويتراص الجراد المهاجر على ارتفاعات قريبة من سطح الأرض بكثافات تتراوح بين المليون وعشرات الملايين جرادة في الكيلو متر المربع الواحد، وهكذا سوف يتزاحم الناس وهم يساقون إلى أرض المحشر. هذه واحدة، كما أن الجراد يطير عاريًا تمامًا إلا من رحمة الله - تعالى - الذي زودوه بغطاء قرني رقيق والناس يحشرون حفاة عراة غرلاً كما قال خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ [1] وهذا مثل غرضه إثارة محور الخوف والحذر؛ فهو مشهد مرعب للذين لم يؤمنوا في حياتهم الدنيوية يملأ قلوبهم بالفزع والهلع والخوف، ويجبر أبصارهم على الخشوع في ذل وهوان، ويسرع خطاهم إلى الداعي الذي يدعوهم إلى أمور لا يعرفونها.

كذلك تحدثت الآية الرابعة من سورة القارعة عن حال الناس يوم القيامة حيث قال تعالى: ﴿**يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ**﴾. فهذه السورة

(١) من آيات الإعجاز العلمى في الحيوان: دكتور/ زغلول النجار، صـ١٩٥-١٩٦

سميت باسم القارعة - وهو أحد أسماء القيامة - لأنها تتحدث عن عدد من مشاهد يوم القيامة، وسميت القيامة بالقارعة لأنها تقرع القلوب بأهوالها فشبهت الآية الناس لحظة خروجهم للحساب كأنهم الفراش المبثوث، وهو كذلك تشبيه هيئة بهيئة، هيئة خروج الناس من قبورهم للحساب بهيئة انطلاق الفراش المبثوث، وهو هنا كالآية السابقة تمثيل مدرك ذهني بمدرك حسي ظاهر والصورة منتزعة من الواقع وهو صورة الجراد أو الفراش. بيد أن هناك اختلافًا فلماذا شبه خروج الناس في الآية السابقة بالجراد وشبه خروجهم هنا بالفراش؟ أما الأولى فتحدثنا عنها فلماذا اختير الفراش تحديدًا ليشبه خروج الناس في هذه الآية؟ والإجابة قائمة على محورين: الأول: أن من خصائص المثل القرآني التنوع.

الثاني: أن كل حيوان ذكر في موضع كان هو الأنسب لموضعه؛ فالفراش من الحشرات الحرشفية الأجنحة، وتتميز بأربعة أجنحة مغطاة بحراشيف مفلطحة تلتصق بالأصابع كالبودرة إذا لمسها الإنسان أو أمسك بها مما يمثل صورة الضعف المدرك في الخلق، وذكر الفراش عادة ما يكون أصغر حجمًا من الأنثى، وهو دائمًا مجنح بينما بعض إناثه غير مجنحة أو تحمل أجنحة ضامرة لا تعينها على الطيران؛ لذا تعيش في علب تصنعها يرقاتها تشبه القبور، وتبدأ دورة حياة الفراش بالبيض المخصب ويفقس بعد حوالي خمسة أيام وتخرج منه يرقة على هيئة الدود الصغير جدًا ثم تنمو بعد ذلك ويكبر حجمها بسرعة مما يضطرها إلى الانسلاخ عن جلدها لعدة مرات فتشبه في عريها خروج الموتى من الأجداث (حفاة عراة غرلا) كما وصفهم النبي ﷺ ثم تتشرنق اليرقات فيما يشبه الكفن أو القبر استعدادًا للمرور بمرحلة العذراء (الحورية) أو الخادرة وفي هذه المرحلة يعاد خلق الحشرة بأكملها وكأنها عمليه بعث لها، وبعد تمام تخلق العذراء تستعد للخروج من خدرها (شرنقتها) تمامًا كما يستعد الميت بالخروج من قبره لحظة بعثه فيتحول جلد الخادرة إلى حالة نصف شفافة ثم

ينشق كما تنشق القبور عن أصحابها ثم تخرج بعد أسبوعين أو ثلاثة أسابيع على هيئة الحشرة الكاملة، وهي تختلف تمامًا عن اليرقة التي جاءت منها، وكذلك يبعث الناس في أواسط أعمارهم.

وتخرج عذارى الفراش بالملايين في كل لحظة كما سيخرج البشر بمئات البلايين لحظة البعث، تخرج عذارى الفراش من شرنقتها ضعيفة هزيلة زاحفة ببطء في اضطراب وحيرة كما سيخرج الناس من قبورهم في ذهول واستغراب واضطراب وحيرة، والتشبيه القرآني للناس في لحظة البعث بالفراش المبثوث تشبيه معجز لأن دورة حياة الفراش لم تعرف إلا في القرنين الماضيين[1] ولعل حكمة اختيار الفراش تحديدًا في هذا السياق باتت واضحة جلية وأعلم بمراده رب البرية.

الغرض الدلالي السابع: الذم

استخدم النص القرآني المثل بأغراض عدة منها التعظيم أو التحقير، المدح أو الذم؛ فمن الأمثلة التي كان غرضها التعظيم والمدح ضرب المثل للكلمة الطيبة التي أصلها ثابت وفرعها في السماء. أما من الأمثلة التي كان غرضها الذم فهو ذلك المثل الوارد في سورة الجمعة وهو قول الله تعالى:

﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (الجمعة - ٥)

فهو مثل ضرب للذين حملوا التوراة من بني إسرائيل دون فهم ويحسبون أن ادخار أسفار التوراة، وانتقالها من بيت إلى بيت ومن مكان إلى مكان كاف، وهو الغرض الذي نزلت التوراة من أجله! وهم مع ذلك يعرفون نعت نبي آخر الزمان، ومع ذلك فهم يطعنون في نبوة النبي محمد ﷺ، فجاء هذا المثل واصفًا لحالهم وضلالهم.

(١) الإعجاز العلمي للحيوان: دكتور/ زغلول النجار، صـ٢٠٨ وما بعدها

ذلك أن علماء اليهود أدخلوا في التوراة ما صيروه مخلوطًا بأخطاء وضلالات ومتبعًا فيه هوى نفوسهم، وما لا يتجاوز نفعهم الدنيوي.

ولم يتخلقوا بما تحتوي عليه من الهدى والدعاء إلى تزكية النفس فالعيب إذن ليس فيما يحملونه، بل إن العيب فيهم أنفسهم؛ فقد كتموا ما في كتبهم من العهد باتباع النبي الذي يأتيهم لتخليصهم من ربقة الضلال فهذا وجه ارتباط هذه الآية بالآيات التي قبلها وبذا كانت هذه الآية تتمة لما قبلها.

وقال صاحب الكشاف: افتخر اليهود بأنهم أهل كتاب والعرب لا كتاب لهم فأبطل الله ذلك بشبههم بحمار يحمل أسفارًا[1] ومعنى حُمِّلوا: أي عهد بها إليهم فلم يفوا بما كلفوا ويقال: حَمَّلت فلانًا أمرَ كذا فاحتمله.

وقال تعالى: ﴿**إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً**﴾ (الأحزاب - ٧٢)

وتصوير حالهم بحال الحمار الذي يحمل أسفارًا - وهو تمثيل بسيط- اعتمد على تمثيل مدرك بالحس المعنوي، وهو حمل اليهود للتوراة بمدرك بالحس الظاهر، وهو مشهد الحمار الذي يحمل أسفار العلم وليس له نصيب منها إلا مجرد تحمل عناء الحمل الثقيل. والصورة التمثيلية هنا منتزعة من الواقع.

ولربما تراءى للبعض أنه يكفي في التشبيه أن يقال: مثلهم كمثل الحمار الذي لا يعقل. بيد أن د. أحمد بدوي في كتابه "من بلاغة القرآن" يعلق على هذا قائلاً "إن ذلك يدخل في خصائص دقة التشبيه القرآني، فهو يصف ويقيد حتى تصبح الصورة دقيقة واضحة وأخاذة فإن الصورة التي صورها القرآن الكريم تزداد قوة والتصاقًا والتحامًا حين يقرن بين هؤلاء وقد حملوا التوراة ولم ينتفعوا بما فيها، وبين الحمار يحمل أسفار العلم ولا يدري مما ضمته شيئًا

(١) الكشاف: للزمخشري، جـ ٤، صـ ٣٩٤

فتمام الصورتين يأتي من هذا القيد الذي جعل الصلة بينهما قوية"[١]

(ثم): هنا للتراخي الرتبى، فإن عدم وفائهم بما عهد إليهم أعجب من تحملهم إياه، وجملة: ﴿**يحمل أسفارًا**﴾ في موضع الحال من الحمار أو في موضع الصفة لأن تعريف الحمار هنا تعريف جنس فهو معرفة لفظًا، نكرة معنى، فصح في الجملة اعتبار الحالية والوصف.

وليس المقصود حمارًا بعينه، بل هو في حكم النكرة كما في قول شمر الحنفي (الكامل):

ولقد مررتُ على اللئيمِ يَسُبُني فَمضَيتُ ثَمَّ وقلتُ لا يَعنيني [٢]

فذم الكفار هنا واضح بيّن غير خفى.

ولكن لماذا اختير الحمار شبيهًا بحالهم؟

فباقي الدواب كالجمل والحصان والبقرة وغيرها قد تحمل على ظهورها أسفار العلم ولا تفقه منه شيئًا كذلك.

والجواب: إن التمثيل بالحمار أبلغ في الذم لما عرف عنه عند الناس واشتهاره بالبلادة والغباء والجهالة المفرطة.

وهو مضرب المثل في الغباء وسوء الطبع، وهو حيوان لا يؤكل لحمه، ولا يشرب لبنه، ولا ينتفع به إلا في حمل الأمتعة فجاء اختيار الحمار دون غيره متفقًا تمامًا مع سياق الذم الذي تهدف إليه الآيات.

---

(١) من بلاغة القرآن: د. أحمد بدوي نقلًا عن: قراءة تحليلية للحقول الدلالية للأمثال القرآنية دكتور/ محمد إبراهيم الطاووسي، صـ ٢٧٦.

(٢) الأصمعيات: اختيار الأصمعى أبى سعيد عبد الملك بن قريب بن عبد الملك (١٢٢-٢١٦هـ) تحقيق: أحمد محمد شاكر، عبد السلام هارون، دار المعارف، مصر، صـ ١٣٧

الغرض الدلالي الثامن: تأييس للكفار من دخول الجنة

تشتمل الآية ٤٠ من سورة الأعراف على مثل من الأمثال المرسلة أو الموجزة السائرة كما يسميها البعض، وهي جمل أرسلت إرسالاً من غير تصريح بلفظ التشبيه وكثر التمثيل بها لما فيها من العبرة والعظة والإقناع وقد اكتسبت صفة المَثَلية بعد نزول القرآن الكريم وشيوعها في المسلمين ولم تكن أمثالاً في وقت نزولها وهي في جملتها مبادئ خلقية ودينية مركزة منها قوله تعالى ﴿**حتى يلج الجمل في سم الخياط**﴾ والذي نحن بصدد الحديث عنه إذ تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لاَ تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاء وَلاَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ**﴾.

فيعد قوله تعالى: ﴿**حتي يلج الجمل في سم الخياط**﴾ من الأمثال المرسلة أو الموجزة فيضرب هذا المثل في التعجيز واستحالة حدوث الشيء، وقد جاء هنا لتأييس المكذبين بآيات الله من دخول الجنة وقد جاء مصدرًا بأداة التوكيد ﴿**إن**﴾ لدفع توهم أن يكون المراد من الخلود المتقدم ذكره الكناية عن طول مدة البقاء في النار؛ إذ إنه ورد في مواضع كثيرة مرادًا به هذا المعني. وإذا أردنا أن نرد هذا المثل إلى أحد الأغراض الثمانية للمثل في القرآن الكريم والتي صنفها الأستاذ/ عبد الرحمن حسن حبنكة في كتابه (أمثال القرآن) نجد أن هذا المثل يندرج تحت الغرض الرابع، وهو إثارة محور الخوف والحذر لدى المخاطب، فواضح هنا إثارة محور الخوف والحذر لدى المخاطب حتي يبتعد تمامًا عن الكفر، حيث إن الكفر يوجب لصاحبه النار ولن يدخل الكافر الجنة أبدًا والتي عبرت عنها عبارة ﴿**حتى يلج الجمل في سم الخياط**﴾

طرفا التشبيه	الحالة	الحكم
الممثل	الكفار حال دخولهم الجنة	مستحيل
الممثل به	دخول الجمل عظيم الهيئة في سم الخياط متناه الصغر	مستحيل

فهو هنا تمثيل مدرك فكري بمدرك بالحس الظاهر، والصورة التمثيلية هنا منتزعة من الخيال؛ فصورة دخول الجمل في سم الخياط وإن كانت مشتملة على طرفين ماديين؛ الجمل، سم الخياط غير أن حدوث هذا الولوج أمر خيالي؛ فكما أن نظام الخلق قائم على عدم إمكان دخول الجمل بجثته الكبيرة في ثقب الإبرة للتفاوت الكبير بين جسم الجمل وفراغ ثقب الإبرة مع بقاء كل منهما على مستوى أبعاده، كذلك قوانين عدل الله وحكمته تقضي بألا يدخل الذين كذبوا بآيات الله واستكبروا عن الخضوع لها جنته التي أعدها للذين آمنوا ولم يستكبروا عن طاعة الله والخضوع لجلاله، وأبواب السماء: أمور عظيمة أطلق عليها اسم الأبواب لتقريب حقائقها إلى الأذهان فمنها قبول الأعمال، ومسالك وصول الأمور الخيرية المصادرة من أهل الأرض، وطرق قبولها، وقرأ نافع وابن كثير وعاصم وابن عامر وأبو جعفر ويعقوب: لا تفتح بضم التاء الأولى وفتح الفاء والتاء الثانية وهو مبالغة في الفتح ودلالة ذلك التشديد نفي الفتح لهم أو أشير بتلك المبالغة إلى أن النفي فتح مخصوص، وهو الذي يفتح للمؤمنين وهو فتح قوي فتكون تلك الإشارة زيادة في نكايتهم. وقرأ أبو عمرو - بضم التاء الأولى وسكون الفاء وفتح التاء الثانية مخففة، وقرأ حمزة والكسائي وخلف ﴿**لا يفتح**﴾ على اعتبار تذكير الفعل لأجل كون الفاعل جمعًا لمذكر وقوله: لا يدخلون الجنة إخبار عن حالهم في الآخرة وتحقيق خلودهم في النار وفي قوله تعالى ﴿**حتى يلج الجمل في سم الخياط**﴾ إشارة لانتفاء دخولهم الجنة، إذ ارتبط هذا الأمر بغاية مستحيلة، وهي: أن يلج الجمل في

سم الخياط أي لو كانت لانتفاء دخولهم الجنة غاية لكانت غاية ولوج الجمل في سم الخياط وهو أمر لا يكون أبدًا والولوج: الدخول وسئل ابن مسعود عن الجمل فقال: زوج الناقة استجهالاً للسائل وإشارة على أن طلب معنى آخر تكلف.

فالجمل: البعير المعروف للعرب وقد ضرب به المثل لأنه أشهر الأجسام في الضخامة في عرف العرب قال حسان بن ثابت (البسيط):

لا عَيبَ بالقَومِ من طُولٍ ومن عِظَمٍ جُسمُ الجِمالِ وأحلامِ العَصَافيرِ[1]

والسم: بالحركات الثلاثة - وقد قرئ بها - ثقب الإبرة وكل ثقب في البدن لطيف، ومنه السم القاتل الذي ينفذ بلطف في مسام البدن حتى يصل إلى القلب وهو بفتح السين في الآية بلغة قريش، وبضم السين في لغة أهل العالية- وهي ما بين نجد وبين حدود أرض مكة- والخياط ما يخاط به، قال الفراء: خياط ومخيط كإزار ومئزر ولحاف وملحف وقناع ومقنع، فلما كان جسم الجمل مضربًا للمثل في الكبر، وكان سم الإبرة مضربًا للمثل في ضيق المسلك حتى قيل أضيق من خرت الإبرة وقالوا للدليل الحاذق الماهر: خريت لاهتدائه في المضايق المشبهة بأخرات الإبر وقف الله تعالى دخولهم الجنة على حصول هذا الشرط المحال ليلزم يأسهم من دخول الجنة قطعًا. فالموقوف على المحال محال ومثله قول العرب: لا أفعل كذا حتى يشيب الغراب ويبيض القار[2] فالقرآن أحال على ما هو معروف عند الناس من حقيقة الجمل وحقيقة سم الخياط ليعلم أن دخول الجمل في خرت الإبرة محال متعذر ما دام على حاليهما المعروفين. لكن هناك إشكالية مرتبطة بلفظة ﴿**الجمل**﴾ يذكرها لنا صاحب تفسير المنار إذ يوضح أن بعض الناس في الصدر الأول لم يفطنوا هذه

(١) خزانة الآدب ولب لباب لسان العرب: للبغدادى، جـ ٤، صـ ٧٤.

(٢) غرائب القرآن: للنيسابوري، جـ ٨، صـ ١١٣

النكتة لعدم التناسب بين الجمل وسم الخياط فكانوا يسألون عنه فيجابون بما يؤكد المراد فقد سئل الحسن البصري فقال: ابن الناقة الذي يقوم في المربد على أربع قوائم والمربد (كمنبر): محبس الإبل وكذا الغنم ومكان بالبصرة مشهور كانت تحبس به أو سوقًا لها، وكأن هؤلاء السائلين كانوا يرون أن المناسب تفسير ﴿**الجمل**﴾ هنا بالحبل الغليظ وهو القلس الذي يكون في السفن لشبهه بالخيط، وفيه لغات أخرى ضبطها صاحب القاموس بأوزان سكر، وصرد وقفل وعنق وذكر أنه قرئ به [1] كما قرئ بوزن الحبل وبمعناه ؛ لأنه حبل ضخم من ليف أو خوص من آلات السفن. بيد أن الواضح هنا أن المقام مقام تعجيز واستحالة؛ فيكون الأكثر ملائمة لزيادة الاستحالة، والمبالغة فيها هو دخول الجمل عظيم الحجم في سم الخياط متناه الصغر والله أعلم بمراده، والإشارة في قوله: ﴿**وكذلك**﴾ إشارة إلى عدم تفتح أبواب السماء الذي تضمنه قوله ﴿**لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة**﴾ أي ومثل ذلك الانتفاء أي الحرمان نجزي المجرمين لأنهم بإجرامهم الذي هو التكذيب والإعراض جعلوا أنفسهم غير مكترثين بوسائل الخير والنجاة فلم يتوخوها فذلك جزاهم الله عن استكبارهم أن أعرض عنهم وسد عليهم أبواب الخيرات، وجملة ﴿**وكذلك نجزي المجرمين**﴾ تذييل يؤذن بأن الإجرام هو الذي أوقعهم في ذلك الجزاء [2]

***

(١) تفسير المنار: للإمام: محمدعبده، جـ ٨، صـ ٣٧٣

(٢) التحرير والتنوير: للطاهر بن عاشور، جـ ٨، صـ ١٢٧

الفصل الثاني

الحيوان في القصص القرآني

تمهيد

في مفهوم القصص القرآني

تعد القصة من أحب الفنون الأدبية إلى جمهور الناس على مختلف مستوياتهم، فقد كانت كذلك منذ العصور القديمة عند جميع الأمم حين كان الناس يتحلقون حول القاص يحكي لهم أخبار الأمم البائدة وأبطال الحروب والوقائع.

فقد نشأ الإنسان ميالاً بطبيعته إلى حكاية ما يقع له أو لغيره من الناس، وأبسط تعريف للقصة أنها مجموعة حوادث متخيلة في حياة أناس متخيلين، ولكن الخيال فيها مستمد من الحياة الواقعية بأحداثها وأشخاصها، فكأن القصة تفسر تجربة قد تقع في حياة مجموعة من البشر وتصف كل ما تثيره من انفعالات وما تفرضه من سلوك.

"فالقارئ يجد في القصة رموزًا حية لأحداث حياته ومشاعره أو لأحداث من يعرف من الأقارب والأصدقاء والجيران ومشاعرهم. فالقصة تلخص تجربة حياتية"[1].

وقد بدأ القصص عند العرب أخبارًا لها بعض الأبعاد التاريخية فشمل أيام العرب والمغازي والسير، وظهر أنه كان يأخذ في الانفصال عن التاريخ

(١) كتابات وكتاب في النثر العربى الحديث: دكتور/ محمد مصطفي هدارة، الشنهابي للطباعة والنشر الإسكندرية، صـ٣١.

شيئًا فشيئًا حتى أتى عليه زمن تم له فيه الانفصال وأصبح فنًا قائمًا بذاته.

وأغلب الظن أن هذا الفن لم يظهر عند العرب مستقلاً إلا بعد نزول القرآن الذي عني بالقصص عناية تامة، فذكر وقائع الأمم الماضية وتحدث عن الأنبياء وما حدث لهم، مما يدل دلالة واضحة على اهتمامه بالقصص. وقد اهتم المسلمون بتفسير قصص القرآن فنشأ القصص الديني. "وقد بلغ اهتمام الخلفاء في العصر الأموي بالقصص أنهم كانوا ينصبون الرجل للقص، بل إن بعض القضاة كانوا يجمعون إلى وظيفة القضاء وظيفة القاص؛ كسليم بن عمر النجبي الذي ولي قضاء مصر سنة ٤٠ هـ من قبل معاوية، وكان معاوية قد أمر القصاص أن يقصوا بعد الصبح وبعد المغرب وأن يدعوا له ولأهل الشام وكتب بذلك إلى الأمصار"[1].

وتكاد تجمع المصادر على أن أول قاص في الإسلام هو تميم الداري، وقيل إن تميمًا حدَّث عن النبي ﷺ حديث الجساسة وهو حديث صحيح.

وقد حفل كتاب الله بزاد زاخر من القصص والحوادث والبطولات النادرة، قصص تثري الفكر الإنساني وتوقف الإنسان على متعرجات الطرق ليعرف أين يضع قدمه ويتجنب - إن كان عاقلاً - عثرات الطريق.

تعريف القصص القرآني

ليس القصص القرآني قصصًا دينيًا تاريخيًا فحسب، بل هو أيضًا كما عرفه دكتور عبد الجواد المحص: |قصص قد بلغ في مجال التصوير الأدبي قمة الإعجاز وذروة الإبداع، وفاق كل أساليب القصص - قديمها وحديثها - حتى ليستحيل كل الاستحالة أن ترى قصة فنية من وضع البشر تفوقه بيانًا وإبداعًا

(١) التراث القصصي عند العرب: دكتور/ مصطفي عبد الشافي الشورى، الهيئة العامة لقصور الثقافة، ط٢، ١٩٩٩، صـ٢٠

وجمالاً وإعجازًا[١] .

وتتميز القصة عن غيرها من أنماط التعبير بقالبها الفني، حيث تكون النفوس أكثر انجذابًا إليها والأحاسيس أكثر تعلقًا بها. ولعل هذا من أسباب التكرار الذي يلجأ إليه قصص القرآن في مواضع متعددة بالإضافة إلى الأغراض والمقاصد التي تختلف وتتنوع من موضع لآخر

وما يبين لنا معرفة العرب منذ القدم لكلمة "قصة".

أن القرآن الكريم عندما نزل على النبي ﷺ وجاء بأحسن القصص لم يشرح لهم معنى القصة لأنه يخاطبهم بما ألفوه وتداولوه بينهم وعرفوا كذلك أنه يقصد التذكير والعظة.

الغرض من القصص القرآني:

يساق القصص القرآني للعبرة والموعظة، أو للقدرة والتثبيت أو للتعليم والهداية [٢] .

وهناك مقاصد للقصة تتفرع من تلك المقاصد العامة الثلاثة التي ذكرها الأستاذ/ العقاد منها على سبيل المثال: تأكيد شأن رسالة النبي ﷺ، وإثبات الوحي له، وأن الدين الذي دعا إليه الأنبياء كله من عند الله، وأن الأنبياء عليهم السلام تجمعهم تلك الرابطة النفسية العميقة في الدعوة لإله واحد، والتعرض لصنوف شتى من الاضطهاد والتعذيب والتقلد بأحسن صفات الصبر والتصميم والإخلاص والطاعة والوصول إلى نهاية ينتصر فيها المؤمنون ويهلك المكذبون، وفي غضون ذلك كله بيان قدرة الله تعالى على الخوارق وبيان عاقبة الخير والشر، والرشاد والفساد، وتنبيه البشر إلى غواية الشيطان وإضلاله للناس.

(١) أدب القصة في القرآن الكريم: دكتور/ عبد الجواد محمد المحص، الدار المصرية للنشر، الإسكندرية، صـ٥.

(٢) حياة قلم: للعقاد، كتاب الهلال، صـ٢٧٢.

سمات القصص القرآني:

إن القصص القرآني قائم على دعائم أساسية:-

الأولى: الحق لا الباطل.

قال تعالى: ﴿**إِنَّ هَـذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ**﴾. (آل عمران - ٦٢)

وقال تعالى: ﴿**نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ**﴾(الكهف ـ١٣)

وقال تعالى: ﴿**وَكُلاً نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاء الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءكَ فِي هَـذِهِ الْحَقُّ**﴾.(هود - ١٢٠)

الثانية: الحسن في العرض شكلاً وموضوعًا

قال تعالى: ﴿**نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَـذَا الْقُرْآنَ**﴾. (يوسف - ٣)

الثالثة: الواقعية لا الخيالية الرمزية ولا الخداع

فما ورد في أي قصة في كتاب الله من أسماء لأشخاص أو لبلدان أو لأزمنة فإنما هو تعبير عن واقع حدث في القرون الخالية كقصص سيدنا إبراهيم وسيدنا موسى، وسيدنا عيسى، وسيدنا داود وسيدنا سليمان، وفرعون وهامان، وامرأة نوح، وامرأة لوط وامرأة فرعون، ومكة، والمسجد الأقصى والهدهد، والغراب والنملة والفيل... إلخ فكل هذه أسماء واقعية لا خيال فيها ولا رمز.

أما الأسماء المبهمة في القصص فإنها لا تعني الخيالية، وإنما تعني أن الواقعية يمكن أن تتكرر من أشخاص آخرين يقومون بنفس الأدوار كمؤمن آل فرعون وأصحاب الكهف وغيرها.

الرابعة: إبراز الهدف من القصة، وهو العبرة من التاريخ وأحداث السابقين[1] .

(١) من القصص الحق: الشيخ / محمد محمود ندا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٤، المقدمة.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾. (يوسف - ١١١)

ظهور الحيوان في القصص القرآني

اشتمل بعض القصص القرآني على الحيوان، كالحوت في قصة موسى مع العبد الصالح، والغراب في قصة ابني آدم، والنملة التي كلمت سليمان... وغيرها كما أن هناك بعض القصص لم تشتمل على العنصر الحيواني كقصة أيوب عليه السلام.

فنأخذ من هذا أن القصص القرآني ينقسم بهذا الاعتبار إلى ضربين:

١- قصص يكون فيه الحيوان شخصًا من شخوص القصة أو باديًا في أحداثها.

٢- وقصص على العكس من ذلك.

وفي القصص التي ظهر الحيوان فيها كان له دور بارز غالبًا فتراه جنديًا من جنود الله تارة، وتراه معلمًا تارة أخرى يؤدي دوره الذي كلف به على الوجه الأكمل.. يقوم بدور دعوي.. أو ينكر على قوم صنيعهم، وتعددت أدواره ووظائفه في القصص المختلفة، وكان لاختيار الحيوان المعين في هذا الموضع من القصة حكمة بالغة، ودقة متناهية، فلا يمكن لكلب أهل الكهف مثلاً أن يقوم بدور الغراب الذي علم ابن آدم دفن أخيه، ولا يصلح الغراب كذلك أن يقوم بدور الهدهد.. وسنتوقف عند كل قصة ظهر فيها الحيوان متأملين دوره ودلالة وظيفته في هذه القصة مع تحري الدروس المستفادة منها قدر المستطاع مع الحرص على البعد عن الإسرائيليات والموضوعات قدر الإمكان.. والله ولي التوفيق.

دور الحيوان في قصص القرآن

بقرة بني إسرائيل

عرضت سورة البقرة لقصة بقرة بني إسرائيل التي تكشف عن طبيعتهم، "فقد ظهر من قلة التوقير لنبيهم، ومن الإعنات في المسألة والإلحاح فيها إما للتقصي في الامتثال وإما لبعد أفهامهم عن مقصد الشارع ورومهم التوقيف على ما لا قصد إليه"[١] كما أنها تظهر قسوتهم وفسوقهم.

ومن وجوه الاعتبار - كما ذكرها الشيخ/ محمد عبده أن التنطع في الدنيا والإخفاء في السؤال مما يقتضي التشديد في الأحكام فمن شَدَّد شُدِّدَ عليه[٢]، ولذلك نهى الله تعالى هذه الأمة عن كثرة السؤال بقوله: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَسْأَلُواْ عَنْ أَشْيَاء إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْأَلُواْ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللّهُ عَنْهَا وَاللّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ (١٠١) قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُواْ بِهَا كَافِرِينَ (١٠٢)**﴾. (المائدة ١٠١:١٠٢)

وفي الحديث الشريف "ويكره لكم قيل وقال وكثرة السؤال وإضاعة المال"[٣] صدق رسول الله ﷺ

وقد سميت السورة الكريمة بسورة البقرة لأنه اسم لقصة بلغت من العجب مبلغًا بعيدًا. **وجاء في كتاب الحيوان للدميري أن:**

البقير والبقران والباقر: جماعة البقر مع رعاتها والبيقور الجمع[٤].

---

(١) تفسير التحرير والتنوير: للطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر، ط١، ١٩٨٤، جـ١، صـ٥٤٦.

(٢) تفسير المنار: الشيخ / محمد عبده، جـ١، ص٢٨٦.

(٣) صحيح مسلم: كتاب الأقضية، باب: النهي عن كثرة المسائل من غير حاجة، جـ٦، صـ٢٠٨، رقم ١٧١٥.

(٤) حياة الحيوان: لكمال الدين محمد بن موسى الدميري، مطبعة البابي الحلبي بمصر، جـ١، صـ٢٠٨.

القصة في العرض القرآني:

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُواْ بَقَرَةً قَالُواْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٦٧) قَالُواْ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لّنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَّ فَارِضٌ وَلاَ بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُواْ مَا تُؤْمَرونَ (٦٨) قَالُواْ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاء فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ (٦٩) قَالُواْ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ البَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَاء اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ (٧٠) قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَّ ذَلُولٌ تُثِيرُ الأَرْضَ وَلاَ تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لاَّ شِيَةَ فِيهَا قَالُواْ الآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ (٧١)وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ (٧٢) فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٧٣)ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاء وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللّهِ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٧٤)﴾. (البقرة ٦٧: ٧٤)

وقيل إن قصة ذبح البقرة المذكورة هنا مقدم في التلاوة ومؤخر في المعنى على قوله تعالى: ﴿**وإذ قتلتم نفسًا فادارأتم فيها**﴾[1].

وقد اختلف نسق هذه القصة عن الآيات السابقة، إذ كانت الآيات السابقة تذكر النعمة فالمخالفة فالعقوبة فالتوبة فالرحمة، أما في هذه القصة فذكرت المخالفة في قوله تعالى: ﴿**وإذ قتلتم نفسًا فادارأتم فيها**﴾وقدم على ذلك وسيلة الخلاص وهي ذبح البقرة بما يعجب السامع ويشوقه إلى معرفة ما وراءها حيث لم يسبق في الكلام عهد لسبب أمر موسى لقومه أن يذبحوا بقرة. فالمفاجأة في حكاية ما كان من ذلك الأمر والجدال الذي وقع فيه يثير الشوق في

(١) فتح البيان في مقاصد القرآن: أبو الطيب محمدين بن حسن القنوجي البخاري (١٢٤٨ - ١٣٠٧هـ)، إدارة إحياء التراث الإسلامي، قطر، ط١، جـ١، صـ١٩٣.

الأنفس إلى معرفة السبب فتتوجه الفكرة بأجمعها إلى تلقيه، إذ الحكمة في أمر الله أمة من الأمم بذبح بقرة خفية وجديرة بأن يعجب منها السامع ويحرص على طلبها، لاسيما إذا لم يعتد فهم الأساليب الأخاذة بالنفوس الهازة للقلوب [١].

تحليل القصة:

الله الذي أمرهم بذبح البقرة

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُواْ بَقَرَةً﴾

قال أبو جعفر: وهذه الآية مما وبخ الله بها المخاطبين من بني إسرائيل في نقض أوائلهم الميثاق الذي أخذه الله عليهم بالطاعة لأنبيائه فقال لهم: واذكروا أيضًا من نكثكم ميثاقي إذ قال موسى لقومه وهم بنو إسرائيل - إذ اختلفوا في القتيل الذي قتل فيهم إليه **﴿إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة﴾**[٢].

فكأن موسى عليه السلام يعلم تباطؤ وتلكؤ قومه، ولهذا أخبرهم أن هذا أمر الله لهم وذلك ليوجد عندهم الاستعداد الإيماني لتنفيذ أمر الله. وأي مؤمن صادق يبلغ بأمر واجب عليه من الله، فإنه يسارع إلى تنفيذ هذا الأمر أداءً للواجب إلا عند بني إسرائيل.

ولا يفوتنا ملاحظة لفظة **﴿يأمركم﴾**: ومعنى الأمر: طلب شيء صادر ممن هو أعلى لذا نسميه أمرًا[٣] وهو طلب لحقيقة يستطيعها قوم موسى، تنكير كلمة **﴿بقرة﴾**: تنكير مقصود، فالتنكير يفيد العموم، وتشير إلى أن الأمر واضح مفهوم وُيَنفَّذُ الأمرُ بذبح أية بقرة فلو أن القوم استعرضوا بقرة من البقر وذبحوها لكانت إياها، ولكنهم شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم.

(١) تفسير المنار: الشيخ محمد عبده جـ١، صـ٢٨٧.

(٢) تفسير الطبري (جامع البيان عن تفسير آي القرآن): محمد بن جرير الطبري (٢٢٤ - ٣١٠هـ) مؤسسة الرسالة، جـ١، صـ١٨٢.

(٣) قصص الحيوان في القرآن: الشيخ / محمد متولي الشعراوي، أخبار اليوم، صـ١٩١.

﴿قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي﴾:

وتتضمن هذه العبارة وقاحة أخرى من وقاحات اليهود وسوء أدبهم في مخاطبة نبيهم وفي حديثهم عن رب العالمين.. إذ أضافوا الرب إليه هو (ربك) ولم يضيفوه إليهم، وقد تكرر هذا التعبير ثلاث مرات في هذه السورة بما يدل على إصرارهم على سوء الأدب مع الله ﷻ.

قال أبو جعفر: إنهم سألوا موسى أن يسأل ربه لهم ما كان الله قد كفاهم بقوله لهم ﴿**اذبحوا بقرة**﴾فلم يحصر الله لهم ذلك على صنف دون صنف فقالوا بجفاء أخلاقهم، وغلظ طبائعهم، وسوء أفهامهم وتكلف ما قد وضع الله عنهم مئونته تعنتًا منهم لرسول الله ﷺ، فعاقبهم الله ﷻ بأن حصر ذبح ما كان أمرهم بذبحه عن البقر على نوع منها دون نوع[1].

﴿**قال إنه يقول إنها بقرة لا فارض ولا بكر عوان بين ذلك**﴾

وبما أن موسى عليه السلام يعلم تلكؤ وتباطؤ القوم مهد للجواب بإخبارهم أن هذا القول والجواب من الله والهاء في ﴿**إنه**﴾ضمير يعود على الله يقول إنها بقرة لا فارض ولا بكر.

لا فارض: لا مسنة هرمة يقال منه فرضت البقرة تفرض فروضًا يعني بذلك أسنَّت.

لا بكر: قال أبو جعفر: البكر من إناث البهائم ما لم يفتحلها الفحل.. فهي بمعنى الصغيرة التي لم تلد.

﴿**عوان بين ذلك**﴾من باب عان يعون عونًا: والعَوان هي المتوسطة في العمر بين الصغير والكبير.

(١) تفسير الطبري: جـ٢، صـ١٨٩.

قال أبو جعفر: ﴿**العوان**﴾النصف التي قد ولدت بطنًا بعد بطن وليست بنعت للبكر يقال منه قد عونت إذا صارت كذلك.

والمراد: أنها بقرة متوسطة العمر لا هي صغيرة ولا كبيرة

سؤالهم عن لون البقرة:

لا يعرف بنو إسرائيل منطق المسارعة بالتنفيذ، لذا أوهموا موسى عليه السلام أنهم وقعوا في إبهام جديد متعلق بلون البقرة المطلوبة.

﴿**قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها**﴾

﴿**قال إنه يقول إنها بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين**﴾

فأخبرهم أن هذا البيان من الله والمعنى: إن الله يقول لكم إن البقرة المطلوبة صفراء فاقع لونها.

وفي فاقع لونها ثلاثة تأويلات:

أحدها: "شديدة الصفرة"، وهذا قول ابن عباس والحسن.

الثاني: "خالص الصفرة"، وهذا قول قطرب.

الثالث: "الصافي"، وهذا قول أبي العالية وقتادة [١] .

ويرصد دكتور الخالدي بعض اللفتات في قوله تعالى: ﴿**تسر الناظرين**﴾وهي:

١- إن البقرة الصفراء ذات الصفرة الفاقعة عزيزة عند أهلها لأنها تسر الناظرين ولهذا لن يبيعوها إلا بثمن مرتفع وهذا من التضييق عليهم.

٢- إن اللون الأصفر الفاقع لون جميل ومحبب للنفوس يسر الناظرين [٢]

(١) النكت والعيون: أبو الحسن بن محمد بن حبيب البصري البغدادي الشهير بالماوردي، ط١، ١٩٩٢ صـ٥٩

(٢) السرور لذة في القلب عند حصول نفع أو توقعه وعن علي رضي الله عنه: من لبس نعلًا صفراء قل همه لقوله تعالى: "تسر الناظرين".

٣- إن الإنسان السوي الفطرة مفطور على محبة الألوان الجميلة، وإن محبة الجمال لا تتعارض مع الدين، ولا تنافي الالتزام به، بل إن الدين يحض عليه ويشير إليه ويضع عليه القيود والضوابط حتى لا يتحول إلى شهوات إباحية ونزوات حيوانية.

٤- الأولى للمسلم عندما يختار شيئًا أو يشتري سلعة أن يختارها جميلة تسر الناظرين سواء كانت حيوانًا أو فاكهة أو طعامًا أو لباسًا أو أثاثًا. فالحاسة الفنية هي أساس الاختيار.

٥- إنها دعوة إلى تجميل حياة المسلم، وإدخال السرور عليه بما نظر إليه لذلك يعيش حياته ويمارس وظيفته ويقوم بعمله بسرور نفسي وذوق فني وحس جمالي [١].

سؤالهم عن عمل البقرة:

وكأنهم قالوا لموسى إن هذه التفصيلات عن عمر البقرة ولونها ما زادتنا إلا إبهامًا فتشابه البقر علينا ونقلتنا من حيرة إلى حيرة.

﴿**قَالُواْ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَاء اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ**﴾.

يقول الطبري: لولا أن القوم استثنوا فقالوا ﴿**وإنا إن شاء الله لمهتدون لما هدوا إليها أبدًا**﴾[٢].

نعم.. قد تشابه البقر عليهم ولكن ما سبب هذا؟ إنهم أنفسهم هم سبب تشابه البقر عليهم فلولا أسئلتهم المتكلفة لما وقعوا في هذا الإشكال ويحمل قولهم هذا لموسى معنى الاعتذار له، وكأنهم شعروا بتأخرهم وتلكؤهم ولجاجتهم وأحسوا بتكلفهم وتنطعهم فبرروا ذلك بأن البقر تشابه واختلط

(١) مع قصص السابقين: دكتور/ صلاح الخالدي دار القلم، دمشق، ط٤، ٢٠٠٤، صـ٦٥.
(٢) تفسير الطبري: جـ١، صـ١٨٥.

عليهم ووعدوا أن يمتثلوا الأمر ويقوموا بالواجب بعد أن يعرفوا منزلة البقرة عند أهلها.. وإن كنت أرى أنهم عجزوا عن إيجاد أسئلة أخرى حول وصف البقرة وأنهم ما تركوا بابًا للجدال والتلكؤ إلا ولجوه.

هي معززة مكرمة عند أهلها

﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَّ ذَلُولٌ تُثِيرُ الأَرْضَ وَلاَ تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لاَّ شِيَةَ فِيهَا قَالُواْ الآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ﴾

فأخبرهم أن الله يبين أن هذه البقرة ليست مذللة في حراثة الأرض وليست مذللة في سقي الحرث، وذلول: بمعنى الذليلة المهانة الضعيفة تقول: ذلت البقرة فهي ذلول بمعنى انقادت واستسلمت لصاحبها.

ومعنى لا تثير الأرض ولا تسقي الحرث أنها بقرة ليست ذلولاً مستخدمة في سقي الزرع وجلب الماء له.. فهي بقرة عزيزة نفيسة عند أصحابها فلا يذلونها ولا يستخدمونها في حراثة الأرض ولا سقاية الزرع.

ثم زادهم بيانًا.. ولعل ذلك تحرزًا من زيادة تنطعهم وأسئلتهم التي لا تنتهي - فقال: **﴿مسلمة لا شية فيها﴾**

مسلمة: اسم مفعول من سلم أي سلمت من كل نقص وعيب.

لا شية فيها: لا نافية للجنس، شية: اسم لا مبني على الفتح في محل نصب.

ودلالتها نفي جنس العيب عنها، فهي مبرأة من العيوب بمعنى لا لون فيها يخالف لون جلدها، وأصله من وشى الثوب.

وها نحن.. وقد تجسدت أمامنا صورة كاملة لبقرة فتية متوسطة العمر صفراء فاقعة اللون، معززة عند قومها مبرأة من كل عيب.

فذبحوها وما كادوا يفعلون

وأخيرًا نفذ اليهود الأمر، وذبحوا البقرة بعد هذه اللجاجة والأسئلة والتكاسل والتأخير ذبحوها وكأنهم لم يذبحوها.

إنهم لو ذبحوها منذ صدور الأمر الأول إليهم لكانوا منفذين للأمر مسارعين فيه مأجورين مثابين عليه.

أما الآن وبعد هذه الأسئلة والتأخير والتكاسل، فإنهم فقدوا عنصر المسارعة في التنفيذ وصفة الجندية لله والرغبة في الالتزام بأوامره والفوز برضوانه ولذا قال: ﴿**فذبحوها وما كادوا يفعلون**﴾، ولا نغفل هنا دلالة ﴿**كاد**﴾ودورها في السياق الدلالي.

فكلمة ما كادوا: تدل على حصول الفعل بعد مشقة وعسر كما تدل على بطئهم في التنفيذ، ومراوغتهم فيه بحيث لم ينفذوا إلا مضطرين مكرهين.

قال الإمام الراغب الأصفهاني عن ﴿**كاد**﴾: كاد الزَّند: إذا تباطأ بإخراج ناره.. ووضع كاد لمقاربة الفعل، يقال: كاد يفعل إذا لم يكن قد فعل. وإذا كان معه حرف نفي يكون لما قد وقع ويكون قريبًا من ألا يكون[1] .

دور البقرة في هذه القصة

ومثلت البقرة في هذه القصة دور الأداة التي استخدموها في الجدال والتنطع، وكان أولى بهم أن يسارعوا إلى تنفيذ أمر الله لكنهم ما تركوا بابًا للتحايل والتنطع إلا ولجوه، ولو أمروا بغير ذبح البقرة لسلكوا نفس السبيل وشغلوا أنفسهم بأمور ثانوية ومسائل هامشية ولربما أمروا بذبح البقرة ليهون عليهم ما عبدوه، فالبقرة من جنس العجل الذي اتخذوه إلهًا من دون الله، والله أعلم. كما أن البقرة في هذه القصة كانت شاهدةً على قدرة الله ﷻ في إحياء الموتى.

(١) المفردات في غريب القرآن: تأليف أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني، مكتبة نزار مصطفي الباز، مكة المكرمة، ط ٢، ١٩٩٧ صـ٥٧١..

غراب ابني آدم عليه السلام

سمي الغراب غرابًا لسواده ومنه قوله تعالى: ﴿**وغرابيب سود**﴾ويجمع غراب على غِربان وأغْرُب وغَرابين وغُرُب، والعرب يكنون الغراب - أبا الجحادف، وأبا الجراح، وأبا حذر، وأبا زيدان وأبا الشؤم، وأبا مرقال.

والغراب أنواع: فهناك الغراب الأعصم، وغراب الزرع والغراب الأكملي والأورق.. وغيرها

وأندر هذه الأنواع الغراب الأعصم لذا ضرب به المثل فقيل

"أعز من الغراب الأعصم"(١)

وقد ورد عن النبي ﷺ أنه كان بين أصحابه فقال: "**انظروا هل ترون شيئًا فقالوا: نرى غربانًا فيها غراب أعصم أحمر المنقار والرجلين فقال** ﷺ: **لا يدخل الجنة من النساء إلا من كان منهن مثل هذا الغراب في الغربان**"(٢) صدق رسول الله ﷺ

القصة من خلال الآيات:-

كان لآدم ابنان من جملة أبنائه وحصل بينهما خلاف ما على أمر ما، فقربا قربانًا إلى الله حلاً لذلك الخلاف، وذلك القربان غير محدد ولا معين في القرآن أو السنة، وتقبل الله قربان أحدهما لأنه كان على صواب ولم يتقبل قربان أخيه لأنه كان على خطأ، وبدلاً من أن يرتدع الأخ المخطئ ويرعوي، ويرجع إلى الحق وينهي الخلاف، زاد في باطله، واشتط في خصومته، وحقد على أخيه، وملأ قلبه كراهية وبغضًا له.

(١) سلسلة القصص القرآني: دكتور/ حمزة النشرتى وآخرون - المكتبة القيمة، جـ١٧، ص-ـ١٢٨

(٢) مسند الإمام أحمد بن حنبل: (١٦٤ - ٢٤١هـ) شرح حمزة أحمد الزين، دار الحديث القاهرة، ط١، ١٩٩٥ جـ ١٣، صـ٤٨٩، رقم ١٧٦٩٨

وحمله حقده وبغضه على أن يفكر في التخلص من أخيه بالقتل وتوعده وهدده قائلاً لأقتلنك، وطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله تنفيسًا لحقده، واستجابة للشيطان فقام بقتله، وبذلك خسر خسارة مطلقة.. خسر الدنيا والآخرة، وبما أن الأخ المجرم كان أول قاتل، فإنه لم يعرف كيفية التصرف بالجثة التي أمامه، ولذلك وقف أمامها عاجزًا خاسرًا، وأراد الله أن يسخر منه لعجزه وضعفه، فبعث غرابًا من الغربان ليعلمه كيفية التصرف في جثة أخيه.

وذهب بعض المفسرين إلى أن الله بعث غرابين يقتتلان فقتل أحدهما الآخر وقام بدفنه، ولكني أوافق دكتور محمد بكر إسماعيل في رفض هذا الطرح لأنه لو وقع بين الغرابين صراع - كما ذكروا - لكان في ذلك عزاء لابن أدم القاتل، إذ يرى في هذا تبريرًا لفعلته وإجازة لجريمته[1].

العرض القرآني للقصة:

قال تعالى: ﴿**وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِن أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٢٧) لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَاْ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لَأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (٢٨) إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاء الظَّالِمِينَ (٢٩) فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٣٠) فَبَعَثَ اللّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَـذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ (٣١) مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءتْهُمْ رُسُلُنَا بِالبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَلِكَ فِي الأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ (٣٢)** ﴾ (المائدة ٢٧-٣٢)

(١) قصص القرآن: دكتور/ محمد بكر إسماعيل، دار المنار، ط٢، ١٩٩٧، صـ-٣٧

هكذا أوجز القرآن الكريم القصة في سورة واحدة من سوره كلها فهذه القصة تقدم نموذجًا لطبيعة الشر والعدوان، ونموذجًا كذلك من العدوان الصارخ الذي لا مبرر له، كما أنها توضح كذلك عجز الإنسان الذي وقف موقف التلميذ العاجز أمام أستاذه - في هذا الموقف - الغراب، وقد اشتملت القصة على أربع شخصيات هي: آدم، وابنه المقتول، وابنه القاتل، والغراب، ونحن بصدد الحديث عن شخصية الغراب المبعوث من الله ليري القاتل كيف يدفن القتيل.. ونلحظ أن الغراب قد أدى دورًا إيجابيًا في هذه القصة، حيث إنه أرشد القاتل إلى حتمية دفن أخيه القتيل، وإلى الطريقة التي يدفن بها، فقد لعب دور المعلم الذي علم الإنسان الأول كيفية الدفن الصحيح للموتى.

لماذا الغراب؟

وقد يتبادر إلى الذهن سؤال: لماذا الغراب تحديدًا في هذا الموقف ويجيبنا الألوسي في "روح المعاني" قائلاً: "والحكمة في كونه المبعوث دون غيره من الحيوان كونه يُتشاءم به في الفراق والاغتراب وذلك مناسب للقصة"[1] فقد كان اختيار الغراب بالذات من بين شتى الطيور في غاية البراعة والدقة، ومناسبًا تمام المناسبة للجو الأسود والحزين الذي يغلف هذه المأساة موحيًا بقبح الجريمة وبشاعتها وشؤمها وسواد الجو النفسي الذي وقعت فيه، وما يعتري الناظر إلى سواد لونه من الانقباض، ولعل هذا هو الأصل في تشاؤم العرب بالغراب فقالوا "غراب البين"، فالغراب هو الأنسب لهذا الموقف المتسم بالغربة والاغتراب.

فالغراب كما يعرفه الجاحظ: "طائر من شرار الطير، قبيح الشمائل، ردئ الشية ليس من بهائم الطير المحمودة ولا من سباعها الشريفة، وهو كائن

(١) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني: لأبي الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسي البغدادي إدارة الطباعة المنيرية، دار إحياء التراث العربي، بيروت، جـ٦، صـ١١٦.

يتنكد به ويتطير منه، آكل للجيف"[١] .

"فبعث الله غرابًا يبحث في الأرض"

والبعث هنا كما يشير إليه صاحب التحرير والتنوير:

مستعمل في الإلهام بالطيران إلى ذلك المكان فألهم الله غرابًا ينزل بحيث يراه قابيل ولربما كان اختيار الغراب بالإضافة إلى ما ذكرته آنفًا - لأن الدفن حيلة في الغربان من قبل [٢] .

وعن قوله تعالى: "يبحث": عن مجاهد قال: "بعث الله غرابًا حتى حفر لآخر إلى جنبه ميت، وابن ادم القاتل ينظر إليه ثم بحث [٣] عليه حتى غيَّبه[٤]"، "والمعهود أن الطيور تفعل ذلك لطلب الطعام، والمتبادر من العبارة أن الغراب أطال البحث في الأرض بدلالة قوله تعالى: "يبحث" والمضارع يدل على الاستمرارية، فلما أطال البحث أحدث حفرة في الأرض، فلما رأى القاتل زالت حيرته واهتدى إلى طلبه، وعادة الغراب أن يدفن موتاه، ولا يتركها نهبًا للجوارح من الطيور ولغيرها من الحيوانات المفترسة، أو للتعفن والتحلل في الجو صونًا لكرامة الميت وترفقًا بالبيئة والأحياء فيها.

"وقد ثبت أن الغراب يقوم بحفر الأرض بواسطة كل من مخالبه ومنقاره ليكون حفرة عميقة فيها ثم يقوم بطي جناحي الغراب الميت وضمهما إلى جنبيه ورفعه برفق لوضعه في قبره ثم يهيل عليه التراب حتى يخفي جسد الميت، تمامًا كما يفعل المسلمون بموتاهم احترامًا لهذا الجسد حيًا وميتًا"[٥] .

(١) الحيوان: للجاحظ، مكتبة دار الهلال، جـ٣، صـ٥٠٠.

(٢) تفسير التحرير والتنوير: للطاهر بن عاشور، جـ٤، صـ١٥٤.

(٣) بحث: حفر التراب عليه وغطاه.

(٤) تفسير الطبري: جـ١٠، صـ٢٢٦.

(٥) من آيات الإعجاز العلمي الحيوان: دكتور/ زغلول النجار، صـ٤٠٦.

بيد أن هذه الصفة لم تشفع للغراب فبات الغراب باعثا على التشاؤم عند كثير من الناس يقول دكتور زغلول النجار: "للغراب نعيق مفزع، وصوت خشن فظ، يلتقط البذور المبذورة في الأرض من قبل إنباتها، أو يقضي على المحاصيل قبل جمعها، يفترس الدجاج وفراخه وبيضه، ويكون مصدرًا لإصابة الإنسان بالعديد من الأمراض الفيروسية والبكتيرية والطفيلية، لذلك أوصى الرسول ﷺ بقتله في الحل والحرم"(١).

"ليريه كيف يواري سوأة أخيه"

واللام في **قوله تعالى ﴿ليريه﴾** للتعليل إذا كان الضمير راجعًا إلى الله تعالى، أي أنه تعالى ألهم الغراب ذلك ليتعلم ابن آدم منه الدفن، وللصيرورة والعاقبة إذا كان الضمير عائدًا إلى الغراب. أي لتكون عاقبة بحثه ما ذكر (٢).

فالغراب هنا معلم يستخدم أحدث الأساليب العلمية المعتمدة على التجربة والمشاهدة العملية (ليريه)

وهذا المشهد العظيم هو أول مشاهد الحضارة في البشرية، ومن قبيل طلب ستر المشاهدة المكروهة، وهو أيضًا مشهد أول علم اكتسبه البشر بالتقليد وبالتجربة، وهو أيضًا مشهد أول مظاهر تلقي البشر معارفه من عوالم أضعف منه، كما تشبه الناس بالحيوان في الزينة فلبسوا الجلود الحسنة الملونة، وتكللوا بالريش الملون وبالزهور والحجارة الكريمة.. فكم في هذه الآية من عبرة للتاريخ والدين والخلق (٣).

ولما رأى القاتل الغراب وتعلم منه سنة الدفن وظهر له من ضعفه وجهله ما كان غافلاً عنه **﴿قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾**.

(١) من آيات الإعجاز العلمي الحيوان: دكتور/ زغلول النجار، صـ٤٠٨.
(٢) تفسير المنار: الإمام/ محمد عبده، جـ٦، صـ٢٨٦.
(٣) تفسير التحرير والتنوير: الطاهر بن عاشور، جـ٦، صـ١٧٤.

وهو ندم سلبي.. ندم العاجز الحاقد ليس ندم المذنب التائب. ندم الذي شعر بالخسارة الفادحة وهو الذي كان يرجو النفع العميم فهو لم يتب، ولم يستغفر، ولم يشعر بالخطأ والإثم.

فقد كان ندمه ناتجًا عن عجزه عن التصرف في الجثة، فلما جاء الغراب وعلمه ذلك، كأنه شعر بانتقاص في إنسانيته، وطعن في قوته وفطنته فأحس بالندم البالغ.

وحين نمعن النظر في تعليم الغراب للإنسان القاتل كيفية الدفن فإننا نخرج ببعض الإشارات (١).

١- إن هذه الحادثة هي أول جريمة قتل تقع، لأن القاتل لم يعرف كيف يتخلص من الجثة.

٢- إنها تسجل عجز الإنسان الحاقد، الذي يدعي القوة والفطنة والذكاء وحسن التصرف ثم يعجز عن التصرف في مشكلة أمامه فيأتي غراب لا علم له ولا وعي ولا ذكاء ليعلم هذا الإنسان الواعي الذكي.

٣- إنها تسخر من عجز هذا الإنسان وتتهكم عليه لجهله وغبائه وسذاجته؛ إذ وقف عاجزًا ينتظر من يعلمه حتى جاء الغراب فعلمه.

أصحاب الفيل (٢)

الفيل ورد ذكره في القرآن الكريم في آية واحدة أصبحت عنوانًا للسورة وهي سورة الفيل.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴾(سورة الفيل)

(١) مع قصص السابقين: دكتور/ صلاح الخالدي، صـ٢٢.

(٢) وهنا اخترت الاسم الذي ورد في القرآن الكريم.. فلم ألتزم بمنهجي في تسمية القصة التزامًا بما جاء في كتاب الله.

وقد كان هلاك أصحاب الفيل كرامة للنبي ﷺ.. فقد ولد في هذا العام بعد هلاك أصحاب الفيل بأربعين أو خمسين يومًا.

وقال الدميري: الفيل يجمع على أفيال وفيول وفيلة ولا يقال أفيلة، أما سائسه فيقال له فَيَّال، ويكنى الفيل بأبي الحجاج، وأبي دعفل، وأبي مزاحم. **وتكنى الأنثى منه**: أم شبل.

ومن الأمثال الواردة في الفيل: آكل من فيل، وأشد من فيل، وأعجب من فيل.

وإن كانت القصة لم تقتصر على الفيل وحده كعنصر حيواني.. فهناك الطير الأبابيل التي مثلت جنود الله في هذه القصة، بيد أن الفيل له الصدارة هنا فالسورة سميت باسمه، والحادثة سميت باسمه، بل إن العام سمي بعام الفيل الذي ولد فيه النبي ﷺ.

من هم أصحاب الفيل؟ وما قصتهم؟

أصحاب الفيل هم جماعة من الحبشة جاءوا مكة غازين مضمرين هدم الكعبة يقودهم أمير الحبشة على اليمن: "أبرهة الأشرم" وقد تهيأ أبرهة لدخول مكة وهيأ فيله [١] وعبأ جيشه لهدم الكعبة.

فلما وجهوا الفيل جهة الكعبة برك الفيل فضربوه ليقوم فأبى وضربوا رأسه بالطبرزين ليقوم فأبى، فوجهوه راجعًا إلى اليمن فقام يهرول، ووجهوه إلى الشام ففعل مثل ذلك، ووجهوه إلى الشرق ففعل مثل ذلك ووجهوه إلى مكة فبرك [٢].

(١) وقيل إنه فيل واحد وقيل ثمانية، وقيل اثنا عشر، بل قال البعض: ألف فيل والعدد هنا لا يعنينا في شيء.

(٢) تفسير الطبري: جـ٢٤، صـ٦١١ وما بعدها، وتفسير التحرير والتنوير: جـ٣٠، صـ٥٤٨ وما بعدها.

فقد كانت العناية الإلهية تحيط بالكعبة؛ فهي بيت الله الحرام وللبيت رب يحميه، وانتهى الغزو بمأساة رهيبة فقد أرسل الله تعالى عليهم طيرًا سودًا أو خضرًا، أو بيضًا كالخطاطيف على اختلاف الأقاويل.. مع كل طير حجر في منقاره، وحجران في رجليه أكبر من العدسة وأصغر من الحمصة، قال ابن عباس: كان الحجر يقع على رأس الرجل فيخرج من دبره، وعلى كل حجر اسم من يقع عليه ففروا فهلكوا في كل طريق ومرض أبرهة فتساقطت أنامله وما مات حتى انصدع صدره من قلبه، وانفلت وزيره أبو يكسوم وطائر يحلق فوقه حتى بلغ النجاشي فقص عليه القصة فلما أتمها وقع عليه الحجر فخر ميتًا بين يديه [1].

دور الفيل في القصة:

جاء التعريف في الفيل للعهد، وهو فيل أبرهة قائد الجيش كما قالوا للجيش الذي خرج مع عائشة ﵂ أصحاب الجمل يريدون الجمل الذي كانت عليه أم المؤمنين مع أن في الجيش جمالاً أخرى.

والفيل.. ذلك الحيوان الضخم لم يكن معروفًا عند العرب فلذلك قل أن يذكر في كلامهم، وأول فيل دخل بلاد العرب هو الفيل المذكور في هذه السورة.

دور الطير الأبابيل:

وهي العنصر الحيواني الثاني في القصة فقد أراد أتباع أبرهة هدم الكعبة بالفيل فأهلكهم الله بطير أبابيل

والطير: اسم جمع طائر وتنكيره هنا للنوعية، لأنه نوع لم يكن معروفًا عند العرب. وقد اختلف المفسرون في صفته اختلافًا خياليًا، والصحيح ما روي عن عائشة ﵂ أنها أشبه شيء بالخطاطيف.

(١) غرائب القرآن ورغائب الفرقان: للنيسابوري، مجـ٤، صـ٣٤٣.

وأبابيل: جماعات قال الفراء وأبو عبيدة: "أبابيل": اسم جمع لا واحد له من لفظه مثل عبابيد وشماطيط، وقال الرؤاس والزمخشري.

واحد أبابيل إبَّاله ومنه قولهم في المثل "ضغث على إبالة" وهي الحزمة الكبيرة من الحطب وعليه فوصف الطير بأبابيل على وجه التشبيه البليغ [1].

وحينما نقرر أن الطير هنا لعبت دور الجندي من جنود الله - وما يعلم جنود ربك إلا هو. فيمكننا أيضًا القول إن الفيل، الذي أرادوا له أن يكون جنديًا من جنود الشيطان - كان أيضًا من جنود الرحمن.. فكأنه عرف البيت الحرام وعرف قدسيته فبرك أمامه ورفض أن يكون معول هدم له.

ناقة صالح

بعث الله ﷻ إلى ثمود أخاهم صالحًا نبيًا ورسولاً ﷺ يهديهم إلى الصراط السوي، لكنهم عصوا وتكبروا وطالبوا صالحًا بآية فبعث الله إليهم ناقة تصديقًا له، لكنهم عقروها، وعتوا عن أمر ربهم فقال لهم تمتعوا في داركم ثلاثة أيام بعدها نزل عذاب الله ووعده، ونجى الله صالحًا والذين آمنوا معه وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا أثرًا بعد عين ألا إن ثمود كفروا ربهم ألا بعدًا لثمود، وتلك عقبى الظالمين ومآل الفاسقين.

العرض القرآني للقصة:

قال تعالى: ﴿**وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَـذِهِ نَاقَةُ اللّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللّهِ وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوَءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾. (الأعراف - ٧٣)

(١) التحرير والتنوير: للطاهر بن عاشور، جـ٣٠، صـ٥٥٠.

وقال تعالى: ﴿فَعَقَرُواْ النَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُواْ يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾. (الأعراف - ٧٧)

وقال تعالى: ﴿وَيَا قَوْمِ هَـذِهِ نَاقَةُ اللّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللّهِ وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ (٦٤) فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ (٦٥) فَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ (٦٦) وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٦٧)﴾(هود ٦٤ - ٦٧)

وقال تعالى: ﴿.. وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلاَّ تَخْوِيفًا﴾ (الإسراء - ٥٩)

وقال تعالى: ﴿مَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٥٤) قَالَ هَـذِهِ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ (١٥٥) وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥٦) فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ(١٥٧)﴾. (الشعراء ١٥٤ - ١٥٧)

وقال تعالى: ﴿إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ (٢٧) وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاء قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ (٢٨) فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ(٢٩)﴾(القمر ٢٧ ـ ٢٩)

وقال تعالى: ﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا (١٣) فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا (١٤)﴾. (الشمس ١٣ - ١٤)

دور الناقة في القصة:

وأول ما نقف عنده وصفه تعالى للناقة بأنها "ناقة الله"، وفي هذه الإضافة تشريف وتكريم لها، لأنها ناقة خاصة مثل إضافة البيت إلى الله - الكعبة - حيث يقال: هذه الكعبة بيت الله !، وقيل لأنه تعالى خلقها على خلاف سنته في خلق الإبل وصفاتها.

وليست الإضافة هنا للتملك، بمعنى أن الله يملك الناقة، كما يملك أحدهم ناقته، فهذا معنى مرفوض هنا لأن الكون وما فيه ملك لله وحده.

والخارقة في الناقة شربها للماء فلم يكن شربها للماء شربًا عاديًا إنما كان شربًا خاصًا خارقًا، فقد كان ماء العين عند ثمود قسمة بينهم وبين الناقة! بحيث يشربون هم ماء العين يومًا، يكون ماء العين في هذا اليوم لهم ولدوابهم بينما تشرب الناقة وحدها ماء العين كله في اليوم التالي، وهكذا يكون شرب ماء العين بالتناوب بينهم وبين الناقة.. كما صرحت الآيات.. وفي يوم شرب الناقة يجب على قوم ثمود أن يخلوا بينها وبين شرب العين فلا يمنعونها منه ولا يمسونها بسوء!

ويربط صاحب المنار بين "ناقة الله" من ناحية، و"أرض الله" من ناحية أخرى فيقول: "والمتبادر إلى الذهن من إضافة الأرض إلى الله تعالى أن المراد بها: المباحة للأنعام أن ترعى ما نبت فيها من الكلأ وغيره دون ما يزرعه الناس، ويحمونه لأنفسهم، وفيه مراعاة النظير بين "ناقة الله"، و"أرض الله" **أي**: فذروا واتركوا ناقته تأكل من أرضه التي خلقها وأباحها لخلقه"[1].

كَفَر القومُ وعقروا الناقة:

هذه الناقة معجزة طلبها قوم صالح فحققها الله ﷻ لهم لا يستطيعون تكذيبها لأنها حدثت أمامهم، وما دامت ناقة الله معجزة طلبتموها فحققها الله لكم وجعلها مشهودة منكم فحافظوا عليها لا تتعرضوا لها حين تشرب، وحين تأكل. اتركوها ترعى في أرض الله، وتأكل من خير الله، وحافظوا عليها لا تمسوها بسوء، لأنكم إن فعلتم ذلك فسيأتيكم عذاب الله وسيكون قريبًا، وهكذا أعطاهم الله العظات كلها فآمن البعض، وكفر البعض، فبدلاً من أن تكون الناقة آية الله التي تزيدهم إيمانًا خالفوا فيها أمر الله فأصبحت سبب

(١) تفسير المنار: للإمام / محمد عبده، جـ ٤، صـ٤٤٨.

هلاكهم فأرادوا النكاية والإغاظة لصالح ﷺ ومن آمن به، ورسموا لابتداء عملهم أن يعتدوا على الناقة التي جعلها صالح ﷺ لهم، وإقامتها بينه وبينهم علامة موادعة ما داموا غير متعرضين لها بسوء، ومقصدهم من نيتهم إهلاك الناقة أن يزيلوا آية صالح ﷺ لئلاً يزيد عدد المؤمنين به، لأن مشاهدة آية نبوءته سالمة بينهم تثير في نفوس كثير منهم الاستدلال على صدقه والاستئناس لذلك بسكوت كبرائهم وتقريرهم لها على مرعاها وشربها، ولأن في اعتدائهم عليها إيذانًا منهم بتحفيزهم للإضرار بصالح ﷺ وبمن آمن به بعد ذلك وليروا صالحًا ﷺ أنهم مستخفون بوعيده إذ قال لهم: ﴿**ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم**﴾.

والضمير في قوله: فعقروا عائد إلى ﴿**الذين استكبروا**﴾(**الأعراف-٧٥**)

وقد أسند العقر إليهم، وإن كان فاعله واحدًا منهم لأنه كان عن موافقة ورضا من جميع الكبراء، كما دل عليه قوله تعالى في سورة القمر ٢٩ ﴿**فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر**﴾[١] .

والعقر: حقيقته الجُرح البليغ قال امرؤ القيس (الطويل):

تقولُ وَقَدْ مَالَ الغَبِيطُ بِنَا معًا عَقَرْتَ بعيرِي يا أَمْرَأَ القيسِ فَانْزِلِ [٢]

كما يطلق العقر على قطع عضو الحيوان، وكانوا يعقرون البعير المراد نحره بقطع عضو منه حتى لا يستطيع الهروب عند النحر، فلذلك أطلق العقر على النحر على وجه الكناية، قال امرؤ القيس (الطويل):

ويومَ عقرتُ لِلعَذَارى مطيَّتي فيا عَجَبًا من كَورِهَا المتحمَّلِ [٣]

(١) تفسير التحرير والتنوير: للطاهر بن عاشور، جـ٨، صـ٢٢٥

(٢) جمهرة أشعار العرب: للقرشي، صـ١٣٣

(٣) نفسه: للقرشي صـ١٣١

فالناقة هنا آية من آيات الله في الخلق، واستجابة الدعاء، تأييد الرسل بالمعجزات، وفي الوقت نفسه هي شاهدة على مخالفة القوم لأوامر الله ﷻ فيقيم الله حجته عليهم فيحق عليهم العذاب.

عجل بني إسرائيل

كان بنو إسرائيل في سيناء يقودهم موسى وهارون عليهما السلام، وقد أمر الله موسى عليه السلام بالمجيء إلى جبل الطور لمناجاته وأخبر الله موسى عليه السلام قبل مجيئه إلى الطور أنه سيغيب عن قومه ثلاثين ليلة.

فاستخلف موسى أخاه هارون على بني إسرائيل وأوصاه أن يخلفه فيهم بخير ويصلح، وأن يحذر المفسدين.

ولما انتهت الليالي الثلاثون وموسى عليه السلام على جبل الطور أتمها الله بعشر ليال أخرى، فصارت أربعين ليلة.

وقد أخبر الله موسى عليه السلام وهو على جبل الطور أن قومه ضلوا أثناء غيابه وعبدوا العجل، واتبعوا أوامر السامري، فغضب موسى من صنيعهم هذا.. قال تعالى: ﴿**قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ**﴾ (طه-٨٥)

"والسامري" مبهم من مبهمات القرآن، لم يرد أي بيان حوله في مصادرنا الإسلامية اليقينية، فلا توجد أحاديث صحيحة تتحدث عنه، بينما تخوض فيه الإسرائيليات كثيرًا.

وكان السامري قد أخذ حلي وزينة بني إسرائيل التي استعاروها من المصريين الذين اعتبروا هذه الزينة أوزارًا يجب التخلص منها وشجعهم السامري على ذلك ودعاهم إلى قذفها وطرحها فأخذها السامري وصهرها وصنع منها عجلاً ثم ألقى عليها قبضة من تراب قد أخذها من أثر مرور جبريل عليه السلام.

ذكر العجل في القرآن الكريم

قال تعالى: ﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ﴾(البقرة - ٥١)

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُواْ إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾(البقرة- ٥٤)

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءكُم مُّوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ (٩٢) وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُواْ مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُواْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ (٩٣) ﴾. (البقرة ٩٢-٩٣)

وقال تعالى: ﴿..... ثُمَّ اتَّخَذُواْ الْعِجْلَ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُّبِينًا﴾. (النساء - ١٥٣)

وقال تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّهُ لاَ يُكَلِّمُهُمْ وَلاَ يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً اتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَالِمِينَ﴾. (الأعراف - ١٤٨)

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾. (الأعراف - ١٥٢)

وقال تعالى: ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ﴾. (طه - ٨٨)

وقد عرض القرآن الكريم القصة مفرقة على أكثر من سورة وفي آيات متعددة كما رأينا، ومعلوم أن القصة القرآنية إما أن تأتي مجتمعة أو متفرقة ولكل دلالته وهدفه.

فماذا كانت صورة هذا العجل؟ قال ابن كثير: اختلف المفسرون في ذلك العجل: هل صار لحمًا ودمًا له خوار أو استمر على كونه من ذهب إلا أنه يدخل فيه الهواء فيصوت كالبقر؟ على قولين والله أعلم [١] .

ويرى الرأي الأول قتادة والحسن البصري في جماعة آخرين، وتعليل ذلك عندهم أن السامري رأى جبريل حين جاوز ببني إسرائيل البحر راكبًا فرسًا، ما وطئ بها أرضًا إلا حلت فيه الحياة واخضر نباتها فأخذ من أثرها قبضة فنبذها في جوف تمثال العجل فحلت فيه الحياة وصار يخور كما يخور العجل.

ويرى جماعة آخرون الرأي الثاني ويقولون إن خواره كان بتأثير دخول الريح في جوفه وخروجها من فيه.

ويرى دكتور/ الخالدي أن العجل الذي صنعه السامري لم يكن عجلاً حقيقيًا له روح وحياة، ومكون من لحم ودم، لأنه لو كان كذلك لكان السامري خالقًا.. وهذا مستحيل، لأن الله وحده هو الخالق المحيي، فالسامري صانع تماثيل ماهر في تشكيلها وتصويرها وإخراجها لكنها تبقى تماثيل جامدة لا حياة فيها ولا روح، ولهذا وصف العجل الذي صنعه بأنه جسد له خوار [٢] . ويضيف: "استخدام لفظة جسد تدل على أنه جسم بلا روح وبما أن عجل السامري كان جسدًا بدون حياة فلم يكن خواره حقيقيًا لأنه لم يكن حيًا بل هو صوت الريح التي تمر خلاله" [٣] .

عبادتهم للعجل ليست مجرد عبادة فحسب:

لم تكن عبادتهم للعجل مجرد عبادة تقديس فحسب فإنهم، وبنص القرآن قد

(١) تفسير ابن كثير (تفسير القرآن العظيم): أبو الفداء إسماعيل ابن كثير القرشي الدمشقي (٧٠٠ - ٧٧٤هـ) تحقيق سامي بن محمد سلامة دار طيبة للنشر والتوزيع، ط٢، ١٩٩٩م، جـ٣ صـ٤٧٦.

(٢) مواقف الأنبياء في القرآن: دكتور/ صلاح الخالدي، دار القلم، دمشق، ط٢٠٠٣،١، صـ٢٧٥.

(٣) القصص القرآني عرض ووقائع وتحليل أحداث: دكتور/ صلاح الخالدي، دار القلم، دمشق، ط١، ٢٠٠٤ جـ٣، صـ١٧٦.

أُشربوا العجل في قلوبهم.. أحبوه حتى تغلغل هذا الحب في أعماقهم.

فالإشراب هو جعل الشيء شاربًا، واستعير لجعل الشيء متصلاً بشيء وداخلاً فيه، ووجه الشبه هو شدة الاتصال والسريان لأن الماء أسرى الأجسام في غيره ولذا يقول الأطباء الماء مطية الأغذية والأدوية ومركبها الذي تسافر به إلى أقطار البدن، فلذلك استعاروا الإشراب لشدة التداخل استعارة تبعية قال عبيد الله بن عبد الله بن مسعود الهذلي (**الوافر**):

تَغلغَلَ حُبُّ عُثمَةَ في فُؤادي فبَادِيهُ مع الخَافي يَسِيرُ
تَغلغَلَ حَيْثُ لم يبلُغْ شَرَابٌ ولا حُزنٌ ولَمْ يَبْلُغْ سُرورُ (١)

ومنه قولهم أشرب الثوبَ الصبغُ قال الراغب: "من عادتهم إذا أرادوا مخامرة حب وبغض أن يستعيروا لذلك اسم الشراب. وقد اشتهر المعنى المجازي فهجر استعمال الإشراب بمعنى السقي، وذكر القلوب قرينة على أن إشراب العجل على تقدير مضاف من شأن القلب مثل عبادة العجل أو تأليه العجل. وإنما جعل حبهم العجل إشرابًا لهم للإشارة إلى أنه بلغ حبهم العجل مبلغ الأمر الذي لا اختيار لهم فيه كأن غيرهم أشربهم إياه كقولهم أُولع بهذا أو شُغِف".

والعجلَ مفعول أشربوا على حذف مضاف مشهور في أمثاله من تعليق الأحكام وإسنادها إلى الذوات مثل ﴿**حرمت عليكم الميتة**﴾ أي أكل لحمها وإنما شغفوا به استحسانًا واعتقادًا أنه إلاههم وأن فيه نفعهم لأنهم لما رأوه من ذهب قدسوه من فرط حبهم للذهب"(٢).

(١) ذكر الطبري في تفسيره هذه الأبيات وقال إنها لإحدى النابغتين الذبيانى أو الجعدي قالها في زوجته عتمة كان عتب عليها في بعض الأمر فطلقها وكان محبًا لها. وبعدها: أكاد إذا ذكرت العهد منها أطير لو أن إنسانًا يطير
ولكن بالبحث عنها وجدتها لعبيد الله بن مسعود الهذلي - انظر: الأغاني: لأبي الفرج الأصفهاني، جـ ٨ صـ ٩٤

(٢) تفسير التحرير والتنوير: للطاهر بن عاشور، جـ١، صـ ٦١١.

تمثال على هيئة عجل... لماذا؟

وهو سؤال يتبادر إلى الأذهان.. فماذا لو كان المصنوع تمثالاً لغير العجل؟

فالحلي بعد انصهارها صارت مادة سائلة يسهل تشكيلها، والسامري صانع تماثيل ماهر... فلماذا صنع تمثالاً للعجل تحديدًا؟

يقول صاحب التحرير والتنوير:

"إنما اتخذوا العجل تشبيهًا بالكنعانيين الذين دخلوا إلى أرضهم وهم الفينيقيون سكان سواحل بلاد الشام فإنهم كانوا عبدة أوثان، وكان العجل مقدسًا عندهم، وكانوا يمثلون أعظم الآلهة عندهم بصورة إنسان من نحاس له رأس عجل جالس على كرسى مادًّا ذراعيه كمتناول شيء يحتضنه، وكانوا يحمونه بالنار من حفرة تحت كرسيه لا يتفطن لها الناس فكانوا يقربون إليه القرابين، وربما قربوا له أطفالهم صغارًا فإذا وضع الطفل على ذراعيه اشتوى فظنوا ذلك أمارة قبول القربان فتبًا لجهلهم وما يصنعون، وكان يسمى عندهم "بعلاً" وربما سموه "مولوك"، وهم أمة سامية لغتها وعوائدها تشبه في الغالب لغة وعوائد العرب. فلما مر بهم بنو إسرائيل قالوا لموسى اجعل لنا إلهًا كما لهم آلهة فانتهرهم موسى وكانوا يخشونه، فلما ذهب للمناجاة واستخلف عليهم هارون استضعفوه، وظنوا أن موسى هلك فاتخذوا العجل الذي صنعوه من ذهب وفضة من حليهم وعبدوه [1].

أما عبد الوهاب النجار فيربط ربطًا - منطقيًا كذلك - بين عجل بني إسرائيل وعجل أبيس فيقول: "كان بنو إسرائيل يعرفون العجل الصنم الذي كان يعبده المصريون، فالقوم عاشوا في مصر وألِفوا أن يروا عبادة المصريين للعجل "أبيس" وكان للمصريين عناية فائقة بعبادة هذا العجل. وكانت العجول المؤلهة إذا ماتت حنطوها كما يحنط الأدمي - بما يحفظ جسمها من

(١) تفسير التحرير والتنوير: للطاهر بن عاشور: جـ١، صـ٤٩٩

التلف أو دفنوها في مقبرة خاصة في جهة سقارة"[١]

ويبدو أن بني إسرائيل تأثروا بعبادة المصريين للعجل "أبيس" وبقي هذا التأثر والإعجاب كامنًا في نفوسهم، فلما جاءت أول فرصة لإظهار هذا التأثر الكامن، بادروا، وعبدوا العجل الذي صنعه لهم السامري. والله أعلى وأعلم.

وكان للعجل في القرآن الكريم ظهور آخر في آيتين:

قال تعالى: ﴿**فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاء بِعِجْلٍ سَمِينٍ**﴾(٢٦ - الذاريات)

وقال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ جَاءتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُواْ سَلاَمًا قَالَ سَلاَمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَاء بِعِجْلٍ حَنِيذٍ**﴾(٦٩ - هود)

حكاية عن سيدنا إبراهيم مع ضيفه من الملائكة، وأول ما يشد انتباهنا هو اختلاف صفة العجل في الآيتين، فمرة يوصف العجل بأنه "سمين"، ومرة "حنيذ" ولا تعارض بين الصفتين فالأولى تدل على ضخامة حجمه وكثرة ما فيه من لحم ومن شحم.. وهي صفة حميدة فيه، والأخرى "حنيذ" من مادة حنذ[٢] أى ناضج مشوي معد للطعام وكان الشِوا أسرع طبخ. أهل البادية يقول امرؤ القيس: "الطويل":

فظلَّ طهاةُ اللحمِ ما بين منضجٍ صَفِيفَ شِواءٍ أو قديرٍ مُعجَّلِ[٣]

أما اختيار العجل لتقديمه طعامًا "فمرجع ذلك كما روي عن قتادة أن عامة مال نبي الله إبراهيم ﷺ كان من البقر"، وهو هنا دليل على القِرىَ. كما لا يفوتنا أن نشير إلى حرص إبراهيم ﷺ على إكرام ضيفه، الذي يبدو بارزًا من خلال حرصه على الإسراع بإحضار الطعام، والذي يدلنا عليه العطف بحرف العطف الفاء الذي يدل على الترتيب مع التعقيب والسرعة "فراغ. فجاء - فقربه - فقال..." في سورة الذاريات.

(١) قصص الأنبياء: لعبد الوهاب النجار، ص٢١٨

(٢) جاء في مختار الصحاح: حنذ الشاة شواها وجعل فوقها حجارة محماة لتنضجها فهى حنيذ.

(٣) جمهرة أشعار العرب: للقرشي، صـ١٦٤.

أو كلمة "فما لبث": التي تدل على السرعة أيضًا، وانتفاء اللبث مبالغة في العَجَل، وتعجيل قرى الضيف سنة عربية.

ولكن هل اقتصر دور العجل في الآيتين على أنه طعام يدل على الإكرام؟ لا فهناك دور آخر لهذا العنصر الحيواني في هذه القصة، فقد امتنع الضيوف عن أكل هذا الطعام.. وانظر إلى التعبير القرآني الذي يصف المبالغة في عدم تناولهم للطعام، إذ عبر عن ذلك بأن أيديهم لا تصل إليه. فالامتناع لم يقتصر على الطعام فحسب، بل هم امتنعوا عن مجرد مد يدهم إليه، وهنا أوجس إبراهيم منهم خيفة.. فالعربي لا يأمن لضيفه إن لم يأكل طعامه، ويشعر عندها أن الضيف إنما أضمر في نفسه شرًا لمضيفه، فقد كان أكل طعام القرى كالعهد على السلامة من الأذى، لذا أوجس إبراهيم منهم خيفة، لكنهم ما لبثوا أن طمأنوه بأنهم رسل من عند الله وبشروه بإسحاق فكان للعجل دور آخر وهو سبب إخبار هؤلاء الضيف لإبراهيم أنهم ليسوا بشرًا بل هم رسل من عند الله.

حيتان أصحاب السبت

وردت لفظة "حوت" بالمفرد والجمع في القرآن الكريم خمس مرات بمعنى صيد البحر، وجاءت في أربع منها بمعنى السمكة أو السمك، وفي مرة جاءت بمعنى أضخم حيوان بحري، والقصة التي نحن بصددها قد ذكر فيها اللفظ بصيغة الجمع "إذ تأتيهم حيتانهم" يقول الإمام محمد عبده: "حيتانهم أي سمكهم ولا يزال أهل الحجاز يسمون السمكة حوتًا كبيرة كانت أو صغيرة، وأهل سورية يخصون السمكة الكبيرة باسم الحوت.. وقد أضيفت الحيتان إليهم لما كان ابتلاؤهم بها واحتيالهم على صيدها[1] ".

(١) تفسير المنار: الإمام / محمد عبده، جـ٩، صـ-٣١٧

ذكر قصة أصحاب السبت في القرآن

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْاْ مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾. (البقرة - ٦٥)

وقال تعالى: ﴿وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لاَ يَسْبِتُونَ لاَ تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (١٦٣) وَإِذَ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُواْ مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (١٦٤) فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ (١٦٥) فَلَمَّا عَتَوْاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَاسِئِينَ (١٦٦)﴾(الأعراف ١٦٣ - ١٦٦)

وقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللّهِ مَن لَّعَنَهُ اللّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُوْلَئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاء السَّبِيلِ﴾. (المائدة - ٦٠)

وفي هذه القصة لدينا ثلاثة عناصر حيوانية هي:

الحيتان: التي خالفت أوامر الله بصيدها يوم السبت المحرم عليهم فيه الصيد والعمل.

القرد: الذي كان المسخ إليه عقوبة المخالفين أوامر الله.

الخنزير: الذي كان أيضًا المسخ إليه عقوبة المخالفين أوامر الله.

موجز القصة:

تتحدث هذه الآيات عن قصة قرية من قرى اليهود، تقع على شاطئ البحر وقد أُمِرَ اليهود سكان هذه القرية بعدم صيد الحيتان والأسماك يوم السبت وأبيح لهم الصيد في باقي أيام الأسبوع. وقد ابتلاهم الله في هذا التكليف

حيث كانت الأسماك تبتعد عنهم في أيام الصيد بينما كانت تأتيهم يوم السبت "شرعًا"، بل قيل إنه إذا دخل يوم السبت لم يبق حوت في البحر إلا اجتمع هناك، ويخرجون من الماء خراطيمهم حتى لا يرى الماء من كثرتهم، حتى إذا مضى السبت تفرقوا ولزموا وقر البحر [١] ووسوس الشيطان في نفوس طائفة من أهل القرية، وزين لهم اصطياد الأسماك. ولكن كيف يتحايلون على أمر الله؟ هداهم شيطانهم إلى حيلة شيطانية ماكرة. وأرشدهم إلى طريقة يصطادوا بها الأسماك يوم السبت!

وانقسم أهل القرية إزاء الفريق المعتدي إلى فريقين:-

فريق: أنكروا على المتحايلين صنيعهم، **الآخر**: سكتوا عن عدوان المعتدين ولم يوجهوهم أو ينكروا عليهم.

ولما وقع بالمعتدين عذاب الله مسخهم قردة خاسئين، وكان المسخ حقيقيًا، ولم يتناسل القردة الممسوخون، ولم يعيشوا فوق ثلاثة أيام.

ونجى الله فريق المصلحين الدعاة وسكت القرآن عن مصير فريق الساكتين [٢]

دور الأسماك في القصة: في قوله تعالى ﴿**الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ**﴾ إشارة إلى أن للبحر دخلاً في القصة، فإذا قرأنا القصة وأمعنا النظر فيها أدركنا أن السؤال هنا إنما يتعلق بالحيتان والأسماك والصيد.

وبرغم قول كثير من المفسرين إن هذه القصة وقعت في زمن داود عليه السلام، وتحديد البعض للمدينة المشار إليها فإن القرآن الكريم لم يحدد لنا اسم القرية أو موقعها، ولم يبين زمان القصة أو تفصيلاتها ولسنا بصدد البحث عن الزمان

(١) عرائس المجالس: لأبي إسحاق بن محمد بن إبراهيم النيسايوري المعروف بالثعلبي (ت ٤٢٧ هـ)، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، صـ٢٩٠.

(٢) مع قصص السابقين في القرآن: دكتور/ صلاح الخالدي، ص-٢٣٠.

والمكان فلربما كانت هذه القرية "أيلة"أو "إيلات"أو "العقبة"أو "طبرية"، وقد تكون غيرها، وقد تكون القصة في زمن موسى أو داود أو سليمان أو غيرهم من أنبياء بني إسرائيل عليهم وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام.

فالتحديد والترجيح لا يقدم فائدة مرجوة. فهذه المبهمات لا تحدد إلا من خلال القرآن أو الحديث الصحيح فإن لم يتم التحديد منها فيجب أن تبقى مبهمة.. طالما أننا لا نمتلك أداة يقينية [1] وأول ما يجذب انتباهنا في هذه القصة.

قوله تعالى: ﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا﴾، ﴿وَيَوْمَ لاَ يَسْبِتُونَ لاَ تَأْتِيهِمْ﴾ففي الجملتين وقع جنس الحيتان فاعلاً سواء اسم ظاهر في الجملة الأولى أو مضمرًا في الجملة الثانية دل عليه الضمير المستتر في الفعل "تأتي"، ودلالة ذلك أن الحيتان لها دور إيجابي فاعل.. ولا أقول إنها تأتي وتمتنع من تلقاء نفسها فإن الله ﷻ أوحى إليها وأعلمها بيوم السبت [2] الذي حَرَّم الله فيه على القوم الصيد أو العمل مطلقًا، فكانت تأتي آمنة حتى أن الله وصفها في مجيئها بقوله "شرعًا"أي واضحة وضوح الشراع في السفينة وهو أظهر شيء فيها فكأنها تعلن عن نفسها وربما ظنت خيرًا في القوم أنهم سيطيعون أوامر الله، أما في الأيام المباح فيها الصيد وهي باقي أيام الأسبوع. ولعلها علمتها بالطبع. كانت لا يأتي منها إلا القليل.

الجزاء من جنس العمل:

تحدث القرآن في أكثر من موضع عن عقاب أصحاب السبت ومسخهم إلى قردة وخنازير:

(١) هذا هو المنهج الذي اخترته في هذا الكتاب برغم أن الإسرائيليات لم تترك مبهماً إلا أوضحته لكنني ضربت صفحًا عنها لا تكذيبًا ولا تصديقًا بغية التزام الحياد وعدم الدخول في تفاصيل لا طائل من ورائها.. وإلا لكان القرآن أولى بتوضيحها.. فالعبرة كما أسلفت بعموم اللفظ لا بخصوص المعنى.

(٢) "السبت"أصله: القطع، ويوم سبتهم: يوم انقطاعهم عن العمل ويوم السبت مقرون باليهود وهو مناسب لهم من حيث اسمه ومعناه.

قال تعالى: ﴿... **فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَاسِئِينَ**﴾(البقرة - ٦٥)

وقال تعالى: ﴿.. **مَن لَّعَنَهُ اللّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ**﴾ (المائدة - ٦٠)

وقال تعالى: ﴿**فَلَمَّا عَتَوْاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَاسِئِينَ**﴾ (الأعراف-١٦٦)

لما ظلم المعتدون أنفسهم وعتوا عن ما نهوا عنه وتمردوا على دين الله رافضين الالتزام بشرعه استحقوا عذاب الله واستقدموا نقمته واستعجلوا عقوبته فمسخهم الله إلى قردة وخنازير.

ويرى الدكتور/ الخالدي الحكمة من هذا المسخ إذ يقول:

"لعل الحكمة من هذا المسخ هي أن الله يريد لهم أن يكونوا بشرًا آدميين وأن يعيشوا أناسًا حقيقيين، وأن يمارسوا إنسانيتهم على أحسن ما تكون، ولكنهم عندما تمردوا على أحكام الله رفضوا هذا التكريم الرباني وبذلك تنازلوا عن إنسانيتهم وكرامتهم، فصاروا إلى الصورة الحيوانية المعنوية فمسخهم الله قردة[1] وحولهم إلى حيوانات حقيقية وهذا من باب التناسق بين الصورة المعنوية والصورة الحسية!

إن الله يريد للبشر أن يكونوا بشرًا مكرمين، وأن يعيشوا إنسانيتهم وآدميتهم، وأن يتميزوا على الحيوانات والبهائم فكلفهم بالتكاليف الشرعية وطلب منهم الالتزام بأمانة التكليف[2].

(١) لم يشر دكتور / الخالدي في هذا الموضع إلى مسخهم خنازير برغم أن القرآن الكريم صرح بذلك في الآية ٦٠ المائدة"..من لعنة الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير"

(٢) مع قصص السابقين: دكتور/ صلاح الخالدي، صـ٢٤٨.

هل كان المسخ حقيقيًا؟

بداية.. وبداهة نقول: طالما صرح القرآن الكريم على أن المعتدين في السبت قد مسخوا قردة وخنازير فعلينا في الأصل أن نأخذ الآية على ظاهرها، وألا نعدل عن الظاهر إلا لضرورة ملحة، فلا يوجد ما يمنع من المسخ الحقيقي، إذ لا يستحيل على الله شيء فهو ﷻ فَعَّال لما يريد.

بيد أن المفسرين اختلفوا في حقيقة المسخ هل كان مسخًا حقيقيًا أو معنويًا.

قال مجاهد ﵀ "مسخت قلوبهم، ولم يمسخوا قردة: إنما هو مثل ضربه الله لهم مثلما ضرب مثل الحمار يحمل أسفارًا [١] .

ووصف الدميري تفسير مجاهد أنه قول تفرد به عن جميع الناس مستغربًا ذلك القول.

ولعل القول الفصل، والذي أميل إليه في هذه المسألة ما أورده دكتور الخالدي حيث قال: "ويعجبني تعقيب الإمام الطبري على رأي مجاهد حيث قال مستدركًا عليه: "القول الذي ذكره مجاهد قول لظاهر ما دل عليه القرآن مخالف، وذلك أن الله أخبر في كتابه أنه جعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت ومن أنكر شيئًا من ذلك، وأقر بآخر منه، سُئل البرهان على قوله[٢] .

ولعل هذا الموقف من مجاهد، واستدراك الطبري عليه يدعونا لنقف عند ظاهر النص القرآني لا نتعداه، وأن نفهم من القرآن ما يقرره لنا.

دور القردة والخنازير في القصة:

بالطبع لم يكن لهما دور فاعل في القصة لكن دورهم كوسيلة عقاب لمن خالفوا أوامر الله لهو دور واضح بارز، فهما يوضحان مدى تدني رتبة

(١) تفسير الطبري: جـ ٢، صـ١٧٢.

(٢) مع قصص السابقين: دكتور / الخالدي، صـ٢٥٠.

المخالفين ونزع منزلة الإنسانية عنهم إلى هذه الدرجة الدونية البينة في جعلهم قردة وخنازيرًا.

وللقرد والخنزير دلالة ترتبط ارتباطًا وثيقًا باختصاصهما دون سائر الحيوانات بهذا المسخ.

وكأنهم بهذا المسخ قد نزلوا عن درجة الآدمية درجتين:

الأولى: نزولهم إلى الدرجة الحيوانية مطلقًا.

الثانية: نزولهم من الدرجة الحيوانية عمومًا إلى درجة القرد والخنزير تحديدًا.

القرد:

وصفه القزويني قائلاً: القرد حيوان قبيح مليح ذكي سريع الفهم يتعلم الصنعة، وأهدى ملك النوبة إلى المتوكل قردًا خياطًا وآخر صانعًا، وأهل اليمن يعلمون القرود القيام بحوائجهم حتى إن القصاب والبقال يعلم القرد حفظ الدكان.. فالقرد يحفظ دكانه حتى يعود صاحبه [١].

والقرد حيوان حاد المزاج يتسم بالأنانية الشديدة وبالخيانة والغدر والميل إلى الاستغلال وحب التملق وعدم الوفاء وحب الرشوة كما أنه مضرب المثل في القبح - حتى أن العرب قالوا: "أقبح من قرد"، "لذلك كان المسخ من مرحلة الإنسانية إلى مرحلة القردة يعتبر امتهانًا وإذلالاً وعقابًا من الله تعالى للعصاة من بني إسرائيل"[٢].

الخنزير:

بكسر الخاء وجمعه خنازير، وهو عند أكثر اللغويين رباعي وحكى ابن سيده عن بعضهم أنه مشتق من خزر العين لأنه كذلك ينظر. فهو على هذا

(١) عجائب المخلوقات: لزكريا بن محمد القزويني، مكتبة الإيمان بالمنصورة ط١، ٢٠٠٣، صـ٣١٠.

(٢) من آيات الإعجاز العلمي الحيوان في القرآن الكريم: دكتور/ زغلول البخار، صـ٤٧١.

ثلاثي يقال تخازر الرجل إذا ضيق جفنه ليحدَّ النظر كقولك تعامى وتجاهل، **قال المخبل القيسي (الرجز):**

إذا تَخَازَرتُ ومَا بي مِن خَزَرْ ثُمَ كَسَرْتُ الطَرْفَ مِن غَيرِ عَوَرْ [1]

وكنيته: أبو جهم وأبو زرعة وأبو دلف وأبو عتبة وأبو علية.

وللخنزير شأن وضيع.

فقد ذكر الدميري أن: ابن أبي الدنيا عن سعيد بن عبد العزيز أنه قال: قيل لأبي أسيد الفزاري: من أين تعيش فحمد الله تعالى وكبره وقال: يرزق الله الكلب والخنزير ولا يرزق أبا أسيد؟"[٢] .

كما أنه نجس العين كالكلب يُغسل ما نجس بملاقاة شيء من أجزائه سبعًا إحداهن بالتراب ويحرم أكله لقوله تعالى:

﴿قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَا أُوْحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ.... الآية ﴾ (الأنعام - ١٤٥)

وقد وصفه القزويني بأنه حيوان سمج والعين تكرهه [٣] .

ويستخدم لفظ الخنزير لوصف كل قذر، شره، أناني من البشر وتستعار هذه الكلمة كذلك لوصف كل فرد من بني البشر حقير النفس، بخيل اليد، قذر المظهر والملبس، متصف بالخيانة والجبن والغدر وبغير ذلك من أحقر الصفات.

---

(١) الأغاني: للأصفهاني، جـ ٢١، صـ١٥٩.

(٢) حياة الحيوان الكبرى: للدميري، جـ١، صـ٤٣٤.

(٣) عجائب المخلوقات: للقزويني، صـ٣٠٠.

"لذا كان مسخ العصاة من بني إسرائيل من مستوى الآدمية المكرمة إلى مستوى الخنازير القذرة المهانة عقابًا من الله تعالى لهم استحقوه على فجرهم وانغماسهم في المعاصي، وحربهم للإنسانية بالمؤامرات، والخيانات والغدر عبر التاريخ [1] .

وبذا نكون قد برهننا على اختصاص القرد والخنزير ليكون المسخ إليهما عقابًا شديدًا لمن خالف أوامر الله.. والله تعالى أعلى وأعلم.

الدروس المستفادة من القصة:

١- الأسماك والحيتان التي توجهت لمراودة وإغراء أهل القرية، كانت جنودًا لله، أمرها أن تقترب منهم يوم السبت، وأن تبتعد في باقي الأيام. فالتزمت ونفذت.. في حين خالف بعض الناس أوامر ربهم - وما يعلم جنود ربك إلا هو.

٢- كان مسخ المعتدين من أهل القرية قردة خاسئين وخنازير وكان المسخ حقيقيًا ولم يعيشوا بعدها ولم يتناسلوا. وهذه آية يقدمها الله للعصاة ليتعظوا.

٣- وجوب الوقوف عند ظاهر النص القرآني وعدم مخالفته أو تحريفه، كما في مسخ المعتدين.

٤- الله ﷻ كرم الإنسان لكن إنسانية الإنسان لا تتحقق ولا تكتمل إلا بطاعة الله، وهذا أساس تكريمه عند الله فإذا عصى وبغى وكفر، فقد انحط عن منزلته، وتنازل عن إنسانيته إلى حيوانية ذميمة وصدق فيه وصف الله تعالى أولئك كالأنعام بل هم أضل.

(١) من آيات الإعجاز العلمي الحيوان في القرآن الكريم: دكتور / زغلول النجار، صـ٤٧٢.

حوت يونس عليه السلام

وهو الظهور الثالث للحوت في القرآن الكريم حيث ابتلع الحوت - بأمر الله - سيدنا يونس عليه السلام، وهو يونس بن متى رسول من رسل الله عليهم جميعًا الصلاة والسلام، بعثه الله رسولاً إلى أهل "نينوى" شمال العراق

ذكر الحوت في القرآن الكريم:

ذكر حوت يونس عليه السلام في القرآن الكريم في ثلاثة مواضع قال تعالى: ﴿**فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ**﴾(الصافات - ١٤٢)

وقال تعالى: ﴿**فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ**﴾. (القلم - ٤٨)

وقال تعالى: ﴿**وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ**﴾ (الأنبياء - ٨٧)

وسمي يونس عليه السلام (ذا النون) كما سمي صاحب الحوت لأنه عاش في بطن الحوت فترة وبقي فيه حيًا بإذن الله.

بين الحوت والنون:

أول ما نتوقف عنده أن القرآن الكريم عبر عن الحوت وهو هنا ليس كالحوت الذي نسيه موسى وصاحبه في سورة الكهف أو حيتان أصحاب السبت فهو هنا المقصود به ذلك الحيوان البحري الضخم -

فقد عبر عنه القرآن باسم "النون"، والنون هو الحوت، ويجمع حوت على حيتان وأحوات ويجمع النون على نينان وأنوان - فهما متماثلان وزنًا ومعنى، ويعضد ذلك قول النبي ﷺ: "فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم" ثم تلا هذه الآية "إنما يخشى الله من عبادة العلماء" إن الله وملائكته وأهل سمائه

وأرضه والنون في البحر يصلون على الذين يعلمون الناس الخير"[1] صدق رسول الله ﷺ

دور الحوت في القصة:

كان الله رحيمًا بيونس عليه السلام، حتى في ابتلائه، وهو يريد أن يبتليه لا أن يقضي عليه. ولهذا يسر له أسباب النجاة بحكمته عندما ألقي من السفينة فما وصل الماء حتى كان الحوت ينتظره بأمر من الله تعالى ليكون أمانًا له.

ونلحظ في التعبير القرآني عن الحادثة سرعة وتتابع لقطاتها قال تعالى: ﴿**إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (١٤٠) فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنْ الْمُدْحَضِينَ (١٤١) فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ (١٤٢)**﴾. (الصافات ١٤٠- ١٤٢)

فالأفعال معطوفة بحرف العطف الفاء: "فساهم.. فكان.. فالتقمه" والذي يدل على الترتيب مع التعقيب مع السرعة، فاللقطات متتابعة سريعة؛ إذ بمجرد ركوبه السفينة كانت القرعة والمساهمة وبمجرد إجراء القرعة وخروج سهمه ألقى بنفسه في الماء وبمجرد أن ألقى نفسه التقمه الحوت.

وهذا من حكمة الله ولطيف تدبيره، فقد أمر الحوت أن يتوجه إلى ذلك المكان، وأن يفتح فمه، ويلتقمه بمجرد وصوله للماء وقبل أن يصل إليه حوت آخر لا يعرف من هو فيجعله وجبة غذائية له.

فالحوت هنا آية من آيات الله، وجندي من جنود الله ينفذ أوامره، فقد أُمر أن يلتقمه ونُهي عن مضغه أو خدشه أو جرحه فلا يهشم له لحمًا ولا يكسر له عظمًا.

ونلحظ هنا دقة التعبير القرآني في تعبيره عن ابتلاع الحوت ليونس بالفعل "التقم" فهو فعل مقصود له دلالته.

(١) سنن الدارمي: للإمام الحافظ عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي السمرقندي "١٨١-٢٥٠هـ)، تحقيق فواز أحمد، وخالد السبع، دار الريان للتراث القاهرة، ط١٩٨٧،١ كتاب: المقدمة، باب: من قال العلم الخشية وتقوى الله، جـ١، صـ١٠٠، رقم ٢٨٩.

يقال: لقم الشيء، يلقمه إذا أكله بسرعة، **والتقم الشيء:** يلقمه إذا ابتلعه [١] فأمر الله الحوت أن يلتقم يونس التقامًا، وأن يبتلعه ابتلاعًا فنفذ أمر الله، ولذلك لم يُطبق عليه فكيه، ولم يغرز فيه أنيابه، ولم يمضغه بفمه ولم يكن فمه إلا طريقًا يمر به يونس ليستقر في بطن الحوت، وثمة معجزة أخرى ينبهنا إليها دكتور الخالدي فيقول: "هناك معجزة أخرى حيث أمر الله الجهاز الهضمي للحوت ألا يهضم يونس، وألا يفرز العصارات الهاضمة عليه. فهذا الوافد إلى المعدة ليس وجبهة غذائية، وهو لا يصلح للهضم، وما هو إلا مقيم في المعدة إقامة يسيرة مؤقتة ليغادرها بعد ذلك.. وهذه المعدة أشبه ما تكون بقارب إنقاذ لإنقاذه ولا يجوز لها أن تهضمه، وتلقت معدة الحوت أمر الله راضية ونفذته فلم تفرز على يونس عصارتها الهاضمة وبقي يونس حيًا فيها [٢] .

واللطيف أن القرآن الكريم اعتبر أن العلاقة بين يونس والحوت علاقة صحبة (ذا النون - صاحب الحوت)، فكأن الحوت عندما ابتلع يونس عليه السلام كان صاحبًا له مساعدًا له، ابتلعه لحرصه وإشفاقه عليه خشية أن تاكله باقي الحيتان والأسماك فأنقذه منهم بابتلاعه بغية حمايته لا أكله وبذا صارت بينهما صحبة.. والله أعلم.

وقد اختلف المفسرون في مقدار ما لبث يونس في بطن الحوت فقيل ثلاثة أيام.. قاله قتادة، وقيل: سبعة، قاله جعفر الصادق.

ويقال: أربعين يومًا.. قاله أبو مالك، وقال مجاهد عن الشعبي: التقمه ضحى ولفظه عشية.. والله تعالى أعلم بمقدار ذلك.

---

(١) انظر: مادة "لقم "في لسان العرب، مختار الصحاح

(٢) القصص القرآني: دكتور/ الخالدى جـ٤، صـ٥١

كلب أصحاب الكهف

عرض القرآن الكريم قصة أصحاب الكهف كاملة في السورة المسماة بنفس الاسم وهي سورة الكهف.

ملخص القصة:

كان أصحاب الكهف مجموعة من الفتية المؤمنين بالله، الله أعلم بعددهم (قل ربي أعلم بعدتهم) ولم يصرح القرآن بأسمائهم أو أعمالهم أو المدينة التي كانوا فيها، أو الملك الذي كانوا في عهده، أو الدين الذي كانوا عليه، أو الكهف الذي أوَوا إليه، وإن كانت الأقاويل والروايات والأخبار الإسرائيلية التي أوردها المؤرخون والمفسرون تذكر تفاصيل ودقائق تجل عن الحصر.

ولما عرف هؤلاء القوم أن قومهم كافرون، وأن كفرهم هذا أوجد عندهم الظلم والكذب والافتراء فكروا في الهروب بتوحيدهم والفرار بدينهم ووجدوا ضالتهم في العزلة فقرروا اعتزال الناس.

فخرجوا إلى كهف في الجبل داعين الله أن ينشر عليهم بساط رحمته وحفظه. فاستجاب الله لهم، وهيأ لهم كل أسباب الحفظ والرعاية، سخر لهم الآيات، فأمر الشمس ألا تمس أجسادهم حتى لا تؤذيها.

ومن آياته عليهم أيضًا أن عيونهم كانت مفتوحة فكان الناظر إليهم يحسبهم أيقاظًا، ذكر أهل العلم أنهم لما ضرب على آذانهم بالنوم لم تنطبق أعينهم لئلا يسرع إليها البلى فبقاؤها للهواء أبقى لها[1].

كما أن الله تعالى كان يقلبهم مرة عن اليمين ومرة عن الشمال حتى لا تأكل الأرض أجسامهم.

(١) تفسير ابن كثير: تحقيق سامي بن محمد سلامة جـ٥، صـ١٤٣.

وكان معهم كلبهم الذي صحبهم حيث جلس على عتبة باب الكهف وبسط ذراعيه ونام مثل نومتهم.

وحتى لا يعتدى أحد عليهم وهم نائمون قذف الله في قلب كل من ينظر إليهم الرعب بحيث لو اطلع عليهم لولى منهم فرارًا ولملئ منهم رعبًا.

ونامـوا نومتهم الطويلة، حيث بقوا على هذه الصورة ثلاثمائة وتسع سنوات وبعد هذه المدة بعثهم الله من نومهم فصاروا يتساءلون عن مدة نومهم واختلفوا في تقديرها فقال بعضهم: نمتم يومًا أو بعض يوم! لكنهم في النهاية فوضوا تحديد هذه المدة إلى الله فقالوا: ربكم أعلم بما لبثتم.

العرض القرآني للقصة:

شملته آيات سورة الكهف بدءًا من الآية التاسعة حتى الآية السادسة والعشرين أما مواضع ذكر كلبهم فقد جاء في الآيات التالية:

قال تعالى: ﴿**وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا**﴾ (الكهف - ١٨)

وقال تعالى: ﴿**سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاء ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا**﴾ (الكهف - ٢٢)

دور الكلب في القصة:

يظهر في هذه القصة من عالم الحيوان "كلبهم" حيث تكرر ذكر هذه اللفظة أربع مرات ونلحظ أنها مضاف إليها الضمير "هم" العائد إليهم، والتزام القرآن بهذه الإضافة يومئ إلى أن هذا الحيوان شخص من شخوص هذه القصة بجانب أصحاب الكهف.

ولم تقدمه القصة إلا بالقدر الذي يناسب دوره فيها، لذا تعرفنا به من خلال جنسه وهيئته ومكانه "وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ".

فجنسه: كلب، **هيئته**: باسط ذراعيه، **مكانه**: الوصيد "عتبة الباب"[١]

فهذه المُعَرَّفات الثلاثة هي كل دوره الذي يؤديه في القصة فدوره في القصة محدود بإبهام الناظر إليهم أنه أمام جماعة من الأحياء نائمة.

وكما لم يذكر القرآن أسماء أصحاب الكهف لم يذكر كذلك اسم كلبهم.

وكان الكلب هنا جنديًا من جنود الله، إذ رافق أهل الكهف وصحبهم ولما دخلوا الكهف وقف على عتبة الباب يحرسهم وبسط ذراعيه بالوصيد، ونام نومتهم.

بركة أصحاب الكهف تنال كلبهم

قال الإمام ابن كثير: "وشملت كلبهم بركتهم، فأصابهم من النوم على تلك الحالة. وهذه فائدة صحبة الأخيار، فإنه صار لهذا الكلب ذكر وخبر وشأن[٢].

وقال الإمام القرطبي: "إذا كان بعض الكلاب قد نال هذه الدرجة العليا، بصحبته ومخالطته الصلحاء والأولياء، حتى أخبر الله تعالى بذلك في كتابه، فما ظنك بالموحدين المؤمنين المخالطين المحبين للأولياء والصالحين، بل في هذا تسلية وأنس للمؤمنين المقصرين عن درجات الكمال، المحبين للنبي ﷺ..."[٣].

---

(١) ليس للكهوف أبواب حتى يكون لها أعتاب ولكن المقصود أن الكلب جلس في موضع العتبة من الباب.

(٢) تفسير ابن كثير: جـ٥، صـ١٤٤.

(٣) تفسير القرطبي: جـ١٠، صـ٣٧١ - ٣٧٢.

أما لماذا شمل التقليب أصحاب الكهف ولم يشمل كلبهم فيقول الإمام السهيلي "إن التقليب كان من فعل الملائكة بهم، والملائكة أولياء المؤمنين في الحياة الدنيا وفي الآخرة، والكلب خارج من هذه الآية.. ألا تراه قال: بالوصيد: أي بفناء الغار، لا داخلاً معهم، لأن الملائكة لا تدخل بيتًا فيه كلب"[1].

وأخيرًا: يتضح أن كلب أهل الكهف قد جاء في مقام الصحبة لأولياء الله الصالحين فتم التناسب والتناسق بين قصة هؤلاء الأولياء، واختيار الله ﷻ أن يتبعهم هذا الحيوان بالذات ليقوم بالدور الذي يؤديه في أحداث القصة فإن له خصالاً تتناسب وتتناسق مع مقامات السالكين إلى الله ﷻ، حصرها دكتور/ المحص في لفتة صوفية فقال:

١- الأمانة والطاعة التامة لأوامر صاحبه.. وهذا يذكر بمقام المؤمنين.

٢- ليس له مكان ينام فيه، وإنما يرضى بالنوم في أي مكان.. وهذا يذكر بمقام المتواضعين.

٣- يرضى بأية لقمة تقدم إليه، لا يعنيه نوعها ولا كمها، وهذا يذكر بمقام الزاهدين.

٤- يحب صاحبه حبًا شديدًا ويتعلق به فإذا ما رآه من بعيد أتى إليه مسرعًا فرحًا وهذا يذكر بمقام المحبين العاشقين.

٥- كثيرًا ما يلتفت يمينًا ويسارًا، وكأنما يخشى شيئًا وهذا يذكر بمقام الخائفين الراجين.

٦- إذا طرده صاحبه سار، ولم يحمل معه شيئًا.. وهذا يذكر بمقام المتجردين.

(١) الروض الأنف في شرح سيرة ابن هشام: للسهيلي تحقيق عبد الرحمن الوكيل، دار الكتب العربية، القاهرة ط٣، ١٩٧٨، صـ١٦٦، صـ١٦٧.

٧- الولاء التام، والوفاء المستوفي لصاحبه.. وهذا يذكر بمقام المخلصين.

٨- مهما أنزل صاحبه به من عقاب وطرد، ثم أشار إليه فإنه يقبل عليه مسرعًا مسرورًا لا يحمل له حقدًا ولا ضغينة.. وهذا يذكر بمقام المحسنين.

٩- إذا قدم له صاحبه الطعام والشراب، فإنه يرفع رأسه، ويحرك ذيله، وكأنه يعبر بذلك عن شكره لصاحبه.. وهذا يذكر بمقام الشاكرين [١] .

وادي النمل الذي مر به سليمان

وصل جيش سليمان والمكون من الإنس والجن والطير إلى وادي النمل.

قال تعالى: ﴿**حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِي النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١٨) فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ(١٩)**﴾(النمل ١٨ -١٩)

ووادي النمل.. اختلف فيه المفسرون.. حيث قال صاحب الكشاف: هو واد بالشام كثير النمل [٢] .

وقال صاحب التحرير والتنوير: "يجوز أن يكون مرادًا به الجنس لأن للنمل شقوقًا ومسالك هي بالنسبة إليها كالأودية للساكنين من الناس"[٣] .

ولم يرد تبيينه في القرآن أو السنة فلا يضرنا الجهل بموقعه الجغرافي وحرف الجر "على" هنا ربما كان المقصود به أنهم جاءوا إليه من فوق فهو هنا حرف استعلاء

(١) أدب القصة في القرآن الكريم: دكتور / عبد الجواد محمد المحص، صـ٢١٤

(٢) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: أبو القاسم جار الله بن عمر الزمخشري الخوارزمي "٤٦٧-٥٣٨هـ" تحقيق يوسف الحمادي، مكتبة مصر، ط١، جـ٣، صـ٣٩٨

(٣) تفسير التحرير والتنوير: للطاهر بن عاشور، جـ١٠، صـ٢٦٠

أو ربما قصد به قطع الوادي وبلوغ آخره[١] والاحتمالان جائزان. والله أعلم.

وبينما كان الجنود المنظمون يسيرون في الوادي شاهدتهم نملة من النمل وخشيت على أمتها الهلاك فحذرتهم قائلة: ادخلوا مساكنكم حتى لا يحطمكم سليمان وجنوده فسمعها سليمان، وقيل سمعها من على بعد ثلاثة أميال. فتبسم ضاحكًا من قولها ودعا ربه أن يعينه على شكر نعمائه.

دور النملة في القصة:

كانت هذه النملة ناصحة لأمتها.. تريد لهم الخير والأمن.. وتخشى عليهم الإيذاء مع اعتذارها عن سليمان وجنوده.. رغم أنهم يمثلون بالنسبة لهم مصدر التهديد.

وكانت هذه النملة حكيمة في نصحها لأمتها وفي اعتذارها عن سليمان وجنوده وقد رصد لها الزركشي في كتابه "البرهان في علوم القرآن" أحد عشر جنسًا من الكلام في قولها:

﴿**يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ**﴾.

إذ يقول: "إنها جمعت في عبارتها الموجزة أحد عشر جنسًا من الكلام نادت، وكَنَّت، ونبهت، وسمت، وأمرت، ونصت، وحذرت، وخصصت، وعممت، وأشارت، وعذرت، **فالنداء**: يا، **والكناية**: أي، **والتنبيه**: ها، **والتسمية**: النمل، **والأمر**: ادخلوا، **والنص**: مساكنكم، **والتحذير**: لا يحطمنكم، **والتخصيص**: سليمان **والتعميم**: وجنوده، **والإشارة**: وهم، **والعذر**: لا يشعرون[٢].

وبرغم أن النمل والهدهد قد ذكرا معًا في سورة واحدة. فلقد أراد الله ﷻ ألا تسمى هذه السورة باسم الهدهد، وإنما سميت سورة "النمل" لما لقصة سيدنا

(١) الكشاف: للزمخشري جـ٣، صـ٣٩٩

(٢) البرهان في علوم القرآن: للإمام بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم دار إحياء التراث العربي، عيسى البابي الحلبي، ط١، ١٩٥٧، جـ٣، صـ٢٢٧.

سليمان مع النملة من أهمية قصوى في تبيان مدى ملكه وتعليمه منطق الطير والحيوان والحشرات.. والله أعلم.

دروس مستفادة:

١- عللت النملة الحكيمة طلبها من النمل بأن يدخلوا مساكنهم بأنها فعلت ذلك حماية للنمل من الهلاك.

٢- لم ترد النملة أن تسيء أمتها من النمل الظن بسليمان وجنوده فاستدركت قائلة: "وهم لا يشعرون" بما يدل على حرص هذه النملة الذكية على الاعتذار.

٣- إذا كان حرص النملة الصغيرة الضعيفة على أمتها كبيرًا لهذه الدرجة فالأولى أن يتصف البشر بهذا الحرص والخوف على بعضهم البعض.

٤- اشتملت القصة على معجزتين خارقتين.

الأولى: إدراك سليمان لتحذير النملة لقومها وهي من النعم التي اختص الله بها سليمان.

الثانية: معرفة النملة أن هذا سليمان وهؤلاء جنوده فقد حددتهم وسمتهم، وهو أمر معجز حقًا.

٥- لئن شكرتم لأزيدنكم - فسليمان عليه السلام لم يغتر بما ميزه الله به بل إنه تبسم ضاحكًا وشكر الله وحمده وطلب منه أن يوفقه إلى العمل الصالح الذي يرضيه وأن يدخله برحمته في عباده الصالحين.

هدهد سليمان

كما ظهر الغراب في قصة ابني آدم في موقع "الغربة والغرابة" ظهر الهدهد في قصة سليمان عليه السلام مع ملكة سبأ في موقع "الهدى والهداية".

فالهدهد من جنس الطير - وقد مر بنا أن الطير من جند سليمان، وكما أن للطيور في جيش سليمان دورًا عامًا هو السير معه لتظله بأجنحتها وتوجيه الأخبار وتلقيها، فإن لكل طائر وظيفة خاصة.. ولو رحنا نتابع كتب التفسير لوجدناها قد أجمعت على أن وظيفة الهدهد أنه كان يدل سليمان على الماء، فالهدهد كان يرى باطن الأرض وظاهرها.

فدور الهدهد بداية هو الهداية.. فمهمته أن يهدي إلى مكان الماء.. ولكن في القصة كان له دور آخر يرتبط بالهداية والدعوة إلى عبادة الواحد الأحد.

العرض القرآني للقصة:

قال تعالى: ﴿**وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ(٢٠) لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ(٢١) فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ(٢٢) إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (٢٣) وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ (٢٤) أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (٢٥) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ(٢٦) قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ(٢٧) اذْهَب بِّكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ (٢٨)**﴾. (النمل ٢٠-٢٨)

دور الهدهد في القصة:

برغم تأكيد المفسرين على وظيفة الهدهد في جيش سليمان وهي: مهندس المياه - إن جاز التعبير - الذي يرشد إلى مكان الماء وبعده أو قربه من سطح الأرض، فإن هذا الدور الأصيل والأساسي للهدهد لم يظهر في القصة.

لكن كان له دور أكبر وأهم فقد كان سببًا في هداية ملكة سبأ وقومها.

وكان أول ظهور للهدهد في هذه القصة.. تغيبه عن صفوف الجيش وإدراك سليمان لهذا التغيب ﴿**فقال مالي لا أرى الهدهد**﴾أي لماذا لا أرى الهدهد في موقعه.. فربما كان الهدهد موجودًا لكن عيني أخطأته ﴿**أم كان من الغائبين**﴾ حرف أم هنا بمعنى بل وتسمى أم المنقطعة، وتدل على إلغاء الكلام السابق عليها، والتقدير: بل كان من الغائبين فقد سأل عن الهدهد فلما أدرك أنه غاب دون إذن منه ألقى سؤاله وقرر أنه غائب فقال: إنه من الغائبين.

ثم يتوعد سليمان عليه السلام بعقابه عقابًا شديدًا إما بتعذيبه وقيل عذابه: نتف ريشه أو تشميسه مع الإبقاء عليه حيًا، وقيل عذابه أي أن يلقى للنمل تأكله، وقيل أن يطلى بالقطران ويشمس، وقيل التفريق بينه وبين إلفه، وقيل إيداعه القفص[1] أو بذبحه، ويظهر هنا الحزم جليًا مع أي مخطئ، ويدلنا على ذلك استخدام لام القسم ونون التوكيد والمفعول المطلق المبين للنوع ﴿**لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ**﴾، ولكن هذا الحسم لم يمنع سيدنا سليمان عليه السلام من الرحمة والعدل، فقد استثنى من حكمه هذا أن يأتي الهدهد بسبب واضح لتغيبه بقوله: ﴿**أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ**﴾.

﴿**فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ**﴾، قال البعض: فمكث سليمان غير طويل من حين سأل عن الهدهد حتى جاء الهدهد[2]، وقال آخرون: مكث غير بعيد الهدهد [3] ولا أرى اختلافًا كبيرًا فالقولان يؤديان إلى قصرَ فترة تغيب الهدهد.

فما رد فعل الهدهد؟ إنه رد فعل عجيب ومفاجئ لسيدنا سليمان إذ فاجأه بقوله: ﴿**أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ**﴾يا لجرأة هذا الهدهد العجيب.. سليمان الذي دعا ربه قائلاً: ﴿**قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ**

(١) تفسير الكشاف: للزمخشري، جـ٣، صـ٤٠١.

(٢) تفسير الطبري: جـ١٩، صـ٤٤٠.

(٣) تفسير القرطبي "الجامع لأحكام القرآن": أبو عبد الله بن أحمد الأنصاري القرطبي "٦٠٠-٦٧١هـ" دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، طـ١٩٨٥،١، جـ١٣، صـ١٧٧.

بَعْـدِي إِنَّـكَ أَنـتَ الْوَهَّـابُ﴾. (ص - ٣٥)

فسخر لـه الريح والجن والطير، وعلمه منطق الطير، وفهمه الحكمة.. يقال لـه هـذا؟ ومِنَ هـذا الهدهـد الصغير الضعيف؟ ومتى؟ وهو في موقف الضعف؟ فقد غاب عن الجيش دون إذن وهو يعلم حزم سليمان، ولعله سمع بتوعده إياه بالعذاب أو بالذبح وبرغم كل هذا دخل عليه بعزة، وشجاعة، وجرأة.

وفي قول الهدهد ﴿**أحطت بما لم تحط به**﴾ صبغ بديعي مصطنع يقوم على المقابلة بين إثبات الإحاطة بالعلم للهدهد، ونفيها عن سليمان.

وفي هذه المقابلة مفاجأة لسليمان ذلك الملك الغاضب لغياب أحد رعيته دون إذنه فجذبت انتباهه فأصاخ سمعه لما يقوله الهدهد وهي كذلك تشد متلقي البيان القرآني تجاه مواقف وتتابع أحداث القصة.

ويمضي الهدهد قائلا: عبارة من بديع الكلام إذ يقول:

﴿**جِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ**﴾

ثم يقدم الهدهد تقريره إلى سليمان: ﴿**إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ**﴾ ولم يذكر القرآن اسمها وكذلك لم يرد اسمها في السنة، وقال المفسرون: إنها بلقيس بنت شراحيل "تملكهم" أي كانت ملكة عليهم لأنها ورثت أرض سبأ عن أبيها الذي ملك أرض اليمن كلها كما جاء في كتب التفسير.

ونلحظ تنكير كلمة "امرأة"، يقول صاحب التحرير والتنوير: تنكير امرأة وهو مفعول أول ل- "وجدت" له حكم المبتدأ فهو كالابتداء بالنكرة إذا أريد بالنكرة التعجب من جنسها كقولهم: بقرة تكلمت، لأن المراد حكاية أمر عجيب عندهم أن تكون امرأة ملكة على قوم ولذلك لم يقل: وجدتهم تملكهم امرأة[1].

(١) تفسير التحرير والتنوير: للطاهر بن عاشور، جـ١٩، صـ٢٥٢.

"أوتيت من كل شيء" وفيه كناية عن عظمة ملكها وثرائها وتوفر أسباب الحضارة والقوة والمتاع.

كما تدل على أن الهدهد قد أمعن النظر في أحوال الملكة فوجد عندها الكثير من مظاهر الملك والغِنى والسلطان والمتاع الدنيوي "ولها عرش عظيم" يخبر الهدهد عن عظم عرشها.

وبعدما لخص الهدهد واقع المملكة بحكمة، مملكة تملكها امرأة قوية غنية لها عرش عظيم انتقل للحديث عن دين سكانها إذ قال "وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله".

ما أروع هذا الهدهد العجيب في استنكاره سجود القوم للشمس من دون الله، وما أروع تعليله لضلالهم بأن الشيطان زين لهم أعمالهم فأضلهم فهم لا يهتدون إلى عبادة الله العليم الخبير.

فلم يكن الهدهد مجرد جامع معلومات دقيقة ومقدم تقارير صحيحة - رغم أهمية ذلك - إلا أنه كان صاحب رأي وفكر، وموقف وقرار، ودعوة وقضية، لذلك شفع تقريره بتعليقه وتعقيبه على الحادثة وسجل تفاعله وتأثره بما رأى، وغيرته على الحق الذي تركوه وإنكاره للباطل الذي اتبعوه فقال: "وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون".

ويكون الهدهد بذلك قد قدم تقريرًا وافيًا عن سبأ متمثلاً في: **الأرض**: "سبأ"، و**الحاكم**: "امرأة"، **والشعب**: المشار إليه بالضمير "هم" في تملكهم، و**المُلك**: "أوتيت من كل شيء"، **والعرش** "ولها عرش عظيم"، **والديانة**: وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله".

ثم يتابع الهدهد تعقيبه العقدي عن الحادثة مبينًا أن الأصل لقوم سبأ أن يسجدوا لله لا للشمس "ألا يسجدوا لله الذي يخرج الخبء في السماوات والأرض ويعلم ما تخفون وما تعلنون".

يخرج الخبء: قال ابن عباس: يعلم كل خبيئة في السماوات والأرض، وقال سعيد بن المسيب: الخبء: الماء.

وقال عبد الرحمن بن زيد: **خبء السماوات والأرض**: ما جعل فيهما من أرزاق، المطر من السماء، النبات من الأرض وهذا مناسب من كلام الهدهد الذي جعل الله فيه من الخاصية ما ذكره ابن عباس وغيره أنه يرى الماء يجري في تخوم الأرض وداخلها [١].

لكن لماذا اختار الهدهد من بين صفات الله ﷻ وقدرته الظاهرة في كل شيء هذه الصفة "يخرج الخبء في السماوات والأرض"؟

ونظفر بالإجابة عند شيخنا الإمام محمد متولي الشعراوي - ﵀ - إذ يقول: "لأن هذا رزق الهدهد، لا يأكل مما هو موجود على سطح الأرض أبدًا ولكن بمنقاره الطويل يضرب في الأرض ليحضر الدودة، أو ما شاء الله له من رزق، من أين علم مكان الدودة وهي مختبئة تحت سطح الأرض؟ هداه الله ﷻ إلى مكانها بالغريزة [٢].

كما هداه الله للفطرة السليمة في العبارة وأن هؤلاء القوم أضلهم الشيطان فجعلهم يسجدون للشمس من دون الرحمن.

﴿**وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ**﴾ وهو دليل على وحدانية الله، فالله وحده يعلم ما يخفيه الناس وما يعلنونه.

وكما ذكر الهدهد عرش ملكة سبأ العظيم ناسب أن يذكر عرش الله العظيم: ﴿**رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ**﴾. فأين عرش ملكة سبأ الذي تحويه غرفة صغيرة من عرش الله الذي لا يعلم صفاته إلا الله؟ وأين عظمة عرشها الصغير

(١) تفسير ابن كثير: جـ٦، صـ١٨٧.

(٢) قصص الحيوان في القرآن: للشيخ / محمد متولي الشعراوي طبعة أخبار اليوم، صـ١٤٦.

مـن عظمـة عـرش الله [١] .. ولا مجـال للمقارنـة بـين العرشـين.

ولأن سـليمان نبـي والأنبيـاء جميعهـم يتصفـون بالعـدل والحكمـة.. لم يسـارع إلى تصديقـه وقبـول أخبـاره، ولا تكذيبـه ورفـض أخبـاره: قـال تعـالى "قـال سـننظر أصدقـت أم كنـت مـن الكاذبـين".

فالتثبت في مثل هذه الأخبار - وغيرها ضرورة..

وهنـا يـأتي المشـهد الأخـير للهدهـد في القصـة إذ يُكَلَّـف بمهمـة دعويـة في سـبأ.. إذ يحمـل إليهـم رسـالة سـليمان التـي يدعوهـم فيهـا إلى الإيـمان.. فوظيفتـه تبليغهـم هـذه الدعـوى.. قـال تعـالى: ﴿**اذْهَـب بِّكِتَابِـي هَـذَا فَأَلْقِـهْ إِلَيْهِـمْ ثُـمَّ تَـوَلَّ عَنْهُـمْ فَانظُـرْ مَـاذَا يَرْجِعُـونَ**﴾

وتكليـف سـليمان ﷺ للهدهـد واضـح، والخطـوات المطلوبـة منـه بينـة، فقـد أمـره بأربعـة أوامـر.

الأول: **"اذهـب بكتـابي هـذا"**: أمـره بحمـل كتابـه الموجـه إلى سـبأ والتوجـه مـن فلسـطين إلى اليمـن.

الثـاني: **"فألقـه إليهـم"**: عندمـا يصـل إلى سـبأ عليـه التوجـه إلى قـصر الملكـة، وأن يلقـي الكتـاب إليها.

الثالـث: **ثـم تـولَّ عنهـم**: أمـره بـأن يبتعـد عنهـم قليـلاً بحيـث يـرى أثـر الكتاب على الملكـة ومستشـاريها.

الرابـع: **"فانظـر مـاذا يرجعـون"**: أمـره أن يحسـن مراقبـة الأمـر وتسلسـل الأحـداث، ومعرفـة أثـر الكتـاب فيهـم، ومعرفـة جوابهـم وردهـم عليـه.

وهـذه الأوامـر الأربعـة - كـما يقـول دكتـور/ الخالـدي توحـي بالمهمـة الدعويـة الموكلـة للهدهـد.. فهـو مأمـور بالتـصرف في هـذه المهمـة بمنتهـى الموضوعيـة،

(١) القصص القرآني: دكتور / الخالدي، جـ٣، صـ٥٣٤.

وكأنه إنسان عاقل واع حكيم.. وهذا يشير إلى أن الأمر معجزة من الله كما أن أداء الهدهد لهذه المهمة، وتنفيذه لهذه الأوامر الأربعة معجزة من الله ﷻ"[1].

ونلحظ أن الهدهد حرص على تنفيذ مهمته دون أن يراه أحد بدليل قول ملكة سبأ عن الكتاب أنه "أُلقي إلي" بصيغة المجهول.

وهنا ينتهي دور الهدهد في القصة بعدما قام فيها بعده مهام:

١- مهمة الجندي المطيع الغيور على دينه المنكر لأفعال الكفار.

٢- المراقب شديد الملاحظة الذي يهتم بكل التفصيلات.

٣- جامع الأخبار الصحيحة الذي يضع تعليقاته المبنية على أسس دينية؛ فقد أرجع سبب عبادة القوم للشيطان الذي أضلهم.

٤- وأخيرًا: الداعية الذي يدعو الناس للخير والرشاد.

دروس مستفادة من قصة هدهد سليمان:

١- قَسَّم الله العلم على أجناس كثيرة من خلقه.

٢- فوق كل ذي علم عليم.. فلا يفخر إنسان بما آتاه الله من علم.. على إنسان بل ولا على حيوان.

٣- عرش سليمان ليس هو العرش الوحيد.. وملك سليمان لم يكن هو الملك الوحيد في عصره.. بل هناك امرأة تملك قومًا وأوتيت من كل شيء كما قال سليمان عليه السلام ﴿**وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ**﴾.

٤- علم الهدهد بفطرته التي فطره الله عليها أن السجود لغير الله كفر وأن الشيطان هو الذي أضل القوم وصرفهم عن عبادة الله.. في حين أن الإنسان الكافر يجهل ذلك ويظن أنه على حق.

(١) القصص القرآني: دكتور / صلاح الخالدي، جـ٣، صـ٥٣٦ - ٥٣٧.

٥- الدعوى إلى الإيمان لا يحدها مكان.

٦- كان الهدهد هنا جنديًا من جنود الله فرغم صغر حجمه كان سببًا في هداية قوم بأكملهم.

نقلهم من الشرك والسجود للشمس واتباع الشيطان إلى التوحيد والإيمان بالله الواحد الديَّان. قال رسول الله ﷺ: "**.. لأن يهدي الله بك رجلاً واحدًا خير لك من أن يكون لك حُمْرُ النَّعَمْ** "[1] صدق رسول الله ﷺ فهنيئًا لهذا الهدهد الذي كان سببًا في هداية رجالاً كثيرًا ونساءً فلا غرو إذن إذا علمنا أن رسول الله ﷺ - قد نهي عن قتل هذا الطائر، كما رواه أحمد وأبو داود وابن ماجة عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: "نهي النبي ﷺ عن قتل الصرد والضفدع والنملة والهدهد"[2].

حمار الذي مر على قرية

قضية الإحياء والبعث بعد الموت شغلت الكثير من الناس على مختلف العصور، وتحدث القرآن الكريم عنها في غير مرة، وعرضت لها السنة المطهرة كثيرًا ولو رحنا نتتبع الآيات الدالة على البعث في القرآن الكريم ما وسعنا المجال.

العرض القرآني للقصة:

قال تعالى: ﴿**أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِئَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ**

(١) صحيح البخاري: كتاب: الجهاد والسير، باب: دعاء النبي ﷺ الناس إلى الإسلام، جـ٢ صـ٢٤٧، رقم ٢٩٤٢.

(٢) سنن ابن ماجه: للحافظ أبي عبد الله محمد بن يزيد القزويني ابن ماجه "٢٠٧ -٢٧٥هـ"، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، مطبعة دار إحياء الكتب العربية البابي الحلبي، كتاب: الصيد، باب: ما ينهى عن قتله، جـ٢ صـ١٠٧٤ - رقم ٣٢٢٣.

إِلَى العِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. (البقرة - ٢٥٩)

ملخص القصة:

تتحدث هذه الآية عن قصة الرجل الذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها فتساءل متعجبًا: كيف يحيي هذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عام ثم بعثه بعد ذلك فسأله كم لبثت - والميت يفقد الزمن - فقال الرجل لبثت يومًا أو أقل من يوم فأخبره الله بأنه لبث مائة عام، وأمره بأن ينظر إلى طعامه وشرابه فيجده لم يتغير. كما أمره بالنظر إلى حماره الذي بلى ليرى كيف ينشز الله العظام ثم يكسوها لحمًا. فلما تبين ذلك للرجل الصالح أقر بمعرفة أن الله على كل شيء قدير.

وأول ما نلحظه هنا ولا يجب إغفاله هو السياق، فسياق الآية جاء في معرض الحديث عن الموت والحياة؛ فالآية السابقة تتحدث عن الذي حاج إبراهيم في ربه في قضية الموت والحياة، وظن الرجل أنه يستطيع أن يحيي ويميت وكذب.. فبهته إبراهيم بحجة أخرى وتحداه أن يأتي بالشمس من المغرب، أما الآية التالية. والتي سنتوقف عندها في حينها - فتتحدث عن طلب إبراهيم لرؤية إحياء الموتى لا على سبيل الشك، بل على سبيل الاطمئنان ومشاهدة التجربة العملية.

وهذه الآيات الثلاث تتناول موضوعًا واحدًا في جملته: سر الحياة والموت، وحقيقة الحياة والموت وهي بهذا تؤلف جانبًا من جوانب التصور الإسلامي يضاف إلى القواعد التي قررتها الآيات السابقة.

"أنى يحيي هذه الله بعد موتها": فهل القائل هنا منكر لقدرة الله شاكٌ فيها؟ بعض المفسرين على أنه كذلك.

أما جمهور المفسرين على أنه رجل مؤمن صالح مؤمن بقدرة الله المطلقة لكن السؤال كان سببه المفاجأة وهولها، فهو يقف أمام قرية خربة خاوية على عروشها كيف يحييها الله.

وإن كانت "أنَّى" للاستفهام، وهل للاستفهام، فإن ثمة فارقًا دلاليًا بينهما فالسائل بـ"هل" يكون شاكًا في قدرة وقوة صاحبه عن فعل الشيء أما السائل بـ"أنَّى" فهو سائل عن الكيفية.. فيكون بذلك سؤاله كسؤال إبراهيم.. والله أعلم.

دور الحمار في هذه القصة:

للحمار ممثل العنصر الحيواني في هذه القصة دور بارز، فقد اشتملت القصة على أربعة عناصر؛ الإنسان متمثلاً في ذلك الرجل، والنبات متمثلاً في الطعام، وقيل إن الطعام كان عنبًا وتينًا، والشراب، والحيوان متمثلاً في ذلك الحمار والذي ظهر في هذه القصة مضافًا إليه الضمير العائد على بطل هذه القصة.

فالقصة دليل على ثبوت حقيقة البعث وقدرة الإحياء بعد الإماتة، وتقدم القصة الحمار بالقدر الذي يشارك في الإيحاء بالتباين في المصير بين الشخصية البشرية والشخصية الحيوانية، فالمدة التي أمضوها واحدة، والظروف واحدة؛ فالله قد أمات الحمار والرجل مائة عام ثم أحياهما معًا وبرغم طول هذه المدة فإن البلى لم يمس الرجل ولم يتعفن له طعام ولا تغير له شراب ولكن تحت الظروف نفسها بلى الحمارُ، وتعرت عظامه، وانفصلت عن بعضها البعض وتفرقت حوله ثم جعل الله إعادة بعث هذا الحمار أمام الرجل مرة أخرى دليلاً على قدرته ﷻ على إحياء الخلق بعد موتهم، وكيف يجمع أجزاءها من كل موضع.

وكيف تركب كل عظم في موضعه حتى صار حمارًا قائمًا من عظام لا لحم عليها ثم كسا الله العظام لحمًا وعصبًا وعروقًا وجلدًا ثم استطاع الحمار بقدرة الله أن ينهق.

فلما شاهد هذا الرجل تلك المعجزة أمامه ازداد إيمانًا ويقينًا وتصديقًا فكان الحمار سببًا في زيادة إيمان الرجل.

وهذا يدل على القيمة الكبرى والدور البارز لهذا العنصر الحيواني في القصة.

طير إبراهيم الخليل عليه السلام

أخبر القرآن أن خليل الله إبراهيم طلب من ربه أن يريه كيفية إحياء الموتى كما تسجل الآية أن الباعث على هذا الطلب هو زيادة طمأنينة القلب وليس إزالة الشك والريب.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾. (البقرة - ٢٦٠)

ملخص القصة:

مما لا شك فيه أن أنبياء الله كلهم مؤمنون بالله أشد الإيمان؛ فلم يكن إبراهيم عليه السلام شاكًا في قدرة الله على إحياء الموتى وقد نفى النبي ﷺ الشك عن إبراهيم قائلاً: "نحن أولى بالشك منه" أي لو كان إبراهيم شك لكان أولى بنا أن نشك نحن بدليل قوله "أرني كيف تحيي الموتى" فهو مُسَلِّم بقدرة الله على إحياء الموتى وإلا لكان السؤال - مثلاً - يارب هل تستطيع إحياء الموتى؟ فأمره الله أن يأخذ أربعة من الطير ويذبحهن ويخلطهن ثم يختار مجموعة من الجبال ويضع على كل جبل منهن جزءًا بحيث يكون على كل جبل جزء من لحم كل طير من الطيور الأربعة ويدعوهن فيأتينه سعيًا أحياء وكأنها لم تذبح.

وقد جاءت هذه القصة عقب قصة الرجل الذي مر على قرية.. والتي سبق التوقف عندها للدلالة على أن الله القادر على إحياء الموتى في الدنيا قادر على إحيائهم يوم القيامة.

دور الطير في القصة:

اقتصر قول إبراهيم لربه على الطلب فقط.. طلب رؤية كيفية إحياء الموتى.. دون تحديد الأدوات.. ولا كيف يريه الله التجربة لكن الله أمره أن يأخذ أربعة من الطير.. **وهنا تبرز ثلاثة أسئلة:**

الأولى: لماذا الطير دون سائر المخلوقات؟

الثاني: ما أنواع الطير المذكور؟

الثالث: لماذا كان عددهم أربعة؟

أما السؤال الأول فيقول عنه صاحب المنار:

قال البعض: "الحكمة في ذلك أن الطير أقرب إلى الإنسان وأجمع لخواص الحيوان عن غيره من الحيوانات، ولسهولة تأتي ما يفعل به من التقطيع والتجزئة، وذكر الأستاذ الإمام وجهًا آخر وهو أن الطير أكثر نفورًا من الإنسان في الغالب فإتيانها بمجرد الدعوة أبلغ في المثل"[1].

أما السؤال الثاني: عن أنواع الطير

فحدث ولا حرج فقد راحت كتب التفسير تحدد أنواعها برغم أن نوع الطير من مبهمات القرآن ولم تذكره السنة النبوية، وبالتالي لا طائل من تعقب أقوال المفسرين في هذا الصدد وأغلب التفاسير ذكرت أن هذه الأنواع هي (غراب - طاووس - حمامة - ديك)، والطير: اسم لجنس الطير لا يهمنا أنواعه في هذا الموضع ولكن الشيء المتيقن منه هو اختلاف هذه الأنواع.

(١) تفسير المنار: للإمام / محمد عبده، مجـ٢، جـ ٣، صـ٤٦

أما السؤال الثالث: فقد قال عنه بعض المفسرين:

إنما كانت أربعة ليضع في كل جهة من الجهات الأربع بعضها، وهو قريب إلى العقل.

لكن الأستاذ الإمام مال في ذلك إلى التفويض.

﴿**فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ**﴾قرأ حمزة فِصِرهُنَّ: بكسر الصاد، وقرأ الباقون: بضمها مع تخفيف الراء فيهما ومعناه: أملهن وضمهن إليك وقيل الحكمة في ضم إبراهيم الطير إليه حتى تأنس به وتألفه.

فقد أمر إبراهيم بأخذ أربعة من الطير ثم يقوم بذبحهن وبخلطهن حتى يداخل بعضها في بعض ﴿**ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا**﴾ويختار بعد ذلك مجموعة جبال ليضع على كل جبل منهن جزءًا.. أي قطعة واحدة من كل طير من الطيور الأربعة ثم يقف بين الجبال ويدعو أجزاء الطيور المتفرقة على الجبال.

﴿**ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا**﴾أي بمجرد دعوتك إياهم فإنهم يأتون مسرعين وقيل: إن السعي لا يقال للطائر إذا طار، ويرى أن الحكمة في السعي دون الطيران أن ذلك أبعد من الشبهة لأنها لو طارت لتوهم متوهم أنها غير تلك الطيور أو أن أرجلها غير سليمة وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: وضعهن على سبعة أجبل وأخذ الرءوس بيده فجعل ينظر إلى القطرة تلقى القطرة والريشة تلقى الريشة حتى صرن أحياء ليس لهن رءوس فجئن إلى رءوسهن فدخلت فيها [1] .. والله أعلم.

﴿**وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**﴾، أي عزيز لا يغلبه أحد حكيم يضع كل شيء في موضعه فقد لعب الطير في هذه القصة دور وسيلة الإيضاح - إن جاز التعبير أو لنقل أداة التجربة التي طلبها إبراهيم تسرية لنفسه ورغبة في زيادة طمأنة قلبه، والله أعلم.

(١) فتح البيان في مقاصد القرآن: أبو الطيب بن حسن القنوجي البخاري، جـ٢، صـ١١٣.

ولا يفوتنا المقارنة بين السائِلَيْن؛ الرجل الذي لم يصرح القرآن باسمه ولا السنة النبوية، وإن أجمع معظم المفسرين على أنه عزير لكننا لسنا بحاجة إلى تحديد اسمه من جهة، وبين خليل الله إبراهيم من جهة أخرى.

	الرجل الذي مر على قرية	إبراهيم الخليل
الإيمان	قيل إنه العزيز أو رجل صالح أو صديق أو نبي ورأي ضعيف أنه كان كافرًا	خليل الله وأبو الأنبياء عليه وعلى نبينا السلام
طريقة السؤال	سؤال فيه دهشة ولعله تأثر بما رآه من هذه القرية الخاوية على عروشها	كان فيه أدب جم لما قال (رب)
الهدف من السؤال	قال بعض المفسرين: إنه شاك في قدرة الله على إحياء الموتى، والشك في قدرة الله كفر لكن جمهور المفسرين على أن الرجل كان مؤمنًا بالله	زيادة اطمئنان ومشاهدة علمية عملية على طريقة الخليل في كثير من المواقف التي ذكرها القرآن الكريم
استجابة الله لطلبه	استجابة فورية لكن نتيجتها تأخرت عنه مائة عام	استجابة فورية ولعل إبراهيم عليه السلام أسرع في تنفيذ ما أمر به اشتياقًا لرؤية كيفية إحياء الله للموتى
أداة الإثبات	الرجل نفسه وطعامه وحماره	أربعة من الطير
العنصر الحيواني	الحمار	الطير

الفصل الثالث

الحيوان والإنسان

مدخل:

اهتم النص القرآني بالحيوان وكثرت المواضع التي ذكر فيها الحيوان، وتعدد ظهوره في صور مختلفة، فلم يقتصر ظهور الحيوان في القرآن الكريم على المثل القرآني أو القصص القرآني فحسب، بل هناك مواضع شتى يظهر فيها الحيوان سواء جاء الحيوان دليلاً على قدرة الله في الخلق، أو مقدمًا الطعام للإنسان، أو وسيلة ركوب أو سببًا من أسباب متاع الحياة الدنيا.. أو غيرها من المنافع المتعددة التي يؤديها الحيوان للإنسان.

وكل هذه الأدوار وغيرها لتدل دلالة واضحة على طبيعة العلاقة الوطيدة بين الحيوان والإنسان.

فقد ارتبط الإنسان بالحيوان منذ فجر التاريخ الإنسانى، وتأثر كلاهما بالآخر تأثيرًا كبيرًا كان له سمته البارزة في تلك الحياة، إذ استطاع الإنسان أن يعتمد على الحيوان في كثير من أعماله وحاجاته اليومية، فاتخذ من لحمه قوته ومن لبنه شرابه، ومن جلده ملابسه وخيمته، ومن عظمه سلاحه ووقوده.

ولو رحنا نبحث عن وصف دقيق للعلاقة بين الإنسان والحيوان فلن نجد أنسب وأدق من أن نقول: الحيوان صديق للإنسان.. فبرغم أن القرآن الكريم ألح في غير مرة على أن الله سخر الحيوان للإنسان. بيد أن هذا التسخير لم يكن أبدًا خاليًا من الرحمة، ولم يكن تسخيرًا فيه إذلال لجنس الحيوان، بل

على العكس تمامًا فالإسلام اهتم بالحيوان اهتمامًا لا نجد له مثيلاً في الكتب السماوية الأخرى؛ إذ نبه القرآن على تلك الرابطة الوثيقة بين الإنسان والحيوان، مؤكدًا أن الحيوان نعمة أنعم الله بها على الإنسان، ولأنه نعمة فلا بد لها من شكر، وشكر هذه النعمة بالمحافظة على الحيوان، بل والإحسان إليه، والرفق به، فقضية الرفق بالحيوان مطلب إسلامي مُلِحْ.

فعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: بينما كلبٌ يُطِيفُ بِرَكيَّة كاد يقتله العطش إذ رأته بغي من بغايا بني إسرائيل فنزعت موقها فسقته فُغفِر لها به"[1] صدق رسول الله ﷺ

وعن أبي هريرة ﷺ قال: أن النبي ﷺ قال: "بينا رجل يمشي فاشتد عليه العطش فنزل بئرًا فشرب منها ثم خرج فإذا هو بكلب يلهث يأكل الثرى من العطش فقال: لقد بلغ هذا مثل الذي بلغ بي فملأ خفه ثم أمسكه بفيه ثم رقى فسقى الكلب فشكر الله له فغفر له، قالوا يا رسول الله وإن لنا في البهائم أجرًا قال في كل كبدٍ رطْبَةٍ أجر[2] صدق رسول الله ﷺ.

فكانت الرحمة بهذا الحيوان والرفق به سببًا في أن يشكر الله صنيع هذا الرجل، ويغفر له، ويغفر لهذه المرأة ذنوبها بسبب الترفق بالحيوان.

وعلى الجانب الآخر نرى مدى غضب الله على الإنسان لو أنه تجرد من مشاعر الرحمة والرفق بالحيوان، فقد روي عن ابن عمر ﷺ أن النبي ﷺ قال: "دخلت امرأة النار في هرة ربطتها فلم تطعمها ولم تدعها تأكل من خشاش

(١) صحيح البخاري: للإمام محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بْردِزبه "١٩٤ - ٢٥٦ هـ" مكتبة الإيمان بالمنصورة، ط١، ١٩٩٨، كتاب: أحاديث الأنبياء، باب: حديث الغار، جـ٢ صـ٢٨٦ حديث رقم٣٤٦٧.

(٢) نفسه: كتاب: المساقاة، باب: فضل سقي الماء، جـ٢، صـ٨٣ حديث رقم ٢٣٦٣.

الأرض [١] "فكانت هذه الهرة سببًا لدخول امرأة النار لأنها تجردت من الشفقة والرفق بهذا الحيوان الضعيف.

فالعلاقة بين الحيوان والإنسان ليست مجرد علاقة نفعية فحسب، بل هي علاقة لها ضوابطها القائمة على الرحمة، والتعاون في ظل العناية الإلهية التي تشمل الإنسان والحيوان على حدٍ سواء، ولم يكن تسخير الحيوان للإنسان تسخيرًا قائمًا على الانتفاع به في الأمور المادية فحسب بل في الأمور المعنوية كذلك، ففيه العبرة والعظة والدعوة للتأمل في قدرة الله في الخلق، وفي العلم، وفي الرزق وفي غيرها فحينما تثبت الدراسات الحديثة أن للبعوضة - مثلاً - على ضآلة حجمها وقلة شأنها عند الناس ما للفيل على عظم حجمه، وضخامة هيئته من أعضاء بل وأزيد من أعضاء الفيل لهو أمر لذوي العقول السليمة بالتأمل في قدرة خلق الله ﷻ، والتي أمر الله بها عباده، بل إنَّ الله ﷻ ذكر الذين يتأملون في خلق السماوات والأرض في معرض كلامه ﷻ عن عباده الصالحين قال تعالى في الآية ١٩١ من سورة آل عمران:

﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾

فنحن مأمورون بالتأمل في مخلوقات الله ومنها الحيوان وفي هذا الفصل نرصد مدى انتفاع الإنسان بالحيوان سواء في الأمور المادية أو المعنوية منبهين على طبيعة هذه العلاقة التي تغلفها الرحمة.

المبحث الأول: الحيوان من دلائل قدرة الله تعالى

كثرت الآيات التي تحدثت عن الحيوان بوصفه دليلاً من دلائل قدرة الله لكننا سنتناول هذه الآيات عبر ثلاثة محاور:-

(١) صحيح البخاري: كتاب: بدء الخلق، باب: خمس من الدواب فواسق، جـ٢ صـ٣٣٧ حديث رقم ٣٣١٤.

المحور الأول: الحيوان دليل على وحدانية الله:-

إن كلمة التوحيد تنقسم لقسمين؛ نفي ثم استثناء، نفي الألوهية على الإطلاق ثم استثناء الله ﷻ من هذا النفي بما يثبت أن الله واحد لا شريك له، ويزخر كتاب الله ﷻ بآيات تتحدث عن هذه القضية، بل وصفت سورة الإخلاص بأنها ثلث القرآن الكريم لكونها تتحدث عن التوحيد.

إذن فالنفي وسيلة من وسائل إثبات الربوبية لله - أعني بالطبع نفي صفات الله ﷻ عن غيره، فهناك أمور كثيرة لا يقدر عليها إلا الله ﷻ، وأشياء لا يعلمها إلا الله. ومن الآيات التي اعتمدت على نفي القدرة عن غير الله كوسيلة لإثبات قدرة الله ﷻ وذكر فيها الحيوان قوله تعالى: ﴿**أَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاء مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ اللّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ**﴾. (النحل – ٧٩)

وقوله تعالى: ﴿**أَوَ لَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ**﴾. (الملك – ١٩)

ففي الآيتين نفى الله ﷻ عن غيره قدرة إمساك الطير أثناء تحليقه في الجو.. فهو أمر لا يقدر عليه إلا الله ﷻ، وفي الآيتين تنبيه للعباد للنظر إلى الطير المسخر بين السماء والأرض.. كيف جعله الله يطير بجناحيه بينهما في جو السماء ما يمسكه إلا الله بقدرته تعالى.

﴿**مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ اللّهُ**﴾أو ﴿**مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ**﴾.

"أي في حال القبض والبسط والاصطفاف. فما طيرانها في الجو إلا بالله وبتسخيره إياها بذلك، ولو سلبها ما أعطاها من الطيران لم تقدر على النهوض ارتفاعًا. وفي ذلك دلالة على أنه لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأنه لا حظ للأصنام والأوثان في الألوهية"[1].

(١) تفسير الطبري "جامع البيان عن تأويل آى القرآن": محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي أبو جعفر الطبري "٢٢٤-٣١٠ هـ"، دار الفكر، ط١: جـ١٧، صـ٢٦٦.

وما يمسكهن: أي عن الوقوع في الجو، فإن ثقل جسدها ورقة الهواء من شأنها أن يكونا من أسباب سقوطها، إذ لا علاقة من فوقها ولا دعامة من تحتها وفي الآية الثانية ذكر لحركتي الطائر في السماء فهو إما قابض جناحيه أو باسطهما. روى القرطبي في تفسيره عن أبي جعفر النحاس: "يقال للطائر إذا بسط جناحيه: صاف وإذا ضمهما فأصابا جنبه: قابض لأنه يقبضهما"(١).

وعن قوله تعالى "مسخرات" التي هي بمعنى مذللات ومهيئات للطيران يستدل الألوسي عن أن فيه إشارة إلى أن طيرانها ليس بمقتضى طبعها.

ويضيف الألوسي: "إن في هذه الآية دليلاً على كمال قدرة الله تعالى وحكمته سبحانه فإنه شأنه خلق الطائر خلقة تمكنه من الطيران فأعطاه جناحًا يبسطه مرة، ويكنه مرة أخرى كما يعمل السابح في الماء، وخلق الجو خلقة معها يمكن الطيران إذ يسهل خرقه والنفاذ فيه، ولولا ذلك لما كان الطيران ممكنًا"(٢).

والعنصر الحيواني في الآيتين واحد وهو الطير، ومظهر القدرة واحد كذلك وهو إمساك الطير في الجو كيلا تقع.

وجدير بالملاحظة قوله تعالى عن الطير "صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ" إذ نلحظ هنا عطف الفعل المضارع "يقبضن" على الاسم "صافات" وهو جائز بل كما يقول الألوسي "عطف الفعل على الاسم في مثله فصيح شائع، وعكسه جائز حسن"(٣).

ولذلك دلالة، فلما كان الغالب هو فتح الجناحين فكأنه هو الثابت عبر عنه بالاسم "صافات"، وكان القبض متجددًا عبر عنه بالفعل "ويقبضن"، وعن

(١) تفسير القرطبي: "الجامع لأحكام القرآن": أبو عبد الله بن أحمد الأنصارى القرطبي "٦٠٠-٦٧١هـ"، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٨٥. جـ١٨، صـ٢١٧.

(٢) تفسير روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني: للإمام شهاب الدين السيد محمود الألوسي البغدادي "ت ١٢٧٠ هـ"، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط٤، ١٩٨٥، جـ٢٩، صـ١٧.

(٣) نفسه: للألوسي، جـ٢٩، صـ١٧.

ذلك يقول صاحب الكشاف. "فإن قلت: لم قيل ويقبضن ولم يقل وقابضات قلت: لأن الأصل في الطيران هو صف الأجنحة لأن الطيران في الهواء كالسباحة في الماء.. والأصل في السباحة مد الأطراف وبسطها، وأما القبض فطارئ على البسط للاستظهار به على التحرك فجئ بما هو طارئ غير أصل بلفظ الفعل على معنى أنهن صافات ويكون منهن القبض تارة بعد تارة كما يكون من السابح"[1].

ويكون قبض الجناحين للاستراحة والاستعانة، لذا ذكر بلفظ الفعل لقلته.

ففي إعطاء الطيور القدرة على ارتقاء الهواء، والسبح فيه بكفاءة عالية بما وهبها الله من أسباب تعينها على ذلك من شكل خارجي انسيابي يسهل عليها اختراق الهواء، وجناحين مدعومين بعظام الطرفين الأماميين، ومشدودان إلى الجسم بمفاصل تسهل حركتهما وريش يغطي الجسم بالكامل ويمتد في الذنب، الذي يعمل على تجميع الهواء بين وحداته المختلفة مما يساعد على تخفيف وزن الطائر وعلى حفظ درجة حرارة جسمه، وخفة وزن الهيكل العظمي للطائر وإعطائه قدرات إبصار ورصد فائقة وقدرة هائلة في التعرف على المواقع والاتجاهات لهي من أعظم الدلالات على طلاقة القدرة الإلهية المبدعة في الكون والتي أعطت كل كائن حي القدرة على التوافق مع بيئته كما يرى دكتور/ زغلول النجار أن المعلم الأول في علم الطيران قوله تعالى "صافات ويقبضن "إذ أصبحت حركات الطير في جو السماء علمًا يدرس في أغلب الجامعات تحت مسمى هندسة الطيران والذي يشمل علوم التحرك في الهواء، وديناميكية الهواء وبناء الطائرات والملاحة الجوية وغيرها"[2].

(١) تفسير الكشاف: "الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل": أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي " ٤٦٧-٥٣٨هـ" تحقيق أ/ يوسف الحمادي، مكتبة مصر، ط١، جـ٤، صـ٤٣٧.

(٢) من آيات الإعجاز العلمي الحيوان في القرآن الكريم: دكتور زغلول راغب محمد النجار، دار المعرفة، بيروت، ط١، ٢٠٠٦ صـ٤٢٠ وما بعدها.

وفوق كل هذه القدرات التي لا يقدر عليها إلا الله فإن الله ﷻ تحدى في هاتين الآيتين بقدرة واحدة وهي إمساك الطير في الجو حال قبض جناحيها، ونفى هذه القدرة عن غيره نفيًا مطلقًا ليتأكد لنا أن الله ﷻ هو القادر وحده. وكان العنصر الحيواني هنا دليل على وحدانية الله - والله أعلى وأعلم.

المحور الثاني: الحيوان دليل على قدرة الله في الخلق:

الله ﷻ هو الخالق وحده، لا يشاركه أحد في هذه الصفة ولو عن طريق الزَعْم والادعاء، فلربما ادعى أحد الجبابرة أو العتاة أنه يتحكم في رزق الآخرين مع أن الله هو الرزاق ذو القوة المتين.

ولربما ادعى أحد الطغاة كالنمرود مثلاً أنه يحيي ويميت مع أن الله ﷻ هو المحيي المميت.

لكن في مسألة الخلق لم ولن يقدر أحد مهما بلغ به الكبر والكفر أن يدعي قدرته على الخلق، وتحدى الله ﷻ في كتابه العزيز المشركين أن يخلقوا ذبابًا ولو اجتمعوا له، بل تحداهم فيما هو أدنى من ذلك بأن يستردوا ما سلبهم الذباب إياه..

وقدرة الله ﷻ في الخلق، وهو الإيجاد من العدم تحدث عنها القرآن الكريم في مواضع كثيرة. نخص منها الآيات التي ذكر فيها الحيوان.

قال تعالى: ﴿**إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللّهُ مِنَ السَّمَاء مِن مَّاء فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخِّرِ بَيْنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ**﴾(البقرة - ١٦٤)

قال تعالى: ﴿**خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ**﴾(لقمان - ١٠)

قال تعالى: ﴿وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ (الجاثية - ٤)

وهذه الآيات الثلاث تتحدث عن قدرة الله في الخلق متمثلة في بث الدواب، وأن في ذلك دعوة لأصحاب العقول السليمة للتفكير والتدبر في قدرة الله.

والبث في اللغة هو النشر: فيقول صاحب اللسان: "بث الشيء والخبر يُبِثُّه ويَبُثُّه بثًا، وأبثَّه بمعنى: نشره، وكذلك بث الخيل في الغارة يبثها بثًا فانبثت، وبث الصياد كلابه يبثها بثًا، وانبث الجراد في الأرض أي انتشر، وخلق الله الخلق فبثهم في الأرض، وفي التنزيل العزيز: "وبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كثيرًا ونِسَاء": أي نشر وكثَّر، وفي حديث أم زرع[1] زوجي لا أبث خبره أي لا أنشره لقبح آثاره، وُبثت البسُط إذا بسِطَت قال تعالى: "وزرابي مبثوثة" قال الفراء: "مبثوثة: كثيرة"[2].

ويقول صاحب التحرير والتنوير: "البث في الأصل: نشر ما كان خفيًا ومنه بث الشكوى، وبث السر أي أظهره. قالت الأعرابية: "لقد أبثثتك مكتومي وأطعمتك مأدومي" وفي حديث أم زرع قالت السادسة "ولا يولج الكف ليعلم البث" أي لا يبحث عن سر زوجته لتفشوه له"[3].

وبث الدواب: انتشارها في المراعي بعد ما كانت هازلة جاثمة فانتشر نسلها بالولادة، وجاء الفعل بصيغة الماضي في سورتي البقرة ولقمان، بينما جاء بصيغة المضارع في سورة الجاثية ليفيد تجدد البث وتكرره، واتفقت الآيات الثلاث في لفظة "من دابة"، وهي هنا تبعيضية بمعنى أنه أكثر فيها عددًا

(١) حديث أم زرع صحيح البخاري: كتاب: النكاح، باب: حسن المعاشرة مع الأهل، جـ٣، صـ٣٦٩٤ حديث رقم٥١٨٩.

(٢) لسان العرب: لابن منظور، جـ٢، صـ١١٤، مادة: بثث.

(٣) تفسير التحرير والتنوير: محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر، ط١، ١٩٨٤. جـ٢، صـ٨٤.

من كل أنواع الدواب كما يدل تنكير كلمة "دابة" على التنويع، وتفرد كل نوع بصفات مختلفة عن غيره، والدابة تطلق على كل ما يدب على الأرض غير الإنسان، وهذا أصل إطلاقها، وقد تطلق على ما يدب بالأرجل دون الطائر كقوله تعالى:

﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾(الأنعام - ٣٨)

ونلحظ أن ذكر بث الدواب ما جاء منفردًا بل جاء مرتبطًا بنعم أخرى ففي الآية ١٦٤ من سورة البقرة جاء بث الدواب ضمن ثمانية أنواع من الدلائل على وجوده ﷻ وعلى توحيده وبعد حكم الله ﷻ بالوحدانية في الآية السابقة عليها.

والدلائل الثمانية هي: الاستدلال بأحوال السماء، وأحوال الأرض واختلاف الليل والنهار، والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس، وماء المطر الذي يحيي الله به الأرض بعد موتها، وبث الدواب، وتصريف الرياح، والسحاب المسخر بين السماء والأرض.

وتكررت هذه الدلائل في سورة الجاثية، وإن عبر عن الماء الذي ينزل من السماء بالرزق، كما لم يذكر من هذه الدلائل الثمانية الفلك والسحاب.

ويرى الرازى: "أن السبب في ذلك أن مدار حركة الفلك والسحاب على الرياح المختلفة فذكر الرياح الذي هو كالسبب يغني عن ذكرهما"[1].

كما نلحظ اختلافًا آخر في عرض هذه الدلائل في سورة البقرة عنها في سورة الجاثية؛ إذ ذكرت في سورة البقرة في آية واحدة، أما في سورة الجاثية نجد أن هذه الدلائل قد قسمت على ثلاث آيات "الرابعة والخامسة والسادسة"، وغرض ذلك التنبيه على أنه لا بد من إفراد

(١) التفسير الكبير للرازي: أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بالفخر الرازي، "٥٤٤-٦٠٦ هـ" دار الغد العربي، ط١، ١٩٩١. جـ٢٧، صـ٢٥٩.

كل واحد منها بنظر تام شاف.. وهو منهج قرآني فريد؛ إذ يجمل في الموضع الذي يكون للإجمال فيه دلالة، أو يفصل في موضع ما أجمله في موضع آخر لدلالة كذلك.

أما في الآية العاشرة من سورة لقمان فنجد أن بث الدواب جاء ذكره مرتبطًا بالسماء المرفوعة بغير عمد نراها، والأرض التي فيها جبال رواس والمطر الذي ينزل من السماء فيكون سببًا في انتشار الخير.

ويربط الرازي بين سكون الأرض وبث الدواب فيقول: "إن سكون الأرض فيه مصلحة حركة الدواب فأسكنا الأرض وحركنا الدواب، ولو كانت الأرض متزلزلة فيكون في ذلك هلاك الدواب"(١)

ونلحظ ارتباط لبث الدواب في الآيات الثلاث بالسماء والأرض والماء.

وأقول: لأن الماء سبب حياة هذه الدواب.. فإن الله جعل من الماء كل شيء حي، وأشارت الآيات إلى نزول هذا الماء من السماء، أما الأرض فهي مكان معيشتها، والذي كان ثباتها سببًا لاستقرار الكائنات الحية عليها.

ولا يفوتنا أن الآيتين في سورة البقرة وسورة الجاثية اختتمتا بدعوة للتأمل فاختتمت آية البقرة بقوله تعالى: ﴿**لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ**﴾أي يتفكرون وروي عن عائشة ﵂ أن النبي ﷺ لما قرأ هذه الآية قال: "ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها"(٢).

كما اختتمت الآية من سورة الجاثية بقوله تعالى "آيات لقوم يوقنون"، أي من شأنهم أن يوقنوا بالأشياء على ما هي عليه.

فهذه الآيات الثلاث إنما تدل على قدرة الله في الخلق كما تدل كذلك على تنوع وتعدد خلق الله ﷻ.

(١) التفسير الكبير للرازي: جـ٢٥، صـ١٤٣.

(٢) تفسير روح المعاني: للألوسي: جـ٢، صـ٣٣.

أما الآية الرابعة في هذا المحور الدلالي على قدرة الله ﷻ في الخلق فهي قوله تعالى:

﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ (الغاشية - ١٧)

وأول ما يلفت نظرنا هو ضرورة التفكر في خلق الإبل؛ فطالما أن الله ﷻ ذكر لنا في كتابه العزيز هذه الآية.. إذن فلابد أن في الإبل آية جلية على قدرة الله ﷻ في الخلق، فهي آية تدل على وجود الصانع الحكيم.

أما عن مناسبة الآية لما قبلها فيقول القشيري:

"إن الله ﷻ لما ذكر تلك السرر المرفوعة المشيدة قالوا: كيف يصعدها المؤمن؟ فقال: أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت؟ كيف إذا أرادوا الحمل عليها أو ركوبها تنزل؟ فكذلك تلك السرر تتطامن حتى يركبها الولي"(١).

وأقول: لو اقتصر الأمر على كيفية نزول الإبل ليركبها الراكب فحسب فنكون بذلك قد حَجَّرنا واسعًا، واختصرنا ما في الإبل من عظم صنيع الخالق إلى خاصية نزولها لتتيح الفرصة للراكب فحسب.

ولكن في الإبل خصائص عظيمة تدل على كمال قدرة الله ﷻ وإنعامه، ويقول القشيري كذلك: "إن القوم كانوا أصحاب البوادي لا يرون شيئًا إلا السماء والأرض والجبال والجِمال فأمرهم بالنظر في هذه الأشياء"(٢).

وأول ما يجب علينا التنبه إليه هو دور الإبل في هذه الصورة أو لنقل اللوحة الطبيعية التي تضم الأرض المنبسطة المسطوحة أمام الناظر، وهذه السماء المرفوعة بغير عمد، وهذه الجبال المنصوبة،

(١) تفسير لطائف الإشارات: للقشيري، تحقيق دكتور/ إبراهيم بسيوني، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر ط١، ١٩٧٢، جـ٦، صـ٢٩٠.

(٢) نفسه: جـ٦، صـ٢٩٠.

ونعود إلى الإبل وخصائصها وما فيها من بديع خلق الله ﷻ الذي يدعونا أن نقف أمامها متأملين معتبرين.

فالإبل حيوان العربي الأول.. عليها يسافر ويتحرك هنا وهناك ومنها يشرب ويأكل، ومن أوبارها وجلودها يلبس، فهي مورده الأول للحياة، ثم إن لهذه الإبل خصائص تفردها من بين الحيوان، فهي على قوتها قليلة التكاليف، مرعاها ميسر، وكلفتها ضئيلة وهي أصبر الحيوان على الجوع والعطش.

وكما يقول صاحب التحرير والتنوير: "قد خلقها الله خلقًا عجيبًا بقوة قوائمها ويسر بروكها ليتيسر حمل الأمتعة عليها، وجعل أعناقها طويلة قوية ليمكنها النهوض بما عليها من الأثقال بعد تحميلها، وجعل في بطونها أمعاء تختزن الطعام والماء بحيث تصبر على العطش إلى عشرة أيام في السير"[١].

وتتميز الإبل عن جميع الأنعام بمميزات بدنية وتشريحية ووظائف عجيبة.

يقول الدكتور/ زغلول النجار: "إن الإبل عمرت الأرض قبل الإنسان بحوالي خمسين مليون سنة، وازدهرت ازدهارًا هائلاً... وقد ثبت للدارسين والمراقبين أن الجمل العربي هو بحق سفينة الصحراء وأنه أصلح الوسائل الفطرية للسفر والحمل والتنقل في الأرض الصحراوية الجافة، فهو يستطيع أن يقطع مسافة تصل إلى خمسين ميلاً في اليوم متحملاً الجوع والعطش"[٢].

ويرصد دكتور/ زغلول النجار ما وهب الله للجمل من صفات جسدية تعينه على التكيف مع هذه البيئة الصعبة التي يعيش فيها حتى يمكنه التنقل في هذه الصحراء ذات الطبيعة الخاصة متحملاً حرها الشديد، أو بردها القارس، شمسها المحرقة أو ليلها الدامس، مستغنيًا عن الطعام والشراب لفترات طويلة فيقول:

(١) تفسير التحرير والتنوير: للطاهر بن عاشور، جـ٣٠، صـ٣٠٥.

(٢) من آيات الإعجاز العلمي الحيوان: دكتور/ زغلول النجار، صـ٢٧٣.

من الصفات الجسدية للجمل العربي:

١- ضخامة الجسم وارتفاع القوائم وطول العنق في تناسق عجيب يمكن الجمل من سرعة الحركة واتساع مجال الرؤية، ومن اختزان كميات كبيرة من الماء والغذاء والدهون والطاقة تعينه على احتمال الجوع والعطش لفترات طويلة لا يقوى عليها حيوان آخر.

٢- لرأس الجمل أنف ذات منخارين أعطاها الله القدرة على الانغلاق كليًا تحاشيًا لرمال الصحراء العاصفة، وله زوج من العيون الحادة الإبصار.

٣- وعلى جانبي رأس الجمل أذنان صغيرتان يكتنف كلاً منهما شعر كثيف لوقايتهما من الرمال العاصفة.

٤- أقدام الجمل منبسطة على هيئة الخف المكون من نسيج دهني سميك يعين الجمل على السير فوق الرمال الناعمة.

٥- طول سيقان الجمل تبعده عن التأثر بحرارة الجو، وارتفاع سنامه يبعد غالبية جسده عن التأثر بحرارة الشمس.

٦- خلق الله تعالى - للجمل وسادة حرشفية/ قرنية أسفل صدره تعرف باسم "الكلكل"، ووسائد مشابهة فوق كل ركبة من ركبه لتمكنه من الرقود على الأرض مهما كانت قاسية وخشنة دون أذى.

٧- جعل الله للجمل جلدًا غليظًا جدًا، يجعله قادرًا على تحمل العواصف الحارة المحملة بالرمال عند هبوبها، وعلى مقاومة لسعات الحشرات وقرصات غيرها من الحيوانات.

٨- يساعد طول عنق الجمل وارتفاع أقدامه على تمكينه من تناول أوراق الأشجار العالية، وتساعد شفته المشقوقة على تناول الأعشاب الشوكية دون أن تؤذيه"[1].

(١) من آيات الإعجاز العلمي الحيوان: دكتور/ زغلول النجار، صـ٢٧٤ وما بعدها

وهـذا غيـض مـن فيـض في دقـة وعظـم خلـق الله ﷻ للإبـل بـما يوجـه عنايـة أصحـاب العقـول السـليمة والفطـر القويمـة بالتدبـر في قـدرة الله ﷻ.

المحور الثالث: الحيوان دليل على قدرة الله ﷻ في تنوع الخلق:

مـن مظاهـر قـدرة الله ﷻ قدرتـه عـلى تنـوع الخلـق، فلـم يخلـق الإنسـان عـلى صـورة واحـدة، وكذلـك لم يخلـق الحيـوان عـلى هيئـة واحـدة بـل إننـا نجـد أن كل أمـة مـن أمـم الحيـوان تتنـوع فيـما بينهـا تنوعًـا ملحوظًـا، فانظـر مثـلاً إلى عـالم الطيـور ومئـات الأنـواع والأجنـاس، وكـذا عـالم البحـار ومـا بـه مـن آلاف الأنـواع مـن الأسـماك التـي تجـل عـن الحـصر، وهـو مـا يـدل عـلى القـدرة المطلقـة لله ﷻ في الخلـق، وقـد ذكـر القـرآن الكريـم هـذه القـدرة الفائقـة في أكثـر مـن آيـة، وجـاء ذكـر العنـصر الحيـواني في هـذا الجانـب في قولـه تعـالى: ﴿**وَاللَّـهُ خَلَـقَ كُلَّ دَابَّـةٍ مِـن مَّـاء فَمِنْهُـم مَّـن يَمْـشِي عَـلَى بَطْنِـهِ وَمِنْهُـم مَّـن يَمْـشِي عَـلَى رِجْلَـيْنِ وَمِنْهُـم مَّـن يَمْـشِي عَـلَى أَرْبَـعٍ يَخْلُـقُ اللَّـهُ مَـا يَشَـاء إِنَّ اللَّـهَ عَـلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيـرٌ**﴾. (النـور- ٤٥)

وفي قولـه تعـالى: ﴿**وَمِـنَ النَّـاسِ وَالـدَّوَابِّ وَالْأَنْعَـامِ مُخْتَلِـفٌ أَلْوَانُـهُ كَذَلِـكَ إِنَّمَـا يَخْـشَى اللَّـهَ مِـنْ عِبَـادِهِ الْعُلَمَـاء إِنَّ اللَّـهَ عَزِيـزٌ غَفُـورٌ**﴾. (فاطـر - ٢٨)

وأول مـا يلفـت نظرنـا في الآيتـين هـو رد أصـل هـذه المخلوقـات عـلى تباينهـا وتنوعهـا إلى المـاء قـال تعـالى: ﴿**وجعلنـا مـن المـاء كل شيء حي**﴾ففـي الآيـة مـن سـورة النـور قـال تعـالى: ﴿**وَاللَّـهُ خَلَـقَ كُلَّ دَابَّـةٍ مِـن مَّـاء**﴾وفي الآيـة من سـورة فاطـر سـبقها قولـه تعـالى: ﴿**أَلَـمْ تَـرَ أَنَّ اللَّـهَ أَنـزَلَ مِـنَ السَّـمَاء مَـاء فَأَخْرَجْنَـا بِـهِ ثَمَـرَاتٍ مُّخْتَلِفًـا أَلْوَانُهَـا وَمِـنَ الْجِبَـالِ جُـدَدٌ بِيـضٌ وَحُمْـرٌ مُّخْتَلِـفٌ أَلْوَانُهَـا وَغَرَابِيـبُ سُـودٌ**﴾.

فأصـل كل هـذه المخلوقـات هـو المـاء حتـى وإن قصـد بالمـاء هنـا "النطفة" ففـي تكوينهـا المـاء كذلـك.

ويرصد الدكتور/ زغلول النجار بعضًا من الدلالات العلمية لذلك فيقول: "إن خلق السماوات والأرض سابق لخلق جميع الأحياء، والماء يشكل العنصر الأساسي في بناء أجساد جميع الأحياء كما أن الأنشطة الحياتية لا تتم في غيبة الماء من التغذية إلى الهضم إلى التمثيل الغذائي ثم الإخراج والتخلص من سموم الجسم وفضلات الغذاء، وأخيرًا: إن وحدة خلق الأحياء وهي الماء تؤكد وحدانية الخالق سبحانه"(١).

كما يستوقفنا في الآية من سورة النور قوله ﷻ ﴿**مَّن يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ**﴾، و﴿**مَّن يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ**﴾، و﴿**مَنْ**﴾للعاقل، وكل هذه الأجناس لغير العاقل فيرى الطبري أنه تفريق ما هو داخل في قوله ﴿**وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ**﴾وكان داخلاً في ذلك الناس وغيرهم ثم قال: ﴿**فمنهم**﴾لاجتماع الناس والبهائم وغيرهم في ذلك واختلاطهم، فكنى عن جميعهم كنايته عن بني آدم ثم فسرهم بـ﴿**مَنْ**﴾(٢).

وقوله تعالى ﴿**فمنهم من يمشي على بطنه**﴾: كالأسماك والحيات وغيرها من الزواحف، أما عن تسمية حركتها مشيًا مع كونها زحفًا فعن ذلك يقول الألوسي: "إن ذلك مجاز للمبالغة في إظهار القدرة وإنها تزحف بلا آلة كشبه المشي وأقوى، ويزيد ذلك حسنًا ما فيه من المشاكلة لذكر الزواحف مع الماشين"(٣).

ومنهم من يمشي على رجلين "كالإنس والطير، ومنهم من يمشي على أربع كالنعم والوحش".

فهذه الآية حصرت جميع المخلوقات وشملتهم على اختلاف صورهم وأجناسهم، وزيادة في الشمول اختتمت الآية بقوله تعالى "يخلق ما يشاء إن

(١) من آيات الإعجاز العلمي الحيوان: دكتور/ زغلول النجار، صـ٣٣٠
(٢) تفسير الطبري: جـ١٩، صـ٢٠٤
(٣) تفسير روح المعاني: للألوسي، جـ١٨، صـ١٩٣

الله على كل شيء قدير "لتفيد قدرته على عموم الخلق مما ذكر في الآية، ومما لم يذكر كالعناكب مثلاً والتي لها أكثر من أربع أو أم أربع وأربعين، وغير ذلك من الحشرات.

أما عن "دلالة الترتيب" بين هذه الأجناس حيث ذكر من يمشي على بطنه وهو الماشي بغير آلة مشي من قوائم أو أرجل ثم الماشي على رجلين ثم الماشي على أربع فيقول صاحب الكشاف: "إنه قدم ما هو أعرق في القدرة"[١] ولا علاقة لهذا بسمو الجنس فهذه مسألة محسومة لأن الله ﷻ كرم بني آدم وأحسن صورهم.. لكن الأمر هنا إنما يتعلق بالقدرة على التحرك فحسب فقدم من له قدرة على المشي بغير آلة للمشي على من يمشي مستخدمًا آلة للمشي أو لأن ذلك أدل على القدرة... وسمي مشي للمشاكلة... والله أعلم بمراده.

أما الآية من سورة فاطر فلا يجوز تناولها بعيدًا عن سياقها، فهي مرتبطة بالآية السابقة عليها ومعطوفة عليها من باب عطف الخاص على العام.

"ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك" أي وكذلك الحيوان من الأناس والدواب مختلفة أيضًا، فكما أن الثمرات مختلفة الألوان، والجبال مختلفة الألوان كذلك فمنها الأبيض والأحمر والأسود الغربيب؛ "فالناس كذلك منهم بربر وحبوش وطُغَاطم في غاية السواد، وصقالبة وروم في غاية البياض، والعرب بين ذلك، والهنود دون ذلك ولهذا قال تعالى في الآية ٢٢ من سورة الروم: ﴿**وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ**﴾.. وكذلك الدواب والأنعام مختلفة الألوان حتى في الجنس الواحد بل النوع الواحد منهن مختلف الألوان، بل الحيوان الواحد يكون أبلق، فيه من هذا اللون وهذا اللون.. فتبارك الله أحسن الخالقين"[٢].

(١) الكشاف: للزمخشري، جـ٣، صـ٣٠٠.

(٢) تفسير القرآن العظيم "ابن كثير": أبو الفداء اسماعيل ابن كثير القرشي الدمشقي "٧٠٠-٧٧٤ هـ"، تحقيق أ/ سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط٢، ١٩٩٩. جـ٦، صـ٥٤٤.

فتعدد الخلق واختلاف صورهم وألوانهم وتباينهم من نوع إلى نوع، بل الاختلاف بين النوع الواحد مع اتحاد أصل الخلق وهو الماء ليدل دلالة جلية على قدرة الخالق ﷻ وحسن صنيعه فهي صبغة الله، ومن أحسن من الله صبغة؟ ـ لا أحد ـ فمن يدرك قدرة الله ﷻ في الخلق وتنوع المخلوقات، ويعرف لله حق قدره العظيم يكون عالمًا.. وهنا لا بد وأن تقع الخشية في قلبه فصدق الله العظيم إذ قال ﴿**إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ**﴾.

المبحث الثاني: الحيوان نعمة من نعم الله على الإنسان

يعد الحيوان من أهم النعم التي أنعم الله بها على الإنسان، وقد كثرت الآيات التي تتحدث عن منافع الحيوان للإنسان في مأكله، وفي مشربه وفي علاجه، وفي ملبسه، وغيرها من المنافع التي تجل عن الحصر.

فلم يخلق الله كائنًا إلا وله منفعة مرتبطة بالإنسان سواء أكانت منفعة مباشرة ظاهرة، أو منفعة غير مباشرة وربما قد خفيت هذه المنفعة عن الإنسان حتى زمننا هذا الذي نضج فيه وأخذ بكل وسائل التكنولوجيا الحديثة.

فحتى الحيوانات التي تخفى عنا فائدتها فإن لها على الأقل - دور بارز في منظومة الاتزان البيئى، فلربما كانت فائدتها مثلاً أن تتغذى على نوع آخر من الحيوانات يؤذي الإنسان أو يتلف زرعه أو يعكر ماءه، أو يسبب له أذى بصورة ما.

فقد وضع الله ﷻ نظامًا دقيقًا يحفظ التوازن البيئي فالذبابة مثلاً كما يقول دكتور/ زغلول النجار "تضع نحو أربعمائة بيضة في المرة الواحدة في المتوسط وهناك من أنواع الذباب ما يتكاثر بمعدلات أعلى من ذلك بحيث لو قدر لجميع بيضها أن يفقس وأن يعيش ويتوالد لنتج عن الزوج الواحد من الذباب خلال فصل واحد من فصول السنة ما تعداده يفوق الرقم عشرة مسبوقًا بستين صفرًا، لكن الله تعالى - من عظيم حكمته - يسلط من مخلوقاته مثل

الطيور والنمل وغيرها ما يستهلك أغلب بيض الذباب كطعام له"[١]، وكل شيء عنده بمقدار.

وإن لم يذكر لنا العلماء فائدة للذباب فليس معنى هذا أن الله خلقه بلا غاية - وحاشا لله - فلا بد أن له منفعة مازالت خافية عنا حتى يومنا هذا. فالجهل بالشيء لا ينفي وجوده.

وتوضح لنا الآيات القرآنية مدى تعدد نفع الحيوان للإنسان سواء خصصت هذه النعمة أو عممت.

ونتناول هذه القضية عبر محورين:

المحور الأول:

في الحيوان منافع عامة: معتمدين على الآيات التي نصت على أن في الحيوان منافع مطلقة دون تحديد هذه المنافع.

المحور الثاني:

في الحيوان منافع خاصة: متناولين الآيات التي خصصت منافع الحيوان للإنسان بوصفه وسيلة طعام أو شراب.

المحور الأول: في الحيوان منافع عامة:-

لأن الإنسان منذ أن وطأت قدماه الأرض، وهو يسير في طريق التقدم والرقي، والأخذ بأسباب العلم الحديثة جيلاً بعد جيل فيعلم جيل اليوم ما جهله جيل الأمس، ويعلم جيل الغد ما يجهله جيل اليوم، وفي كل يوم يفتح لنا العلم أبوابًا كانت مغلقة ومعارف كانت مبهمة، فإن القرآن الكريم أعطى المرونة ليكون صالحًا لكل زمان ومكان، ففي قضية الخلق - ولأننا حتى يومنا هذا - نجهل الكثير من المخلوقات، قال تعالى: ﴿**ويخلق ما لا تعلمون**﴾، ولأننا كذلك في كل يوم ربما نكتشف في الحيوان نفعًا كنا نجهله بالأمس، فإن

(١) من آيات الإعجاز العلمي الحيوان: دكتور/ زغلول النجار، صـ١٥٨- ١٥٩.

القرآن في بعض المواضع تحدث عن الحيوان بوصفه نعمة عامة، فلم يقصر دوره على مجرد الركوب أو الطعام أو الشراب فحسب، ولذلك دلالته، فلو أن القرآن الكريم اقتصر في ذكر منفعة الحيوان على الطعام والشراب فحسب واكتشف العلم الحديث فيه مآرب أخرى فلربما فتح ذلك بابًا للطعن في القرآن كما أن في ذلك التعميم دعوة للبحث عن الجديد والمفيد في كل يوم.. فمثلاً اكتشف العلماء حديثًا أن في السموم الناقعات دواءُ واتخذوا هذه السموم من الحيات، وغيرها من المنافع والنعم التي تكتشف كل يوم.

قال تعالى: ﴿**أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ (١٣٣) وَجَنَّاتٍ عُيُونٍ (١٣٤)**﴾ (الشعراء ـ ١٣٤:١٣٣)

جاءت هذه الآيات في سياق الأمر بالتقوى والطاعة إذ سبقها قوله تعالى: ﴿**فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٣١) وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ (١٣٢)**﴾

فقد جاء ذكر النعمة بالإجمال الذي يهيئ السامع لتلقي ما يرد بعده إذ قال تعالى: ﴿**الذي أمدكم بما تعلمون**﴾ فهذا إجمال ثم يأتي من بعده التفصيل: ﴿**أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ**﴾.

وقد تكرر لفظ ﴿**أمدكم**﴾ في جملتي الإجمال والتفصيل كتوكيد لفظي فإن الله ﷻ لما خلق الإنسان وكلفه بالتكاليف الشرعية لم يتركه بلا أسباب تعينه على الطاعة، وعلى أن يحيا حياة كريمة فأمده وأعانه بكل الأسباب التي تيسر له ما خلق من أجله وهو العبادة وإعمار الأرض.

أما عن "دلالة الترتيب"[1] فنلحظ أن الأنعام ذكرت قبل البنين، وعن ذلك الترتيب يقول صاحب التحرير: "ابتدأ في تعداد النعم بذكر الأنعام لأنها أجِل نعمة على أهل ذلك البلد، لأن منها أقواتهم ولباسهم وعليها أسفارهم

(١) يروق لي استخدام هذا اللفظ الذي لم أقابله قط لتيقني أن للترتيب في القرآن الكريم دلالة تختلف باختلاف السياق، واختلاف الحال.

وكانوا أهل نُجعة فهي سبب بقائهم، وعطف عليها البنين لأنهم نعمة عظيمة فيها أنسهم وعونهم على أسباب الحياة، وبقاء ذكرهم بعدهم، وعطف الجنات والعيون لأن بها رفاهية حالهم واتساع رزقهم وعيش أنعامهم[1].

فذكر نعمة الأنعام هنا كانت نعمة عامة تتمثل في نعمة الركوب والطعام والشراب وغيرها من النعم سواء التي عرفها الإنسان أم سيعرفها في الغد.

ومن الآيات التي تتحدث عن الحيوان بوصفه نعمة عامة قوله تعالى: ﴿**أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ (٧١) وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ(٧٢) وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ**﴾. (يس - ٧١:٧٣)

فقد امتن الله على عباده بأن جعل هذه الأنعام للإنسان ملكًا وذلولاً يستعملها وينتفع بها كما يشاء. فالملك هو كل أنواع التصرف، وقد ذكر هنا من فوائدها الركوب والأكل والشرب فقوله تعالى ﴿**فمنها ركوبهم**﴾فالفاء هنا لتفريع أحكام التذليل، وتعدد مظاهر النفع، رَكوب على وزن فَعول بمعنى مفعول مثل صَبوح ووَضوء وغَبوق: أي بمعنى مركوب ومنها يأكلون، أي وبعض منها يأكلون لحمه، أما مشارب فهي جمع مشرب، وهو مصدر بمعنى مفعول، ويراد به اللبن وخص من بين المنافع لشرفه واعتناء العرب به.

وجاء ذكر المنافع في قوله تعالى: ﴿**ولهم فيها منافع**﴾، ودلالة مجئ منافع نكرة يفيد العموم والشمول، ومجيئها على صيغة الجمع يفيد التعدد والكثرة؛ إذ لا يقتصر نفع الأنعام على مجرد الركوب والشراب والطعام فحسب ففيها منافع أخرى، فهي رأس مال؛ إذ يمكن لصاحبها أن يتاجر فيها، وقد يكون لها منافع أخرى كالعلاج مثلاً لكننا لم نصل إلى بعض هذه المنافع حتى الآن.

(١) التحرير والتنوير: للطاهر بن عاشور جـ١٩، صـ١٧٠.

ومن الآيات التي تحدثت عن الحيوان بوصفه نعمة عامة المنافع قوله تعالى عن الأنعام ﴿**وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ**﴾ (غافر - ٨٠)

وما قيل عن كلمة منافع في الآية السابقة يقال هنا من مجيئها نكرة لتفيد عموم النفع، ومجيئها على صيغة الجمع لتفيد الكثرة والتعدد، وهي تشمل كل مظاهر الانتفاع بالأنعام بأوبارها وألبانها ولحومها وأعواضها في الديات والمهور، واتخاذ جلودها قبابًا وغيرها، أو الانتفاع بجمال مرآها في العيون في المسرح والمراح، كما تشمل الركوب الذي في قوله تعالى: ﴿**لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ**﴾ـ في الآية السابقة لها ـ فذكر المنافع هنا تعميم بعد تخصيص كقوله تعالى: ﴿**وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى**﴾(طه – ١٨)، بعد قوله تعالى: ﴿**هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا**﴾وعن "دلالة الترتيب"هنا ومجئ "منافع"الدالة على عموم المنافع بين منافع خاصة يقول صاحب التحريروالتنوير: "ذكر هنا الشائع المطروق عندهم ثم ذكر مثيله في الشيوع وهو الأكل منها ثم خص من المنافع الأسفار، فإن اشتداد الحاجة إلى الأنعام فيها تجعل الانتفاع بركوبها للسفر في محل الاهتمام"[1].

المحور الثاني: في الحيوان منافع خاصة:-

كما تحدثنا عن ذكر القرآن للحيوان بوصفه نعمة عامة، فإن القرآن الكريم تحدث في غير مرة عن المنافع الخاصة للحيوان؛ اذ حدد في هذه الآيات ما يقدمه الحيوان للإنسان من منافع تعد ضرورة لعيش الإنسان وبقائه، فراح الحيوان يمد الإنسان بكل ما يعينه على العيش في هذه الحياة، إذ قدم له الطعام والشراب والملبس ووسيلة التنقل والدواء كما وفر له الدفء، وهي أشياء ضرورية لحياة الإنسان وبقائه وبغيرها يتهدد بقاء الإنسان على وجه الأرض.

(١) تفسير التحرير والتنوير: للطاهر بن عاشور جـ٢٤، صـ٢١٦.

والحق أن هذه الآيات كثيرة، ونلحظ أن هذه الآيات إنما تتحدث الآية منها عن أكثر من نعمة فهناك من الآيات ما يتحدث عن الحيوان بوصفه وسيلة طعام وشراب أو ركوب وزينة، أو طعام وملبس أو دفء ومنافع لذا سأتناولها فيما يلي:

أولاً: الحيوان طعام للإنسان وفيه مآرب أخرى:-

١ - طعام ووسيلة انتقال:

من أهم أنواع الغذاء للإنسان لحم الحيوان سواء كان بريًا أو بحريًا فمن الطعام يأخذ الإنسان قوته التي تعينه على البقاء والعمل والإنتاج والعبادة التي خلق من أجلها.

وقد جاء ذكر الحيوان بوصفه وسيلة طعام في أكثر من آية ولكن يلحظ مجئ الحيوان في كثير من الآيات مقترنًا بنعمة أخرى، وأكثر ما اقترن بالحيوان كطعام كونه وسيلة انتقال.

ففي قوله تعالى: ﴿**وَمِنَ الأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللّهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ**﴾(الأنعام - ١٤٢)

اقترن ذكر الحيوان كطعام بنعمة أخرى، وفائدة أخرى للحيوان وهي استخدامه كوسيلة نقل، والحمولة: كبار الإبل التي يحمل عليها، والفرش: صغارها"وقال ابن عباس فأما الحمولة: فالإبل والخيل والبغال والحمير، وكل شيء يحمل عليه، وأما الفرش فالغنم"[1].

أما قوله تعالى: ﴿**كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللّهُ**﴾.

أي من الثمار والزروع والأنعام التي خلقها الله لكم وجعلها رزقًا لكم، ولا تفوتنا ملاحظة دلالة الاسم الموصول (ما)، الذي يدل على العموم والكثرة

(١) تفسير الطبري: جـ١٢، صـ١٨٠.

لأن الأصل في الأشياء الإباحة. كما تدل على كثرة ما جعله الله طعامًا للإنسان، ﴿**ولا تتبعوا خطوات الشيطان**﴾: أي طرائقه وأوامره كما اتبعها المشركون الذين بحروا البحيرة، وسيبوا السائبة فحرموا على أنفسهم ما أحله الله.

وقد ارتبط ذكر الحيوان كطعام به كوسيلة ركوب في قوله تعالى: ﴿**اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٧٩) وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ**﴾ (غافر- ٧٩: ٨٠)

فالله قد جعل هذه الأنعام من الإبل والبقر والغنم وغيرها مما يقتنيه أهل الإسلام لمركب أو لمطعم.

يقول الطبري في تفسيره: لتركبوا منها يعني الخيل والحمير، ﴿**ومنها تأكلون**﴾يعني الإبل والبقر والغنم وقال ﴿**لتركبوا منها**﴾ومعناه لتركبوا منها بعضًا ومنها بعضًا تأكلوا[1] .

ونلحظ دلالة "اللام"الداخلة على الفعل المضارع تركبوا والدالة على التعليل فهي لام كي وهي متعلقة بـ "جعل" أي لركوبكم. كما نلحظ دلالة "لكم"الدالة على تخصيص هذه النعم لكم ولفائدتكم ومصلحتكم.

ويذهب بعض المفسرين إلى أن المراد بالأنعام هنا الإبل خاصة وهو ما قال به الألوسي والزمخشري.

ولا أجد قرينة لتخصيص الإبل دون غيرها من الأنعام حيث لم تشتمل الآية على ما يدل على اختصاص الإبل دون غيرها. بل إن ﴿**مِنْ**﴾التبعيصنية تدل على التعدد، يقول ابن كثير في هذه الآية الأنعام هي الإبل والبقر والغنم﴿**وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ**﴾(يس - ٧٢)

(١) تفسير الطبري: جـ٢١، صـ٤٢٠.

فالإبل تركب وتؤكل وتحلب، وتحمل عليها الأثقال في الأسفار والرحال إلى البلاد النائية، والأقطار الشاسعة، والبقر تؤكل، ويشرب لبنها وتحرث عليها الأرض، والغنم تؤكل، ويشرب لبنها، والجميع تجز أصوافها وأشعارها وأوبارها، فيتخذ منها الأثاث والثياب والأمتعة"[1].

وخلق هذه الأنعام وتسخيرها للإنسان وفيها ما هو أضخم منه جسمًا وأشد قوة لهي خارقة في حد ذاتها.

أما عن "دلالة الترتيب" هنا حيث نلحظ تقدم ﴿**لتركبوا منها**﴾ عن ﴿**ومنها تأكلون**﴾ فإن الركوب هنا أعظم منفعة، ويدل على ذلك أيضًا أن الآية التالية تتحدث كذلك عن الحيوان كوسيلة انتقال إذ قال تعالى: ﴿**وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ**﴾ من بلوغ الأسفار الطويلة، وحمل الأثقال إلى البلاد الشاسعة وقضاء فريضة الحج، والغزو، والتجارة وغيرها.

والحاجات التي كانت في الصدور والتي كانوا يبلغونها على الأنعام هي حاجات ضخمة في ذلك الزمان قبل نشوء كل وسائل النقل والسفر والاتصال فلم يكن هناك سوى هذه الأنعام، وما تزال هناك حاجات تبلغ على هذه الأنعام حتى اليوم وغدٍ، وهناك حتى هذه اللحظة أسفار في بعض الجبال لا تبلغها إلا الأنعام مع وجود القطار والسيارة والطائرة لأنها مجازات ضيقة لا تتسع لغير أقدام الأنعام".

وبالفعل حتى يومنا هذا تستخدم قوات حرس الحدود الجِمالَ في إنجاز بعض المهام المرتبطة بحماية الحدود الساحلية منها أو البرية.

ولعل تقديم ذكر الحيوان كوسيلة ركوب على ذكره كطعام أن الأنعام في ذلك الوقت هي وسيلة النقل الوحيدة ولا بديل عنها للتنقل والأسفار، بينما هناك صنوف شتى من الطعام، لذا قدم الأهم على ما هو أقل أهمية،

(١) تفسير ابن كثير: جـ٧، صـ١٥٩.

ولا أقصد هنا أن الطعام أقل أهمية من وسيلة النقل بل أقصد طعام الأنعام تحديدًا لوجود بدائل كثيرة، وهو ما لم يتوفر في وسائل النقل في ذلك الوقت... والله أعلم بمراده.

٢- في الحيوان دفء ومنافع:

وكما اقترن ذكر الحيوان كطعام بكونه وسيلة انتقال نجد نعمًا أخرى تضاف إلى نعمة الطعام والركوب حيث قال تعالى: ﴿**وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُواْ بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ**﴾. (النحل -٥: ٨)

فنلحظ في هذه الآيات نعمًا أخرى غير الطعام والركوب:

أولها الدفء:

وهو بكسر الدال اسم لما يتدفأ به كالملء والحِمل، ويقصد به الثياب المنسوجة من أوبار الأنعام وأصوافها، وأشعارها تتخذ منها الخيام والملابس، فلما كانت تلك مادة النسج جعل المنسوج كأنه مظروف في الأنعام.

"وخص الدفء بالذكر من بين عموم المنافع للعناية به"، وعطف منافع على دفء من عطف العام على الخاص لأن أمر الدفء قلما تستحضره الخواطر"[1].

ثانيًا: المنافع: وهي عامة وقد سبق تناولها.

ثالثًا: مظهر جمالي: وكلمة جمال هنا جاءت نكرة لتفيد عموم الجمال، ويعضد ذلك قوله تعالى حين تريحون وحين تسرحون "أي فيها جمال في كل

(١) تفسير التحرير والتنوير: للطاهر بن عاشور، جـ١٤، صـ١٠٥.

وقت، في وقت الرواح: وهو وقت الرجوع عشيًا بعد المرعى، والسروح: الإسامة أي الغدو بها إلى المراعي ومجئ "تريحون/ تسرحون" بصيغة المضارع لأن المضارع يفيد التجدد والاستمرار لأن ذلك من الأمور المتكررة يوميًا.

وقدم "تريحون" على "تسرحون" لأنها كما يقول ابن كثير: "تكون أمده خواصر، وأعظمه ضروعًا، وأعلاه أسنمة"[١]

رابعًا: زينة:

وذلك في قوله تعالى: ﴿**وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً**﴾

أي زينة تتزينون بها مع المنافع التي فيها لكم للركوب وغير ذلك وأكل لحم الخيل والبغال والحمير محرم ابتداءً "فقد روى خالد بن الوليد ﷺ أن النبي ﷺ نهى عن أكل لحوم الخيل والبغال والحمير.

وعن ابن عباس أنه قال: ﴿**وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً**﴾ هذه للركوب، ﴿**وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ**﴾ قال: وهذه للأكل[٢].

وانظر إلى "دلالة الترتيب" هنا حيث بدئ بالخيل وهو أشرف من الحمار، والبغال بينهما مكانة، ومنهما نسلاً، فالبغل: اسم للذكر والأنثى؛ أمه من الخيل، وأبوه من الحمير، وعكسه البرذون.

والحق: أن تحريم أكل الخيل والبغال والحمير قضية خلافية بين العلماء فقد رأى بعض أهل العلم في هذه الآية دلالة على تحريم أكل لحوم الخيل وخالفهم البعض حيث يرون أن ذلك غير دال على تحريم شيء.

وقد ذكر الطبري في تفسيره تحت عنوان ذكر بعض من كان لا يرى بأسًا بأكل لحم الفرس أن بعض الصحابة قد أكلوا لحم الفرس ويذكر عن جابر

(١) تفسير ابن كثير: جـ٤، صـ٥٥٧.

(٢) تفسير الطبري: جـ١٧، صـ١٧٢.

أنه قال: "كنا نأكل لحم الخيل على عهد رسول الله ﷺ. قلت: فالبغال قال: أما البغال فلا"[١].

وقد ذكر أبو داود في سننه عن جابر بن عبد الله قال ﴿ذبحنا يوم خيبر الخيل والبغال والحمير فنهانا رسول الله ﷺ عن البغال والحمير ولم ينهنا عن الخيل"[٢].

أما عن كونها زينة فيقول صاحب الكشاف "قرئ لتركبوها زينة بغير واو، أي وخلقها زينة لتركبوها أو تجعل زينة حالاً منها أي وخلقها لتركبوها وهي زينة وجمال"[٣].

أماعن لزوم تخصيص الركوب المطلوب بكونه لأجل الزينة وكون الحكمة في خلقها كذلك فيقول الألوسي: "لا ضير فيه لأن التجمل بالملابس والمراكب لا مانع منه شرعًا ولا ينافي أن يكون لخلقها حكم أهم كالجهاد، وسفر الطاعات، "وإنما خص لمناسبته لمقام الامتنان مع أن الزينة مما لا يشين في الدنيا ولا في الآخرة"[٤].

ويرتبط بكون الحيوان زينة وأنه من متاع الحياة الدنيا، ما جاء في سورة آل عمران: إذ قال تعالى: ﴿**زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاء وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ**﴾(آل عمران - ١٤)

والخيل المسومة: أي الراعية أو السائمة المسرحة في الرعي وقيل المطهَّمة، ويقول أبو جعفر: "أولى الأقوال بالصواب هو: المعلمة بالشيات الحسان، والتسويم في كلام العرب هو الإعلام. فالخيل الحسان معلمة بإعلام الله إياها بالحسن من ألوانها وشياتها وهيئاتها، وهي المطهَّمة أيضًا"[٥].

(١) تفسير الطبري: جـ١٧، صـ١٧٤.
(٢) سنن أبي داود: كتاب: الأطعمة، باب: في أكل لحوم الخيل، جـ٣، صـ١٦٣٣، حديث رقم ٣٧٨٩.
(٣) تفسير الكشاف: للزمخشري، جـ٢، صـ٥٧٢.
(٤) تفسير الألوسي: جـ ١٤، صـ١٠١.
(٥) تفسير الطبري: جـ٦، صـ٢٥٤.

ومن ذلك قول النابغة الذبياني في صفة الخيل (الوافر):-

وَضُمْرٍ كالقِدَاحِ مُسَوَّمَاتٍ عَلَيْهَا مَعشَرُ أَشْبَاهِ جِنِّ[١]

وحب الخير كما يروي ابن كثير على ثلاثة أقسام: "تارة يكون ربطها أصحابها معدة لسبيل الله تعالى متى احتاجوا إليها غزوا عليها فهؤلاء يثابون، وتارة تربط فخرًا لأهل الإسلام فهذه على صاحبها وزر، وتارة للتعفف واقتناء نسلها، ولم ينس حق الله في رقابها فهذه لصاحبها ستر"[٢].

والأنعام: يعني الإبل والبقر والغنم.

وليس المقصود هنا تحريم هذه الزينة على الإطلاق قال تعالى: ﴿**قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالْطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِي لِلَّذِينَ آمَنُواْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ**﴾(الأعراف - ٣٢)

ولكن جاءت الآية هنا في معرض ترغيب الناس فيما عند الله في الآخرة من نعيم مقيم، وصرف اهتمامهم عن الانشغال المفرط بزينة الحياة الدنيا والتي مصيرها إلى الزوال والفناء.

هذا بالإضافة إلى كونها نعمة في الإطعام ووسيلة للانتقال تحمل أمتعة الإنسان والتي عبر عنها في سورة النحل بقوله "تحمل أثقالكم"، أي أحمالكم الثقيلة إلى أماكن بعيدة لولا هذه الأنعام لم يكن الإنسان يبلغ هذه الأماكن إلا بشق الأنفس، والتي هي كناية عن الصعوبة البالغة.

(١) ديوان النابغة الذبياني: تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف مصر، صـ١٢٨

(٢) تفسير ابن كثير: جـ٢، صـ٢١.

٣- الحيوان.. طعام فحسب:

وكما اقترنت نعمة الطعام بنعمة الركوب وغيرها من النعم ذكر الحيوان بوصفه طعامًا فحسب دون اقترانه بغيره من النعم حيث قال تعالى: حكاية عن بني إسرائيل ﴿**وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ**﴾(البقرة - ٥٧)

فاختص من الحيوان هنا طائر السلوى الذي أنعم الله به على بني إسرائيل ووصفه الله ﷻ بأنه من طيبات ما رزقهم الله به، لكن لأنهم بنو إسرائيل أهل الجدال والباطل، احتجوا معترضين على هذا الطعام الواحد.

والسلوى أو الحجل كما يقول الدكتور/ زغلول النجار هو الطائر المعروف باسم السمان "أو السماني وهو من طيور الصيد "القنص" التي تم استئناس بعضها كالدجاج والفراخ الرومية، وإن كانت السلوى أصغر حجمًا كثيرًا، ولم يتم استئناسها بعد وهي من الطيور المهاجرة التي تتحرك عبر مساحات كبيرة من الأرض، ولحمه من أطيب لحوم الطير على الإطلاق"[1].

كما جاء ذكر الطعام الذي يخرج من البحر وهو السمك أو كما عبر عنه القرآن: اللحم الطرى.

حيث قال تعالى: ﴿**وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**﴾ (النحل - ١٤)

وفي قوله تعالى: ﴿**وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**﴾ (فاطر - ١٢)

(١) من آيات الإعجاز العلمي الحيوان: دكتور/ زغلول النجار، صـ٢٣٤.

فالعنصر المشترك في الآيتين هو اللحم الطري الذي يستخرج من البحر ويقصد به الأسماك، وتسخير البحر؛ خلقه على هيئة يمكن معها السبح والسير بالفلك، وتمكين الصائدين من صيد الحيتان المخلوقة فيه، أما وصف هذا اللحم بأنه طري، فهو زيادة في الامتنان، فالطري ضد اليابس وهو صفة حميدة في الطعام فيكون مستساغًا سهل الأكل يسير الهضم ويرى صاحب الكشاف: "أن وصفه بالطراوة، لأن الفساد يسرع إليه فيسارع إلى أكله خيفة الفساد" ويضيف "فإن قلت ما بال الفقهاء قالوا: إذا حلف الرجل لا يأكل لحمًا فأكل سمكًا لم يحنث والله تعالى سماه لحمًا كما ترى؟ قلت: مبنى الأيمان على العادة وعادة الناس إذا ذكر اللحم على الإطلاق أن لا يفهم منه السمك وإذا قال الرجل لغلامه: اشتر بهذه الدراهم لحمًا فجاء بالسمك كان حقيقًا بالإنكار"[1] ويرى الألوسي أن "التعبير عن السمك باللحم للتلويح بانحصار الانتفاع به في الأكل"[2].

وفي الآية من سورة فاطر يقول تعالى ﴿**وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا**﴾ أي من كل البحار تأكلون لحمًا طريًا، وذلك السمك من عذبها الفرات وملحها الأجاج.

٤- الحيوان وسيلة انتقال فحسب:

وكما ذكر الحيوان في بعض الآيات منفردًا باعتباره طعامًا فإن هناك آيات تحدثت عن الحيوان بوصفه وسيلة انتقال حيث قال تعالى:

﴿**وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ (١٢) لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ (١٣) وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ (١٤)**﴾. (الزخرف - ١٢: ١٤)

(١) الكشاف للزمخشري: جـ٢، صـ٥٧٤.

(٢) تفسير روح المعاني: للألوسي، جـ٢٢، صـ١٧٩.

والمقصود بـ "ما تركبون" من الأنعام هو الإبل لأنها وسيلة الأسفار وقالوا: الإبل سفائن البر.

ويقول صاحب التحرير والتنوير: "الركوب حقيقته: اعتلاء الدابة للسير، وأطلق على الحصول في الفلك لتشبيههم الفلك بالدابة بجامع السير، و"من الفلك والأنعام" بيان لإبهام (ما) الموصولة في قوله تعالى ﴿**مَا تَرْكَبُونَ**﴾[1].

وعن "دلالة الترتيب" هنا: حيث قدم الفلك على الأنعام لأنها لم يشملها لفظ الأزواج - والذي قصد به هنا الذكر والأنثى من الحيوان - فذكرها ذكر نعمة أخرى ولو ذكر الأنعام لكان ذكره عقب الأزواج بمنزلة الإعادة.

والتعدية بحرف الجر "على" بالنسبة للفلك والأنعام لأن السفائن الكبيرة تكون لها ظهور وهي أعاليها المجعولة كالأسطح لتقي الراكبين المطر والحر والقر، ومثل ذلك **قوله تعالى**: ﴿**فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ**﴾. (المؤمنون - ٢٨)

وعن توحيد الهاء وتذكيرها في قوله تعالى "على ظهوره" يذكر الطبري في تفسيره أن هذه مسألة خلاف بين نحويي البصرة والكوفة فيقول: "قال بعض نحويي البصرة: تذكيره يعود على ما تركبون وما هو مذكر كما يقال: عندي من النساء من يوافقك ويسرك وقد تذكر الأنعام وتؤنث، وقد قال في موضع آخر: "مما في بطونه"، وقال في موضع آخر "بطونها" وقال بعض نحويي الكوفة: أضيفت الظهور إلى الواحد لأن ذلك الواحد في معنى الجمع بمنزلة الجند والجيش"[2].

ومن هذه الآية نتعلم دعاء ركوب الدابة أو ما يقابلها في عصرنا الحديث إذ جاء الأمر من الله عند الاستواء على ظهرها بأن نذكر نعمة الله الذي سخر لنا هذه الدابة فتقول تنزيها لله الذي سخر لنا هذا الذي ركبناه من هذه الفلك والأنعام.

(١) التحرير والتنوير: للطاهر بن عاشور، جـ٢٥، صـ١٧٣.

(٢) تفسير الطبري: جـ٢١، صـ٥٧٤.

وما كنا له مقرنين: أي مطيقين، أي بمجرد القوة الجسدية لولا هذا التسخير المذكور، والمقرن: المطيق يقال: أقرن إذا أطاق وإنا إلى ربنا لمنقلبون: أي راجعون، وفيه كما يقول الألوسي: "إيذان بأن حق الراكب أن يتأمل فيما يلابسه من السير ويتذكر منه المسافرة العظمى التي هي إلى الله تعالى فيبني أموره في مسيره ذلك على تلك الملاحظة ولا يأتي بما ينافيها"[1].

٥- من الحيوان بيوت ومتاع وأثاث:-

وكأن الحيوان قد تعهد الإنسان، واعتبر نفسه مسئولاً عن كل ما يتعلق به، فها هو يوفر له البيت وما يتصل به من متاع وأثاث.

فانظر إلى رحمة الله ﷻ بالإنسان؛ إذ سخر له هذا الحيوان لينتفع به في كل شئون حياته ليتفرغ الإنسان للمهمة التي خلق من أجلها.

قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ﴾ (النحل - ٨٠)

وهل هناك فارق بين البيت والسكن؟

فرغم أن الكلمتين يستخدمهما الناس بمعنى واحد لكن هناك فارقًا بينهما، فالبيت: هو ذلك المكان الذي يحتمي فيه الإنسان من الحر والقر أما السكن: فهو مرتبط بالراحة النفسية والهدوء والاستئناس، وفيه معنى الميل فكأنهما نعمتان في نعمة. نعمة البيت الذي يأوي الإنسان ونعمة الهدوء النفسي الذي يشعر به الإنسان في بيته، والذي هو السبب الأساسي الذي من أجله جعل الله للناس بيوتًا، ويدلنا على ذلك لام التعليل الداخلة على الفعل المضارع "تسكنوا". كما لم يُعدَّ هذا الفعل بحرف الجر "في" فلم يقل "لتسكنوا فيها". بل عدي بحرف الجر "إلى" حيث قال تعالى "لتسكنوا إليها"، وإلى هنا دالة

(١) تفسير روح المعاني: للألوسي جـ٢٥، صـ٦٩.

على انتهاء الغاية، ودلالة ذلك أن البيت هنا غاية السكون، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿**وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ**﴾ (الروم - ٢١)

و"السكن" هنا: اسم بمعنى المسكون وهذا - كما يقول صاحب التحرير والتنوير: "من تعداد النعم التي ألهم الله الإنسان إليها. نعمة الإلهام إلى اتخاذ المساكن، وذلك أصل حفظ النوع من غوائل حوادث الجو من شدة برد أو حر، ومن غوائل السباع والهوام، وهي أيضًا أصل الحضارة والتمدن لأن البلدان ومنازل القبائل تقوم من اجتماع البيوت".

أما عن استخدام الحيوان متمثلاً في جلود الأنعام في البناء فدل عليه قوله تعالى "وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتًا" أي الخيام، والقباب ـ والأجبية والفساطيط المصنوعة من جلود الأنعام"، وهذه بيوت الأعراب في البوادي يتخذونها لأنها أسعد لهم في انتجاعهم"[١].

وهذه البيوت فيها مزية تناسب حياة العربي القديم كثير الترحال سعيًا وراء الماء والكلأ. لذا فإن هذه البيوت تمتاز بالخفة وسهولة انتقالها معهم في أسفارهم لذا قال تعالى: "تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم" إذ يسهل نقضها من مواضعها، وطيها وحملها على الرواحل، كما يسهل ضربها في المكان المنتقل إليه.. وهكذا.

"ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها" قال ابن كثير: "أصوافها أى: الغنم، وأوبارها: أي الإبل وأشعارها: أي المعز"[٢].

(١) التحرير والتنوير: للطاهر بن عاشور جـ ١٤، صـ٢٣٧.

(٢) تفسير ابن كثير: جـ٤، صـ٥٩١.

وهو جانب آخر من جوانب المنفعة، إذ يستخدم الإنسان أصواف وأوبار وأشعار الأنعام في صناعة ما يحتاج إليه من أثاث ومتاع. واعتبر بعض المفسرين أن الأثاث هو المتاع برغم أن بينهما حرف العطف (و)، والعطف يقتضي المغايرة فالطبري يستشهد بقول محمد عبد الله بن نمير الثقفي (الوافر):

أَهَاجَتْكَ الظَعَائِنُ يَومَ بَانوا بِذي الزَي الجَمِيلِ مِنَ الأَثَاثِ[١]

ويضيف: "وأنا أرى الأثاث اجتماع بعض المتاع إلى بعض حتى يكثر كالشعر الأثيت، وهو الكثير الملتف، يقال منه: أثَّ شعر فلان يئثِ أثًا: إذا كثر والتف واجتمع [٢] وقال امرؤ القيس "الطويل":

وفَرعٌ يَزينُ المَتْنَ أسودَ فاحِمٍ أثيتٍ كقِنوِ النَخْلةِ المُتَعثْكِلِ[٣]

لكن هناك اختلافًا بين المتاع والأثاث، فالأثاث أعم من المتاع وبذا قال ابن كثير في تفسيره إذ يقول: "الأثاث أعم من كونه مالاً أو متاعًا، فإنه يتخذ من الأثاث البسط والثياب وغير ذلك، ويتخذ مالاً وتجارة"[٤].

أما صاحب التحرير والتنوير فيقول: "والمتاع أعم من الأثاث، فيشمل الأعدال والخُطُم والرحائل واللبود والعُقُل، فالمتاع: ما يتمتع به وينتفع[٥] " فالفارق بينهما كما نرى مسألة خلافية.

ولعل الرازي في تفسيره يقوم بمحاولة توفيقية حسمًا لهذه الإشكالية؛ إذ يقول: "الأقرب أن الأثاث ما يكتسي به المرء ويستعمله في الغطاء والوطاء،

(١) زهر الآداب وثمر الألباب: لأبي إسحاق إبراهيم بن على القيراوني، تحقيق محمد علي البجاوى، دار إحياء التراث، عيسى البابي الحلبي، ط١، ١٩٥٣، جـ ١، صـ١١٧٤.

(٢) تفسير الطبري: جـ ١٧، صـ٢٦٨.

(٣) جمهرة أشعار العرب فى الجاهلية والإسلام: لأبي زيد بن أبي الخطاب القرشي "ت ١٧٠ هـ" تحقيق أ/ على محمد البجاوي، دار نهضة مصر، صـ١٤٥.

(٤) تفسير ابن كثير: جـ٤، صـ٥٩١

(٥) التحرير والتنوير: للطاهر بن عاشور، جـ١٤، صـ٢٣٩.

والمتاع ما يفرش في المنازل ويزين به[١]".

وسواء كان المتاع أعم من الأثاث، أو الأثاث أعم من المتاع أو هما بمعنى فإن الفائدة واقعة في الأحوال الثلاث، وهي وجوب شكر الله ﷻ على نعمة الأنعام التي ما تركت الإنسان في موقف أو في حاجة من حاجاته ومتطلباته الحياتية إلا وقدمت له يد العون.

واختتمت الآية بقوله تعالى: "أثاثًا ومتاعًا إلى حين "أي إلى أجل مسمى ووقت معلوم. فهذه الأشياء وغيرها مصيرها إلى الزوال ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام.

ثانيًا: الحيوان مصدرًا للشراب:-

ويقصد به اللبن الذي يستخرج من الأنعام، وما له من أهمية كبرى في بناء جسم الإنسان وتغذيته.

قال تعالى: ﴿**وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِلشَّارِبِينَ**﴾. (النحل - ٦٦)

وقال تعالى: ﴿**وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ**﴾(المؤمنون - ٢١)

واسم الأنعام مستمد من (النعمة)، وهي: اليد والصنيعة والمنة لأنها من أجَل ما أنعم الله به على الإنسان من خلائق، و(النعمى) و(النعماء) و(النعيم) مستمدة كذلك من النعمة - يقال فلان واسع النعمة: أي واسع الرزق.

ونلحظ أول ما نلحظ اقتران هذه النعمة بالعبرة في الأنعام، فهي دعوة لأولي الألباب للتأمل في عظم خلق هذه الأنعام التي هي من أدلة قدرته ﷻ، إذ يسقيكم هذا اللبن الذي هو مضرب المثل في بياض اللون، ونقاء

(١) تفسير الرازي: المعروف بمفاتيح الغيب: جـ ٢٠، صـ٩٢.

القوام رغم أنه لم يأت إلا من بين الفرث، وهو الأشياء المأكولة والمنهضمة في الكرش فإذا خرجت من الكرش سميت "روثًا"، والدم الذي يذهب إلى كل خلايا الجسم، فإذا صار إلى غدد اللبن في الضرع تحول إلى لبن ببديع صنع الله العجيب.

وهذه الحقيقة العلمية التي يذكرها القرآن عن خروج اللبن من بين فرث ودم لم تكن معروفة لبشر، وما كان بشر في ذلك العهد ليتصورها، فضلاً على أن يقررها بهذه الدقة العلمية الكاملة".

فهنا تتجلى قدرة الخالق ﷻ؛ إذ يخلق اللبن وسيطًا بين الفرث والدم يكتنفانه، وبينهما برزخ من قدرة الله لا يبغي أحدهما عليه بلون ولا طعم ولا رائحة بل هو خالص من ذلك كله.

يقول صاحب الكشاف: "قيل: إذا أكلت البهيمة العلف فاستقر في كرشها طحنته، فكان أسفله فرثًا، وأوسطه لبنًا، وأعلاه دمًا والكبد مسلطة على هذه الأصناف الثلاثة تقسمها، فتجري الدم في العروق واللبن في الضرع، وتبقي الفرث في الكرش. فسبحان الله ما أعظم قدرته وألطف حكمته لمن تفكر وتأمل"[1].

كما نلحظ تنكير كلمة "عبرة" لتفيد التفخيم، والتعظيم والعموم كذلك، كما نلحظ أن "الأنعام" عبر عنها مرة بضمير المذكر "بطونه" في الآية من سورة النحل كما عبر عنها بضمير المؤنث في الآية من سورة المؤمنون "بطونها".

ومرجع ذلك أن الأنعام - كما يقول الألوسي: "اسم جمع، واسم الجمع يجوز تذكيره وإفراده باعتبار لفظه، وتأنيثه وجمعه باعتبار معناه، ولذا جاء بالوجهين في القرآن وكلام العرب"[2].

(١) تفسير الكشاف: للزمخشري، جـ٢، صـ٥٨٩.

(٢) تفسير روح المعاني: للألوسي، جـ١٤، صـ١٧٦.

كما نلحظ دلالة تقديم "من بين فرث ودم" لأنه موضع العبرة.

ووصف اللبن بأنه خالصًا، أي أنه خلص من مخالطة الدم والفرث فلم يختلطا به، "وسُئِلَ شفيق بن وائل المعروف بحكمته ورجاحة عقله عن الإخلاص فقال تمييز العمل من العيوب كتمييز اللبن من بين فرث ودم"[١].

سائغًا للشاربين: أي يسوغ ويسهل لمن شربه فلا يُغَصُّ به كما يغص الغاص ببعض ما يأكله من الأطعمة، وقيل: إنه لم يُغَص أحد باللبن قط.

واللبن في الإسلام دليل الفطرة، فقد روي عن رسول الله ﷺ أنه ليلة أسري به أُتي بإناءين في أحدهما لبن وفي الآخر خمر فقيل اشرب أيهما شئت قال: فأخذت اللبن فشربته فقيل: أخذت الفطرة أما إنك لو أخذت الخمر غوت أمتك"[٢].

كما أنه أفضل الغذاء على الإطلاق.. فقد روي عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال: إذا أكل أحدكم طعامًا فليقل اللهم بارك لنا فيه وأطعمنا خيرًا منه، وإذا سقي لبنًا فليقل: اللهم بارك لنا فيه وزدنا منه فإنه ليس شيء يجزئ من الطعام والشراب إلا اللبن"[٣]. صدق رسول الله ﷺ

أما عن الفائدة الطبية للألبان فيرصدها لنا الدكتور/ زغلول النجار إذ يقول: "في اللبن العديد من آثار العناصر من أهمها: الكالسيوم، والفوسفور والبوتاسيوم والمغنسيوم، ويليها في الأهمية كل من الصوديوم والكلور"[٤].

---

(١) تفسير الكشاف: للزمخشري، جـ٢، صـ٥٨٩.

(٢) صحيح البخاري: كتاب: أحاديث الأنبياء، باب: وهل أتاك حديث موسى، جـ٢، صـ٣٦٢ رقم ٣٣٩٤.

(٣) سنن أبي داود: كتاب: الأشربة، باب: ما يقول إذا شرب اللبن، جـ٣، صـ١٦١٢، حديث رقم ٣٧٣٠.

(٤) من آيات الإعجاز العلمي الحيوان: للدكتور/ زغلول النجار، صـ٣١٩.

وكلها عناصر صالحة بل ضرورية لبناء جسم الإنسان وتقويته ووقايته من الكثير من الأمراض؛ فهو بمثابة وجبة غذائية متكاملة سهلة الهضم، والعبرة هنا كما أشرت في استخلاص هذا الدم النقي من بين أشياء وأخلاط غير نقية مع احتفاظه بلونه الأبيض ناصع البياض ونقاوته وعدم تأثره بما حوله، ولا اختلاف بين الآية في سورة النحل عن الآية من سورة المؤمنون سوى التعبير عن اللبن في الآية الثانية بقوله تعالى "مما في بطونها"كناية عن اللبن.

ثالثًا: الحيوان وسيلة للشفاء:-

من الأدوار الهامة التي يلعبها العنصر الحيواني في حياة الإنسان أنه يقدم له الدواء، وقد نص القرآن الكريم على ذلك، مشيرًا إلى العسل الذي يخرج من بطون النحل، وذلك من خلال السورة المسماة باسم هذا المخلوق النافع "سورة النحل" لأن الله - تعالى قد نحل إناثها القدرة على جمع رحيق الأزهار، وما بها من غبار الطلح "حبوب اللقاح" من الكثير من النباتات المزهرة وهضمه وتحويله في بطونها إلى ذلك الشراب المختلف الألوان الذي فيه شفاء للناس، والمعروف إجمالاً باسم "عسل النحل".

ويضيف الدكتور/ زغلول النجار "إن هذا العسل يشمل مركبات عديدة من أهمها غذاء ملكات النحل، والشمع، وحبوب اللقاح، والعكبر "صموغ النحل"، وسم النحل"[1].

قال تعالى: ﴿**وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ (٦٨) ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاء لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ**﴾. (النحل – ٦٨: ٦٩)

(١) من آيات الإعجاز العلمي الحيوان: صـ٧٦.

وأول ما نتوقف أمامه قوله تعالى: "وَأَوْحَى رَبُّكَ"، وهي هنا بمعنى ألهمها أو قذف في أنفسها أو المراد بالوحي هنا: الإلهام والهداية والإرشاد. ويقول الألوسي: "إن الله ألهمها وألقى في روعها وعلمها بوجه لا يعلمه إلا اللطيف الخبير"(١).

وأمة النحل من أكثر الأمم نظامًا؛ فلها نظام معيشي صارم، ولها أحوال كثيرة عجيبة.

ونلحظ تكرار "مِنْ" إذ قال تعالى: "من الجبال بيوتًا ومِنَ الشجر ومما يعرشون" فهي كما يقول صاحب الكشاف: "أريد بها معنى البعضية، وألا تبني بيوتها في كل جبل وكل شجر وكل ما يعرش ولا في كل مكان منها"(٢).

وهذا مرتبط بوحي الله لها، فإن الله ﷻ قد أعطى النحل قدرًا هائلاً من الوعي والإدراك، ومنحها القدرة الفطرية على تنظيم مجتمعها تنظيمًا مبهرًا تتوزع فيه المهام والمسئوليات بنظام دقيق دون أن يجور ذلك على الجانب الاجتماعي التكافلي في حياة النحل، من هنا كانت الإشارة إليها بالجمع في تسمية السورة (سورة النحل)، وفي الآيات التي جاء فيها ذكر النحل. كما أعطاها الله قدرًا من الحرية في اختيار بيوتها، وفي اختيار الأزهار التي تأخذ منها الرحيق وحبوب اللقاح مع إعطائها قدرة على الطيران لمسافات كبيرة حتى يتيسر لها ذلك.

ونلحظ هنا مجيء الخطاب بصيغة الضمير المفرد المؤنث ليخص إناث النحل من الشغالات اللائي يقمن بالبحث عن المكان المناسب لبناء البيوت، ثم يقمن بالبناء بذواتهن، ثم القيام على متطلبات البيت من تنظيف، وصيانة، وترميم، وحماية، وتهوية ﴿**ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ**﴾: يقول صاحب الكشاف

(١) تفسير روح المعاني: للألوسي، جـ١٤، صـ١٨١.
(٢) تفسير الكشاف: للزمخشري، جـ٢، صـ٥٩١.

"ثم اقصدي كل الثمرات ﴿فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ﴾: فاسلكي في طلبها في مظانها سبل ربك"[١].

ولكن تستوقفنا إضافة السبل إلى الرب، وهي إشارة إلى أن الله ﷻ سبحانه هو الذي هيأ لها تلك السبل، ويسرها لها وهو القائم بمصالحها ومعايشها ويعضد ذلك قوله تعالى ﴿ذُلُلاً﴾: أي مُذلَّلة، وهي مبنية لما لم يُسم فاعله للعلم به، فالله ﷻ هو الذي ذللها لها وسهلها لها.

وينقل الألوسي عن ابن عبد السلام قوله: "وصف السبل بالذلل دليل على أن المراد بالسبل مسالك الغذاء لا طرق الذهاب أو الإياب قال: لأن النحل تذهب وتئوب في الهواء، وهو ليس طرقًا ذللاً لأن الذلول هو الذي يذلل بكثرة الوطء، والهواء ليس كذلك"[٢].

وهو ما يمهد لنا الطريق أمام رأي فريق آخر من العلماء يفسر قوله تعالى "فاسلكي سبل ربك ذللاً" بالطرق التي يرشح منها الغذاء الذي تأكله شغالات النحل إلى فمها فيخرج عسلاً، وبه قال الزمخشري "الكشاف"، وأبو حيان في "تفسير البحر المحيط"، والنسفي "في مدارك التنزيل وحقائق التأويل.. وغيرها.

ويفصل د. زغلول النجار في الأمر بقوله: "ويأتي العلم الحديث مؤكدًا أن الله تعالى - قد زوّد شغالات النحل بأربع مجموعات من الغدد التي تنتقي من غذائها: العسل، والغذاء الملكي، والشمع، والخمائر، والسموم وليس هذا لغير شغالات النحل"[٣].

(١) تفسير الكشاف: للزمخشري: جـ٢، صـ٥٩١.
(٢) تفسير روح المعاني: للألوسي، جـ١٤، صـ١٨٤.
(٣) من آيات الإعجاز العلمي الحيوان: الدكتور/ زغلول النجار، صـ٩٧.

ويضيف: إن هذه الآية تتجاوز مجرد تمكن شغالات النحل من التحرك من خلاياها دون أن تضل الطريق مهما تباعدت المسافات إلى معنى آخر يشمل الطريق التي ألهمها الخالق ﷻ أن تصنع عبرها ذلك الشراب الشافي مما جمعته بواسطة العديد من الخلايا الحيوية"[١].

"يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه" ولا خلاف بين المفسرين على أن المقصود بهذا الشراب العسل لأنه مما يشرب، مختلف ألوانه: منه أبيض وأسود وأصفر وأحمر.

لكن دكتور/ زغلول النجار يؤكد أن هذا الشراب المختلف الألوان "يشمل كلاً من عسل النحل، والغذاء الملكي، وما بهما من حبوب اللقاح، وصمغ النحل "العكبر"، وشمع النحل، وسم النحل، وقد فهم جميع المفسرين من هذه الإشارة أنها تقصد عسل النحل، لأن بقية ما يخرج من بطن النحلة الشغالة لم يعرف إلا في القرنين التاسع عشر والعشرين"[٢].

﴿**فِيهِ شِفَاء لِلنَّاسِ**﴾: إشارة إلى ما يخرج من بطون النحل.

ونلحظ هنا مجئ الشفاء - كما يقول صاحب التحرير:

"مظروفًا في العسل على وجه الظرفية المجازية، وهي الملابسة للدلالة التي تمكن ملابسة الشفاء إياه، وإيماء إلى أنه لا يقتضي أن يطرد الشفاء به في كل حالة من الأمزجة، أو قد تعرض للأمزجة عوارض تصير غير ملائم لها شرب العسل. فالظرفية تصلح للدلالة على تخلف المظرف عن بعض أجزاء الظرف لأن الظرف يكون أوسع من المظروف غالبًا"[٣].

---

(١) من آيات الإعجاز العلمي الحيوان: صـ١٠٠.

(٢) نفسه: صـ١٠٧.

(٣) تفسير التحرير والتنوير: للطاهر بن عاشور، جـ١٤، صـ٢٠٩.

وهنا نسترشد بما قاله ابن كثير "قوله: فيه شفاء للناس أي في العسل شفاء للناس من أدواء تعرض لهم. قال بعض من تكلم في الطب النبوى: لو قال: "فيه الشفاء للناس" لكان دواء لكل داء لكنه قال "فيه شفاء للناس" أي يصلح لكل أحد من أدواء باردة، فإنه حار، والشيء يدوای بضده"[١].

فليس تنكير كلمة "شفاء" قطعي الدلالة على أنه شفاء عام من كل الأدواء، ففي السنة النبوية المشرفة إرشادات للتداوي بغير العسل مثل التداوي بالحبة السوداء، والحجامة - من هنا كان الاستنتاج المنطقي أنه لا يلزم أن يكون العسل علاجًا لكل داء.. بل لكثير من الأدواء، فقد أمر النبي ﷺ بالعسل في غير مرة.

فعن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: "الشفاء في ثلاثة، في شرطة محجم أو شربة عسل أو كية بنار وأنا أنهى أمتي عن الكي"[٢].

كما روي عن أبي سعيد أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال: أخي يشتكي بطنه فقال اسقه عسلاً ثم أتاه الثانية فقال: اسقه عسلاً ثم أتاه الثالثة فقال اسقه عسلاً فقال قد فعلت فقال: صدق الله وكذب بطن أخيك اسقه عسلاً فسقاه فبرئ"[٣].

وقد كشف لنا العلم الحديث أن في العسل شفاء لكثير من الأمراض رصدها الدكتور/ زغلول النجار في كتابه تحت عنوان من الفوائد العلاجية للشراب المختلف الألوان نذكر منها:

- أنه مضاد حيوي قوي ومطهر من الطراز الأول.

- له دور فعال في علاج قروح الفراش، وأمراض الجلد وتشققاته وحروقه.

- له دور بارز في علاج حالات التهاب الجهاز الهضمي مثل التهاب المعدة والأمعاء والاثنى عشر، والاضطرابات المعدية، وفي علاج التهابات الفم والبلعوم.

(١) تفسير ابن كثير: جـ٤، صـ٥٨٢.

(٢) صحيح البخاري: كتاب: الطب، باب: الشفاء في ثلاثة، جـ٤، صـ١٣، رقم ٥٦٨٠.

(٣) نفسه: كتاب: الطب، باب: الدواء بالعسل، جـ٤، صـ١٤، رقم ٥٦٨٤.

- له دور واضح في تحسين وظائف الكبد وتنشيطه.
- له دور مهم في تقوية القلب، وضبط نبضاته، وضبط ضغط الدم.
- له دور فعال في علاج ألم المفاصل الروماتيزمية.
- له دور فعال في علاج أمراض الجهاز العصبى.
- له دور واضح في تقوية جهاز المناعة.[١]

فخلق النحل. وإلهامه، وتيسير سبل إخراج العسل الذي فيه شفاء للناس لهو آية جلية من آيات قدرة الله ﷻ وهي بحق دعوة للتفكير وإعمال العقل، لذا كان من المناسب تمامًا أن تختتم الآية بقوله تعالى "... إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون".

رابعًا: الحيوان مظهر من مظاهر القوة:-

من المنافع التي يقدمها الحيوان للإنسان أنه يكون سببًا من أسباب قوته، ومظهرًا من مظاهر فتوته.

ورمز القوة هنا هو الخيل الذي يمثل للعربي أهمية بالغة، فهو "حيوان قوي البنية، شديد الذكاء، نبيل الطباع هادئ، رصين، ليست له طبيعة عدوانية إلا إذا هوجم بقوة، له طبيعة رقيقة"[٢].

وعن عبد الله بن عمر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "الخيل في نواصيها الخير إلى يوم القيامة"[٣].

---

(١) من آيات الإعجاز العلمي: للدكتور/ زغلول النجار، صـ١١٩ وما بعدها.

(٢) من آيات الإعجاز العلمي: صـ٥٩١.

(٣) صحيح البخاري: كتاب: الجهاد والسير، باب: الخيل في نواصيها الخير، جـ٢، صـ٢٢٤، حديث رقم ٢٨٤٩.

وقد عبر القرآن الكريم عن الخيل بوصفه مصدرًا للقوة في قوله تعالى:

﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ﴾ (الأنفال - ٦٠)

و"القوة" قال السدي وآخرون هي السلاح.

وأغلب أهل العلم على أن المقصود بالقوة: الرمي استنادًا إلى حديث النبي ﷺ، فعن أبي علي ثُمامة بن شُفي أنه سمع عقبة بن عامر يقول: سمعت رسول الله ﷺ وهو على المنبر يقول: "وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة" ألا إن القوة الرمي ألا إن القوة الرمي ألا إن القوة الرمي "[1] صدق رسول الله ﷺ.

ولأن الله ﷻ لا يكلف نفسًا إلا وسعها فجاء قوله "ما استطعتم، أي حسب طاقتكم وجهدكم، "ما" الموصولة تدل هنا على بلوغ الغاية في الاستطاعة، وفي ذلك تخفيف من الله ﷻ، ودعوة للأخذ بأسباب النصر. فلم يسجل التاريخ للإسلام نصرًا واحدًا بسبب كثرة العدة والعتاد، بل إن الله ﷻ ينصر المسلمين لقوة إيمانهم، ولكن أيضًا علينا الأخذ بأسباب النصر. فهل يصح أن يسير العالم في ركب الحضارة والتقنية المتقدمة في صناعة السلاح والأدوات الحربية ونكتفي نحن بالمكوث في المساجد منتظرين النصر؟ فعلينا الأخذ بالأسباب وليس في الحروب فحسب، بل في كل أمور حياتنا. فدلالة تنكير "قوة" تدل على عموم القوة والأخذ بكل أنواعها، فإذا كانت قوة هذا الزمان هي علوم الحاسوب فعلينا الأخذ بها، أما "رباط الخيل" فهي الخيل التي تربط في سبيل الله تعالى و"رباط" هنا على وزن فِعال التي تأتي بمعنى مفعول وعطف "رباط الخيل" على القوة، من عطف الخاص على العام للاهتمام بذلك الخاص، وربط

(١) صحيح مسلم بشرح النووي: مكتبة الإيمان بالمنصورة، بدون تاريخ، كتاب: الإمارة، باب: فضل الرمي والحث عليه، جـ٧، صـ٥٧، رقم ١٩١٧

الخيل في سبيل الله أمر محمود، فعن أبي هريرة أنه قال: قال رسول الله ﷺ: "من احتبس فرسًا في سبيل الله إيمانًا بالله وتصديقًا بوعده فإن شِبَعَهُ ورِيَّهُ ورَوَثَه وبَوْله في ميزانه يوم القيامة"[1].

وهو ما يدلنا على حرص الإسلام على الرفق بالحيوان.. فكأن في هذا الحديث دعوة متضمنة مفادها ضرورة الاهتمام بهذا الحيوان وحسن رعايته و"رِبَاطِ الْخَيْلِ" ترمز إلى القوة في كل زمان ومكان، ففي عصرنا هذا لا يناسب الحروب ركوب الخيل، بل يناسبها ما وصلت إليه العلوم الحديثة، وإدارة الحروب من داخل الغرف المكيفة فعلينا التسلح بما يناسب عصرنا من كل أنواع القوى المختلفة.

ثم يأتي نصر الله الموعود بعد ذلك مع الإيمان، فكأن اتخاذ أسباب النصر ما هو إلا من باب الأخذ بالأسباب، وفي كثير من انتصارات المسلمين قد كفى الله فيها المؤمنين شر القتال مثل غزوة الأحزاب قال تعالى: ﴿**وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا**﴾(الأحزاب - ٢٥)

لما أرسل الله على المشركين ومن شايعهم ريحًا وجنودًا لم يروها، وكذلك في غزوة بني النضير في السنة الرابعة من الهجرة؛ إذ امتن الله على المؤمنين بالنصر وحصد الفيء دون جهد منهم ولكنهم كانوا آخذين بالأسباب من قوة ومن رباط الخيل إذ قال تعالى: ﴿**وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾ (الحشر - ٦)

(١) صحيح البخاري: كتاب: الجهاد والسير، باب: من احتبس فرساً في سبيل الله، جـ٢، صـ٢٢٤، رقم ٢٨٥٣

وقوله تعالى: "فما أوجفتم": من الإيجاف وهو نوع من سير الخيل وهو سير سريع بإيقاع، وأريد به الركض للإغارة لأنه يكون سريعًا.

"أما الركاب": فهو اسم جمع للإبل التي تركب.

والمعنى: ما أغرتم عليه بخيل ولا إبل"[١]

إذن فأسباب النصر مأخوذ بها لكن الله ﷻ كفى المؤمنين عنت المشقة في هذه الحروب وغيرها لحكمة يعلمها سبحانه.

وهناك ذكر آخر للخيل الغازية في سبيل الله بل سميت السورة باسمها "العاديات".

إذ قال تعالى: ﴿**وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا**﴾. (العاديات - ١: ٥)

فالله ﷻ يقسم بالعاديات، وله سبحانه أن يقسم بما شاء من خلقه، وليس لنا إلا أن نقسم به ﷻ.

و"العاديات" جمع مفردها العادية، وهي اسم فاعل من "عدى" بمعنى العدو، وهو السير السريع.

ومعظم أهل العلم على أن العاديات يقصد بها الخيل الغازية في سبيل الله، بيد أن هناك بعض أهل العلم يرى أن المقصود بها الإبل.

فقد جاء في تفسير الطبرى: "عن ابن عباس قال "والعاديات ضبحا"، قال: الخيل وزعم غير ابن عباس أنها الإبل".

ولكننا سنسير مع رأي الجمهور في أن المقصود بها الخيل بدلالة "ضبحا" "فعن ابن عباس قال ما ضبحت دابة قط إلا كلب أو فرس"[٢].

(١) تفسير التحرير والتنوير: للطاهربن عاشور، جـ٢٨، صـ٧٩.

(٢) تفسير الطبري: جـ ٢٤، صـ٥٥٨.

كما استخدم الضِباح للثعلب.. فيقول ذو الرمة "الطويل".

سَبَارِيتَ يَحْلو سَمْعُ مجتازِ خِرقِها مِنَ الصَوتِ إلَّا مِنْ ضُبَاحِ الثَعَالِبِ[١]

و"الضبح" كما قال الأصفهاني: "صوت أنفاس الفرس تشبيهًا بالضباح وهو صوت الثعلب"[٢].

إذن لم يقل أحد إن الضبح صوت الإبل، وقال صاحب التحرير والتنوير "الضبح لا يطلق على صوت الإبل في قول أهل اللغة"[٣].

ولا تكون العاديات غازية في سبيل الله بنفسها بل عليها فرسان فيكون ذلك كناية عن نسبة كقول زياد الأعجم "الكامل":

إنَّ السَماحَةَ والمُروءَةَ والنّدَى في قُبةٍ ضُرِبَتْ على ابنِ الحَشْرَجِ[٤]

فيكون مدح الخيل هنا لأنها هي التي تحمل المجاهدين في سبيل الله. كما اجتمعت صفات الكمال في هذه القبة التي ضربت على ابن الحشرج... والله أعلم، "والموريات قدحا" يقول عنها صاحب التحرير والتنوير: "يجوز أن تكون مستعارة لإثارة الحرب لأن الحرب تشبه بالنار.. قال تعالى: "كُلَّمَا أَوْقَدُواْ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللهُ" "المائدة - ٦٤"

فتكون "قدحًا" ترشيحًا لاستعارة "الموريات"، "الموريات: التي توري أي تقدح، القدح: حَكُّ جسم على آخر ليقدح نارًا"[٥].

(١) ديوان ذى الرمة: المكتب الإسلامي للطباعة والنشر، ط٢، ١٩٦٤، صـ٨٢

(٢) غرائب القران ورغائب الفرقان: نظام الدين الحسن بن محمد بن الحسين القمي النيسابوري "ت ٧٢٨ هـ"، تحقيق أ/ إبراهيم عطوة عوض، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ط١، ١٩٧٠، كتاب: الضاد، جـ٢، صـ٣٨١.

(٣) التحرير والتنوير: للطاهر بن عاشور، جـ٣٠، صـ٤٩٩.

(٤) هو زياد بن سليمان الأعجم، أبو أمامة العبدي مولى بن عبد القيس شاعر أموي وأحد فحول الشعر بخراسان كانت في لسانه عجمة فلقب بالأعجم ت١٠٠هـ. انظر: الأغاني للأصفهاني جـ١٠ صـ١٤٨

(٥) التحرير والتنوير: للطاهر بن عاشور جـ ٣٠، صـ٤٩٩ - ٥٠٠.

والمور ـ كما يقول الأصفهاني ـ "الجريان السريع يقال: مار يمور مورًا "يوم تمور السماء مورًا"، والمور: التراب المتردد به الريح "[١] .

المغيرات صبحًا: الإغارة تطلق على غزو الجيش، هذا من الإعجاز العقلي فإن المغيرين راكبوها لكن الخيل سبب أو وسيلة للإغارة،

صبحًا: ظرف زمان لأنهم كانوا لا يغزون إلا بعد الفجر.

"لذا كان منذر الحي إذا أنذر قومه بمجئ العدو نادى: يا صباحاه"[٢] .

قال تعالى: ﴿**فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاء صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ**﴾(الصافات ١٧٧)

"أثرن به نقعًا"يقصد به إثارة التراب وشدة تحريكه بما يدل على شدة عدوهم وقوتهم، والنقع: الغبار.

وقد قال حسان ثابت "الوافر":

عَدِمْنَاَ خيلَنا إن لَمَ تَروْها تُثِيرُ النقعَ مَوعِدُهَا كِدَاءُ [٣]

ثم تأتي باقي الآيات لتصف هذه الخيل العادية التي تتسم بالسرعة والخفة في غارتها على الأعداء صبحًا مثيرة للنقع فتفرق جموع القوم، كناية عن قوتها وشدة اندفاعها.. في صورة تمتاز برشاقة الحركة وخفتها وتلاحق وتسارع تفصيلاتها والتي دل عليها حرف العطف "الفاء".

فكانت الخيل هنا رمز القوة، ومظهر الغلبة والنصر والفخر وهو دور إضافي للحيوان في حياة الإنسان.

(١) غرائب القرآن: للأصفهاني كتاب: الميم، جـ٢، صـ٦١٨.
(٢) التحرير والتنوير: للطاهر بن عاشور، جـ ٣٠، صـ٥٠٠.
(٣) خزانة الأدب: للبغدادي، جـ ٩، صـ٢٣١.

خامسًا: من صبر الله على عبده.. الإبقاء على الدواب:-

خلق الله الإنسان وسخر له كل ما في الكون من أجل أن يقوم الإنسان بدوره في الحياة خير قيام، والدواب مما سخره الله ﷻ لخدمة الإنسان ومنفعته، ولكن كثيرًا من الناس يظلمون أنفسهم بالوقوع في المعاصي فيستحقون عذاب الله ﷻ، بيد أن الله ﷻ يصبر على عباده ويمهلهم، ومن مظاهر هذا الصبر الإبقاء على الدواب التي ما خلقها الله ﷻ إلا لنفع الإنسان، وتلبية مختلف احتياجاته لأن في فناء هذه الدواب فناء للإنسان.

قال تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاء أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُون﴾(النحل - ٦١)

وقال تعالى:

﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ وَلَكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاء أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرً﴾(فاطر- ٤٥)

وإن كان بعض المفسرين قد ذكر أن الدابة يقصد بها العبد الظالم فإن في قوله تعالى "ما ترك عليها من دابة" تشمل الحيوانات كذلك والتي قد تتأثر بظلم الظالم، ومعصية العاصى، فقد روى البيهقي في شُعَبِه "عن أبي هريرة أنه سمع رجلاً يقول: إن الظالم لا يضر إلا نفسه، فقال أبو هريرة: بلى والله، حتى الحُبَارى لتموت في وكرها هُزالاً لظلم الظالم"[1] .

وذكر أيضًا: عن عبد الله قال: كاد الجعل[2] أن يعذب في جحره بذنب ابن آدم ثم تلا هذه الآية: "ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها

(١) شعب الإيمان: للإمام أبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي "ت ٤٥٨هـ"تحقيق أبو هاجر محمد السعيد، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، فصل في ذكر ما ورد في التشديد في الظلم،جـ٦، صـ٥٤،حديث رقم ٧٤٧٩

(٢) الجعل: حيوان كالخنفساء يكثر في المناطق الريفية.

مـن دابـة"[١] .

فالظالم بظلمه يضر نفسه وغيره من الناس والدواب، قال تعالى:

﴿وَاتَّقُواْ فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾(الأنفال- ٢٥)

وقـال قتـادة: "قـد فعـل الله ذلـك في زمـن نـوح، فأهلـك مـن عـلى الأرض إلا من كان في سـفينة نـوح عليه السلام"[٢] .

وقـال الـرازي في تفسـيره: "إذا كان الله يؤاخـذ النـاس بـما كسـبوا فـما بـال الـدواب يهلكـون؟

نقـول: الجـواب مـن وجـوه أحدهـا: أن خلـق الـدواب نعمـة فـإذا كفـر النـاس يزيـل الله النعـم، والـدواب أقـرب النعـم للإنسـان [٣] أمـا عـن دلالـة قولـه تعـالى: "مـا تـرك عليهـا مـن دابة" فـإن الضمـير في "عليها" يـدل عـلى الأرض وإن لم يذكـر لفظهـا فـإن المقـام دال عليهـا، وكلمـة "مـن دابة" تـدل عـلى المبالغـة في النفـى: أي مـا تـرك عليهـا أي دابـة فـدل ذلـك عـلى إهـلاك النـاس ودوابهـم معهـم إذا شـاء لأن اسـتئصال أمـة يشـتمل عـلى اسـتئصال دوابهـا عقابًـا للظالمـين ليـس عقابًـا للـدواب[٤] .

ويقـول صاحـب التحريـر والتنويـر "واقتـضى قولـه تعـالى مـن دابة إهـلاك دواب النـاس معهـم لـو شـاء الله تعـالى ذلـك لأن اسـتئصال أمـة يشـتمل عـلى اسـتئصال دوابهـا؛ لأن الـدواب خلقـت لنفـع النـاس، فـلا بـدع مـن أن يسـتأصلها الله إذا اسـتأصل ذويهـا فيكـون الاقتصـار عـلى ذكـر دابـة في هـذه الآيـة إيجـاز، لأنـه إذا كان

(١) شعب الإيمان: للبيقهى، جـ٦، صـ٥٤، حديث رقم ٧٤٧٨.

(٢) تفسـير البغـوي "معـالم التنزيـل": لمحيـي السـنة أبـو محمـد الحسـين بـن مسـعود البغـوي "ت ٥١٦هـ" دار طيبـة، ط٤، ١٩٩٧، جـ٥: صـ٢٦.

(٣) تفسير الرازي: جـ٢٦: صـ٣٧.

(٤) لعلنـا عاصرنـا بعضـاً مـن هـذا في أزمـة إنفلونـزا الطيـور وفنـاء جيـل كامـل مـن الدواجـن ومـا لحـق بالنـاس مـن ضرر بالـغ جـراء ذلك.

ظلم الناس مفضيًا إلى استئصال الدواب كان العلم بأنه مفض على استئصال الظالمين حاصلاً بدلالة الاقتضاء"[١].

أما عمن يقع بهم العذاب من غير الظالمين فقد روي عن عبد الله بن عمر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول إذا أراد الله بقوم عذابًا أصاب العذاب من كان فيهم ثم بعثوا على نياتهم"[٢].

فلا ينال البرئ العذاب الأُخروي إذ قال تعالى:

﴿وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ (الأنعام - ١٦٤)

من هنا كان الإبقاء على نعمة الدواب يدل على صبر الله ﷻ على عباده إمهالاً لهم لعلهم يعودون إلى صوابهم وإلا حُقَّ عليهم العذاب يوم القيامة.

سادسًا: الحيوان.. وتقويم سلوك الإنسان:-

وهنا ليست العلاقة مباشرة، فقد جعل الله ﷻ للإنسان في الحيوان العبرة والعظة.

وغض الصوت من حسن الأدب، وهو صفة حميدة تدل على الثقة بالنفس، والاطمئنان إلى صدق الحديث، وتقدير الآخر واحترامه كذلك.

لذا كانت هذه الوصية من بين الوصايا التربوية التي وعظ بها لقمان الحكيم ابنه ليعلمه، ويتم له مكارم الأخلاق.

قال تعالى: ﴿**وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ**﴾. (لقمان - ١٩)

---

(١) التحرير والتنوير: للطاهر بن عاشور، جـ١٤، صـ١٩٠.

(٢) صحيح مسلم: كتاب: الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: الأمر بحسن الظن بالله، جـ٩، صـ١٧٨، حديث رقم ٢٨٧٩

ورفع الصوت مذموم لا سيما عند عدم الحاجة إليه، كما أنه مذموم عند من هو أكبر شانًا؛ فقد عاتب الله ﷻ الصحابة على رفع صوتهم في مجلس رسول الله ﷺ إذ قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ**﴾. (الحجرات -٢)

وامتدح من يغضون صوتهم عند رسول الله إذ قال تعالى:

﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ**﴾. (الحجرات -٣)

ووصف الصوت المرتفع بأنه أنكر الأصوات وأوحشها وتشبيهه بصوت الحمار له دلالته: يقول صاحب الكشاف: "والحمار مثل في الذم البليغ والشتيمة، وكذلك نهاقه، ومن استفحاشهم لذكره مجردًا وتفاديهم من اسمه: أنهم يكنون عنه ويرغبون عن التصريح به، فيقولون: الطويل الأذنين، كما يكنى عن الأشياء المستقذرة، وقد عُدَّ في مساوئ الآداب: أن يجري ذكر الحمار في مجلس قوم من أولي المروءة "[1].

وعن دلالة "من": فهي تدل على خفض الصوت وجعله دون الجهر فـ(مِنْ) هنا بتعيضية لتفيد أن المقصود غض بعض الصوت دون المبالغة في الخفض، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿**قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ**﴾. (النور - ٣٠)

أما عن اختيار صوت الحمار دون غيره من الأصوات في هذا المقام فله دلالة واضحة، إذ أثبتت التجارب المعملية الحديثة العلو المفرط لنهيق الحمار، وارتفاع صوته عن غيره من الحيوانات.

(١) الكشاف: للزمخشري، جـ٣، صـ٥٢٦.

ويرجع دكتور/ زغلول النجار هذا الارتفاع في الصوت إلى رؤية الحمار للشياطين فيقول "سبب العلو المفرط في نهيق الحمير هو ذلك الفزع الذي ينتابها عند رؤية الشياطين، وذلك لقول المصطفى ﷺ: "إذا سمعتم صياح الديكة فاسألوا الله من فضله فإنها رأت ملكًا وإذا سمعتم نهيق الحمار فتعوذوا بالله من الشيطان فإنها رأت شيطانًا"(١) .

ويذكر دكتور/ زغلول النجار تأكيد الدراسات الحديثة على أن الضوضاء صورة من صور تلوث البيئة، وأن هناك علاقة وثيقة بين الاستقرار البدني والنفسي للكائن الحي، بل وللجمادات في وسط ما وبين مستوى الضجيج السائد في ذلك الوسط؛ فالضوضاء الصاخبة تؤدي إلى خلل واضح في أنشطة ووظائف الأجهزة المختلفة في جسم الإنسان"(٢) .

والجدول البياني التالي (٣) يؤكد أن صوت الحمير أعلى أصوات الكائنات الحية على الإطلاق:

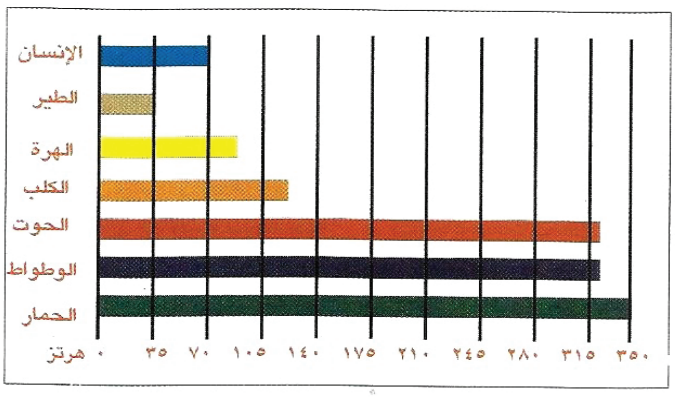

شدة الصوت (مقدرة بـ الهيرتز أي بعدد الذبذبات في الثانية)

(١) صحيح مسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب: استحباب الدعاء عند صياح الديك، جـ٩، صـ٤١ حديث رقم ٢٧٢٩

(٢) من آيات الإعجاز العلمي الحيوان: للدكتور/ زغلول النجار، صـ٣٠٩.

(٣) نفسه: صـ٣٠٨.

فهـا هـو العلـم الحديـث يتوصـل مؤخـرًا إلى مـا أخـبر عنـه القـرآن الكريـم منـذ أكثـر مـن أربعـة عـشر قرنًـا فيختـار الحـمار دون باقـي المخلوقـات ليعـبر بـه عن أشـد الأصـوات قـوة وأعلاهـا ارتفاعًـا. وكان في صـوت الحـمار العـبرة وأخـذ الـدرس في ضرورة الخفـض مـن الصـوت وعـدم رفعـه دون حاجـة.

المبحث الثالث: المحرم والمباح في طعام الحيوان

كـما جعـل الله ﷻ مـن الحيـوان طعامًـا للإنسـان، فإنـه قـد وضـع ضوابـط لذلـك، فلـم يحـل كل أنـواع الحيـوان طعامًـا للإنسـان فأحـل لـه الأنعـام، وحـرم عليـه لحـم الخنزيـر - مثـلاً.

والأصـل في الأشـياء كلهـا الإباحـة مـا لم يـرد بذلـك نـص صريـح، ومـن الثابـت أن الله ﷻ لا يحـرم عـلى الإنسـان شـيئًا أو يبيـح لـه شـيئًا إلا لمصلحـة الإنسـان ونفعـه.

أولاً: ذم المشركين لتحريمهم ما أحل الله:-

وقضيـة الحـلال والحـرام مـن أمـر الله ﷻ، وليـس لمخلـوق أن يحـرم مـا أحـل الله، أو يحـل مـا حـرم الله.. لـذا فقـد رد الله في كتابـه العزيـز عـلى المشركـين الذيـن صنفـوا الأنعـام إلى بحـيرة وسـائبة ووصيلـة وحـام مبينًـا جهلهـم المطبـق وضلالهـم البـواح في أنـه جـل شـأنه لم يحـرم شـيئًا مـن هـذا وأنهـم مـا فعلـوا ذلـك إلا افـتراءً وكذبًـا. قـال تعـالى: ﴿**مَـا جَعَلَ اللّـهُ مِـن بَحِـيرَةٍ وَلاَ سَـآئِبَةٍ وَلاَ وَصِيلَـةٍ وَلاَ حَامٍ وَلَـكِنَّ الَّذِيـنَ كَفَـرُواْ يَفْـتَرُونَ عَـلَى اللّـهِ الْكَـذِبَ وَأَكْثَرُهُـمْ لاَ يَعْقِلُونَ**﴾ (المائدة – ١٠٣)

وعـن تفسـير هـذه الآيـة قـال أبـو جعفـر: يقـول تعـالى ذكـره: مـا بحـر الله بحـيرة، ولا سـيَّب سـائبة، ولا وصـل وصيلـة، ولا حمـى حاميًـا ولكنكـم فعلتـم ذلـك أيهـا الكفـرة فحرمتمـوه افـتراء عـلى ربكـم[1].

(١) تفسير الطبري: جـ١١، صـ١١٦.

وعن أبي هريرة ﷺ أنه قال: قال رسول الله ﷺ "رأيت عمرو بن عامر بن لُحَيٍّ الخزاعي يجر قُصَبَهُ[١] في النار وكان أول من سيب السوائب"[٢].

والبحيرة: فعيلة بمعنى مفعولة أي مبحورة، والبحر الشق، فالبحيرة هي الناقة: كانوا يشقون أذنها بنصفين طولاً علامة على تخليتها أي أنها لا تركب ولا تنحر ولا تمنع عن ماء ولا عن مرعى ولا يجزرونها ويكون لبنها لطواغيتهم أي أصنامهم وإنما يجعلونها بحيرة إذا نتجت عشرة أبطن، وقيل إذا نتجت خمسة أبطن وكان الخامس ذكرًا، وإذا ماتت حتف أنفها حل أكل لحمها للرجال، وحرم على النساء.

أما السائبة: البعير أو الناقة تُجعل نذرًا عن شفاء من مرض أو قدوم من سفر فيقول: أجعلها لله سائبة، وحكم السائبة عندهم كالبحيرة في تحريم الانتفاع بها، فيكون ذلك كالعتق، وكانوا يدفعونها إلى السدنة ليطعموا من ألبانها أبناء السبيل، وكانت علامتها أن تقطع قطعة من جلدة فقار الظهر فيقال لها: صريم، وجمعه صُرم وإذا ولدت الناقة عشرة أبطن كلهن إناث متتابعات سيبوها كذلك، وما تلده السائبة يكون بحيرة في قول بعضهم.

والوصيلة من الغنم: هي الشاة التي تلد أنثى بعد أنثى فتسمى الأم وصيلة لأنها وصلت أنثى بأنثى.

وقال الجمهور: الوصيلة أن تلد الشاة خمسة أبطن أو سبعة (على اختلاف مصطلح القبائل) فالأخير إذا كان ذكرًا ذبحوه لبيوت الطواغيت، وإن كانت أنثى استحيوها أي للطواغيت، وإن أتأمت استحيوهما جميعًا، وقالوا:

وصلت الأنثى أخاها فمنعته من الذبح وعن ابن إسحاق: الوصيلة الشاة تتئم في خمسة أبطن عشرة إناث فما ولدت بعد ذلك فهو للذكور منهم دون

(١) قُصَبَهُ: أمعاءه والجمع: أقصاب، وقيل: هو ما أسفل البطن من الأمعاء.
(٢) صحيح البخاري: كتاب المناقب، باب: قصة خزاعة، جـ٢، صـ٣٩٧، رقم ٣٥٢١.

النساء إلا أن يموت شيء منها فيشترك في أكله الرجال والنساء.

أما الحام: فهو فحل الإبل إذا نتجت من صلبه عشرة أبطن فيمنع من أن يركب أو يحمل عليه، ولا يمنع من مرعى ولا ماء ويقولون إنه حَمِي ظهره أي كان سببًا في حمايته فهو حامٍ.

وكان لا يؤكل حتى يموت وينتفع بوبره للأصنام والله ﷻ برئ من هذه الضلالات وتلك الافتراءات لذا قال تعالى: ﴿**وَلَـكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ يَفْتَرُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ**﴾.

يقول صاحب التحرير والتنوير: "والاستدراك لرفع ما يتوهمه المشركون من اعتقاد أنها من شرع الله لتقادم العمل بها منذ قرون"[1].

ولهذا التحريم فائدة للناس، وللأنعام على حد سواء فبالنسبة للإنسان: فإن الأمر فيه تشديد، وتضييق وقيود عديدة على تمتع الإنسان بلحم الحيوان وألبانه، وفيه تعطيل منفعة الحيوان حتى يموت حتف أنفه.

وبالنسبة للحيوان: ففيه إضرار به إذ، ربما لا يجد مرعى ولا مأوى ولربما عدت عليه السباع وهو ما يخالف تمامًا دعوة الإسلام للرفق بالحيوان.

وزيادة منهم في الضلال وافتراء الكذب على الله أعطوا لنفسهم حق تقسيم هذه الأنعام فذمهم الله ووبخ صنيعهم في قوله تعالى:

﴿**وَجَعَلُواْ لِلّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُواْ هَذَا لِلّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَآئِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلاَ يَصِلُ إِلَى اللّهِ وَمَا كَانَ لِلّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَآئِهِمْ سَاء مَا يَحْكُمُونَ**﴾. (الأنعام - ١٣٦)

وفي قوله تعالى: ﴿**وَقَالُواْ هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لاَّ يَطْعَمُهَا إِلاَّ مَن نَّشَاء بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لاَّ يَذْكُرُونَ اسْمَ اللّهِ عَلَيْهَا**

(١) التحرير والتنوير: للطاهر بن عاشور، جـ٧، صـ٧٤.

افْتِرَاء عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ (١٣٨) وَقَالُواْ مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاء سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حِكِيمٌ عَلِيمٌ(١٣٩)﴾(الأنعام- ١٣٨ :١٣٩)

فقد أخطأوا خطئًا كبيرًا، فالله ﷻ هو رب كل شيء ومليكه وخالقه، وله الملك، وكل شيء له وفي تصرفه وتحت قدرته ومشيئته لا إله غيره ولا رب سواه. إنهم حتى لم يحفظوا قسمتهم الفاسدة بل جاروا فيها.

"وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لاَّ يَذْكُرُونَ اسْمَ اللهِّ" روى ابن كثير في تفسيره: "قال هي البحيرة كانوا لا يحجون عليها".

وقال مجاهد: "كان من إبلهم طائفة لا يذكرون اسم الله عليها في شيء من شأنها، لا إن ركبوا، ولا إن حلبوا، ولا إن حملوا، ولا إن سحبوا، ولا إن عملوا شيئًا. ﴿**وَقَالُواْ مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاء**﴾قالوا "ما في بطون هذه الأنعام": اللبن كانوا يحرمونه على إناثهم ويشربه ذكرانهم"[1].

فالله برئ من هذه الضلالات كما أنه برئ من هذه العنصرية التي وضعوها مفضلين الرجال على النساء حتى في الطعام والشراب، وهذه الضلالات إنما هي من إغواء الشيطان للكفار فقد تحدث القرآن الكريم عن عزم الشيطان على إغواء بني آدم.

قال تعالى: ﴿**وَلأُضِلَّنَّهُمْ وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الأَنْعَامِ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللّهِ وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا**﴾(النساء - ١١٩)

وتبتيك آذان الأنعام، يقصد به الأنعام التي كانوا يجعلونها لطواغيتهم علامة على أنها محررة لهم فكانوا يشقون آذان البحيرة والسائبة والوصيلة فكان هذا

(١) تفسير ابن كثير: جـ٣، صـ٣٤٦.

الشق من عمل الشيطان، إذ كان الباعث عليه غرضًا شيطانيًا.

"ولآمرنهم فليغيرن خلق الله": وهي محاولة الكفار في كل زمان ومكان لتغيير خلق الله لدواع سخيفة مثلما كان يفعل الجاهليون من أفعال ترجع إلى شرائع الأصنام مثل فقء عين الحامى. وهو كما أسلفت آنفًا، البعير الذي حمي ظهره من الركوب، وغيرها من الأفعال التي ما أنزل الله بها من سلطان فكأن الأنعام هنا وسيلة لتغيير خلق الله يستخدمها الكافر ابتغاء مرضاة الشيطان ولا حول ولا قوة إلا بالله، وكان أولى به - إن كان عاقلاً - أن يحفظ هذه النعمة التي وهبها الله للإنسان، وهؤلاء الكفار بهذا يكونون من جند الشيطان وأتباعه وقد عبر القرآن عن معنى أن للشيطان أتباعًا وأعوانًا في قوله تعالى: ﴿**وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُورًا**﴾ (الإسراء - ٦٤)

فللشيطان جنود وأتباع وخيل وركاب يسلطها على عباد الله جميعًا إلا عباد الله المخلصين.

يقول الطبري في تفسيره: ﴿**وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ**﴾: وأجمع عليهم من ركبان جندك ومشاتهم من يجلب عليها بالدعاء إلى طاعتك، والصرف عن طاعتي يقال منه: أجلب فلان على فلان إجلابًا: إذا صاح عليه والجلبة: الصوت[1].

وليس الخيل المذكور هنا حقيقيًا بل هو على سبيل تصوير الشيطان بأن له جيشًا ينادي عليه وفرسانًا يأمرهم بإضلال بني آدم، والله أعلم.

ولأن القرآن الكريم يفسر بعضه بعضًا فقد رد الله على المشركين إذ ذكر الثمانية أزواج والتي هي من الضأن اثنين ومن المعز اثنين ومن الإبل اثنين ومن البقر اثنين في قوله تعالى: ﴿**ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ**

(١) تفسير الطبري: جـ١٧، صـ٤٩١.

آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنثَيَيْنِ نَبِّؤُونِي بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٤٣) وَمِنَ الإِبْلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنثَيَيْنِ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاء إِذْ وَصَّاكُمُ اللّهُ بِهَذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (١٤٤) (الأنعام - ١٤٣:١٤٤)

وفي قوله تعالى: ﴿**خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنْ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ**﴾. (الزمر - ٦)

قال أبو جعفر عن آيتي سورة الأنعام: "هذا تقريع من الله جل ثناؤه للعادلين به الأوثان من عبدة الأصنام الذين بحروا البحائر، وسيبوا السوائب ووصلوا الوصائل، وتعليم منه لنبيه ﷺ والمؤمنين به"[1].

ففي هذه الآيات بيان لجهل العرب قبل الإسلام فيما حرموه من الأنعام وجعلوها أجزاءً وأنواعًا ابتداعًا منهم وافتراءً على الله.

فلم يحرم الله ﷻ شيئًا منها ولا من ولدها بل كلها مخلوقة لبني آدم ركوبًا وأكلاً وحمولة وفرشًا وحلبًا وغير ذلك من وجوه المنافع

وفي قوله تعالى: ﴿**أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنثَيَيْنِ**﴾رد على قولهم ﴿**مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا**﴾ (الأنعام - ١٣٩)

وعن قوله تعالى ﴿**نَبِّؤُونِي بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ**﴾يقول ابن كثير أي أخبروني عن يقين كيف حرم الله عليكم ما زعمتم تحريمه[2]

(١) تفسير الطبري: جـ١٢، صـ١٨٣

(٢) تفسير ابن كثير: جـ٣، صـ٣٥١

لكننا نلحظ هنا ترتيب أصناف الأنعام الضأن ثم المعز ثم الإبل ثم البقر ولا بد وأن لهذا "الترتيب دلالة" يرجعها صاحب التحرير والتنوير إلى التقارب والتشابه بين هذه الأنواع فيقول: وسُلِكَ في التفصيل طريق التوزيع تمييزًا للأنواع المتقاربة، فإن الضأن والمعز متقاربان، وكلاهما يذبح، والإبل والبقر متقاربة والإبل تنحر، والبقر تذبح وتنحر أيضًا، ولما كانوا قد حرموا في الجاهلية بعض الغنم ومنها ما يسمى بالوصيلة، وبعض الإبل كالبحيرة والوصيلة أيضًا، ولم يحرموا بعض المعز ولا شيئًا من البقر ناسب أن يؤتى بهذا التقسيم"[1].

وفي قوله تعالى "اثنين" بمعنى زوجين اثنين، يريد الذكر والأنثى وعلى ترتيب ذكرهم فهم، الكبش والنعجة، والتيس والعنز والجمل والناقة، والثور والبقرة، والأزواج هنا أزواج الأصناف وليس المراد زوجًا بعينه، إذ لا تعرف بأعيانها.

ويرى الألوسي "أن إظهار كذبهم في ذلك وتفصيل ما ذكر من الذكور والإناث وما في بطونها للمبالغة في الرد عليهم بإيراد الإنكار على كل مادة من مواد افترائهم، فإنهم كانوا يحرمون ذكور الأنعام تارة وإناثها تارة، وأولادها كيفما كانت تارة أخرى مسندين ذلك كله لله سبحانه"[2].

وقوله تعالى ﴿آلذَّكَرَيْنِ﴾ فهذا للإنكار، والمعنى إنكار أن يحرم الله تعالى من جنس الغنم شيئًا من نوعي ذكورها وإناثها وما تحمل إناثها وكذلك في جنس الإبل أو البقر.

ووجه الاستدلال في هذه الآيات: أن الله لو حرم أكل بعض الذكور من أحد النوعين لحرم البعض الآخر، ولو حرم أكل بعض الإناث لحرم البعض الآخر

(١) التحرير والتنوير: للطاهر بن عاشور، جـ٨، صـ١٢٨- ١٢٩

(٢) روح المعاني: للألوسي، جـ٨، صـ٤١- ٤٢.

لأن شأن أحكام الله أن تكون مطردة في الأشياء المتحدة النوع والصفة، ولو حرم بعض ما في بطون الأنعام على النساء لحرم ذلك على الرجال وإذ لم يحرم بعضها مع تماثل الأنواع والأحوال، أنتج أنه لم يحرم البعض المزعوم تحريمه، لأن أحكام الله منوطة بالحكمة فدل على أن ما حرموه إنما حرموه من تلقاء أنفسهم تحكمًا واعتباطًا، وكان تحريمهم ما حرموه افتراءً على الله.

ثانيًا: الأصل في الأشياء الإباحة:-

وهي قاعدة شرعية؛ فالأصل في الأشياء الإباحة ما لم يرد نص بالتحريم، هذا في كل الأمور الشرعية، وبالنسبة للحيوان كطعام فإن الله ﷻ أحل منه ما فيه نفع للإنسان، ولم يحرم عليه إلا ما فيه ضرره، وأي شيء حرمه الله على الإنسان جعل له بديلاً مباحًا بل بدائل، فحرم الزنا وأباح الزواج، وحرم الخمر وأباح سائر المشروبات، وحرم لحم الخنزير وأحل بهيمة الأنعام وغيرها من مئات الأطعمة. وحرم الربا وأحل البيع.

ونرصد هذه الخاصية لو تتبعنا الآيات التي تتناول المباح أو المحرم من لحم الحيوان، والمبدأ الذي ننطلق منه هو أن الأصل في الأشياء الإباحة إلى أن يرد نص بالتحريم.

قال تعالى: ﴿**ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ**﴾. (الحج - ٣٠)

قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَوْفُواْ بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ إِلاَّ مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ**﴾. (المائدة ـ ١)

والعقود: العهود، وهو أمر بالوفاء بها وعدم نقضها.

"أحلت لكم بهيمة الأنعام": قال الحسن وقتادة: "هي الأنعام كلها وهي الإبل والبقر والغنم، وأراد تحليل ما حرم أهل الجاهلية على أنفسهم من الأنعام"[١].

"وقد استدل بهذه الآية ابن عمر وابن عباس وغيرهما على إباحة الجنين إذا وجد ميتًا في بطن أمة إذا ذبحت"[٢]، وقد ورد في ذلك حديث شريف عن مُجالِدِ عن أبي الودَّاك عن أبي سعيد قال سألت رسول الله ﷺ عن الجنين فقال كلوه إن شئتم، وقال مسدد: قلنا يا رسول الله ننحر الناقة ونذبح البقرة والشاة فنجد في بطنها الجنين أنلقيه أم نأكله قال كلوه إن شئتم فإن ذكاته ذكاة أمه"[٣] صدق رسول الله ﷺ

وهل هناك علاقة بين الوفاء بالعهود، وإباحة أو تحريم أكل بهيمة الأنعام؟

والإجابة: نعم فكأن هذه الإباحة على اتساعها، وهذا التحريم على ضيفه من عقود شريعة الإسلام، وقد ذكر البغوي في تفسيره أن الله تعالى أنزل في هذه السورة ثمانية عشر حكمًا لم ينزلها في غيرها.

ويرى صاحب التحرير والتنوير: "أن الابتداء بذكر بعض المباح امتنانًا وتأنيسًا للمسلمين ليتلقوا التكاليف بنفوس مطمئنة فالمعنى: إن حرمنا عليكم أشياء فقد أبحنا لكم أكثر منها، وإن ألزمناكم أشياء فقد جعلناكم في سعة من أشياء أوفر منها"[٤].

وهنا تبدو لنا "دلالة الترتيب" وحكمته ثم يأتي الاستثناء بعد ذلك في قوله تعالى "إلا ما يتلى عليكم" وهو إشارة لما سيرد في سياق الآيات بعد ذلك من

(١) معالم التنزيل: للبغوي، جـ ٢، صـ٦

(٢) تفسير ابن كثير: جـ٢، صـ٨

(٣) سنن أبي داود: كتاب الضحايا، باب: ما جاء في ذكاة الجنين، جـ٣، صـ ١٢٣٤، حديث رقم ٢٨٢٧.

(٤) التحرير والتنوير: للطاهر بن عاشور، جـ٦، صـ٧٧- ٧٨.

تحريم بقوله تعالى "حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير" وبه قال فريق من العلماء. وقال آخرون: "إلا ما يتلى عليكم": الخنزير. وقد رجح أبو جعفر الرأي الأول"[1].

وعن قوله تعالى "غير محلي الصيد وأنتم حرم، فالتحريم هنا ينطبق ابتداءً على عملية الصيد ذاتها، فالإحرام للحج أو العمرة، تجرد عن أسباب الحياة العادية، وأساليبها المألوفة وتوجه إلى الله في بيته الحرام الذي جعله الله مثابة الأمان، ومن ثم ينبغي عنده الكف عن بسط الأكف إلى أي حي من الأحياء، وهي فترة نفسية ضرورية للنفس البشرية تستشعر فيها صلة الحياة بين جميع الأحياء في واهب الحياة، وتأمن فيها، وتؤمَن كذلك من كل اعتداء، وتتخفف من ضرورات المعاش التي أحل من أجلها صيد الطير والحيوان وأكله.

فالتحريم هنا إنما هو تحريم وقتي مرتبط بفترة محددة لغاية معينة بدليل قوله تعالى في الآية التالية﴿.. **وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُواْ**﴾، وأرى أن هذه أول خطوة تمهد لذكر ما حرم الله بعد ذلك فلم يأت التحريم - على قلته بالنسبة للمباح - مباشرة بل سبقه تمهيد. في قوله تعالى﴿**أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ إِلاَّ مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ**﴾: أي أن التحريم مرتبط - فحسب - بوقت إحرامكم ثم تأتي الآية التالية لتوضح بعض المنهيات قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُحِلُّواْ شَعَآئِرَ اللّهِ وَلاَ الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلاَ الْهَدْيَ وَلاَ الْقَلآئِدَ وَلاَ آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُواْ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُواْ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ**﴾ (المائدة - ٢)

ففي الآية نهي عن إحلال محرم شعائر الله من أمكنة، وأزمنة، وذوات ومن هذه الذوات، الهدي، والقلائد.

(١) تفسير الطبري: جـ٩، صـ٤٥٩.

والهدي: هو ما يهدى من الأنعام في مناسك الحج لينحر في المنحر من منى أو بالمروة.

والقلائد: جمع قلادة، وهي ظفائر من صوف أو وبر، يربط فيها نعلان أو قطعة من لحاء الشجر، أي قشره وتوضع في أعناق الهدايا مشبهة بقلائد النساء، والمقصود منها أن يعرف الهدي فلا يُتعرض له بغارة أو نحوها.

ويقول الحافظ بن كثير: "يعني لا تتركوا الإهداء إلى البيت فإن فيه تعظيمًا لشعائر الله، ولا تتركوا تقليدها في أعناقها لتتميز به عما عداها من الأنعام، وليعلم أنها هدي إلى الكعبة فيجتنبها من يريدها بسوء"[1].

وإن كنا نتحدث في هذا الجزء عن المباح والمحرم من الحيوان بوصفه وسيلة طعام فإننا لم نخرج من الموضوع بتعرضنا للهدي والقلائد لأن لحمها يقسم فيأكل منه صاحب الهدي ويوزع منه على الفقراء، ومنع الهدي من الوصول إلى محله من فعل الكفار، حيث تحدثت الآية ٢٥ من سورة الفتح عن فعل الكفار من مشركي العرب من قريش ومن عاونهم على نصرتهم على رسول الله ﷺ إذ صدوا الهدي أن يصل إلى محله.

قال تعالى: ﴿**هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاء مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَؤُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاء لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا**﴾ (الفتح - ٢٥)

ثالثًا: الله لا يحرم إلا الخبائث:-

لم يحرم الله ﷻ على المسلمين إلا القليل من المحرمات - وهو تفضيل لهم ورحمة بهم دون الأمم السابقة - كما سنرى بعد قليل.

(١) تفسير ابن كثير: جـ٢، صـ١٠.

وهناك تحريم وقتي مرتبط بوقت الإحرام فحسب كما ذكرت آنفًا وهناك تحريم على التأبيد كالميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله.

قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُواْ لِلّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (١٧٢) إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾. (البقرة -١٧٢: ١٧٣)

وشبيه به قوله تعالى: ﴿**فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللّهُ حَلالاً طَيِّبًا وَاشْكُرُواْ نِعْمَتَ اللّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (١١٤) إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَلَحْمَ الْخَنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ اللّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَإِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١١٥)** ﴾. (النحل - ١١٤: ١١٥)

وفي وسط هذا التحريم التماس للعذر، وهو الاضطرار بغير بغي ولا اعتداء، فإن الله غفور رحيم: فقد سبق كل آية ذكر فيها التحريم في آيتي "البقرة، والنحل" اتساع رزق الله: "يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم" في سورة البقرة. و"فكلوا مما رزقكم الله حلالاً طيبًا" في سورة النحل.

فأي رحمة، وأي فضل بعد ذلك؟؛ فمواضع التحريم تأتي مغلفة بآيات الإباحة والحل مع التماس العذر عند اللجوء لأكل المحرمات، وهذه منة امتنها الله علينا نحن - المسلمين - فعسانا أن نقدر هذه النعمة ونشكر الله كما أمرنا.

وكما سبق وقلنا إن الحِلَّ يكون لصالح الإنسان، والتحريم يكون لصالحه بدفع الضرر والأذى عنه.

ومن الآيات التي ذكرت فيها المحرمات من الحيوان قوله تعالى:

﴿**قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَا أُوْحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ**

اللّـهِ بِـهِ فَمَـنِ اضْطُـرَّ غَـيْرَ بَـاغٍ وَلاَ عَـادٍ فَـإِنَّ رَبَّـكَ غَفُـورٌ رَّحِيـمٌ﴾. (الأنعام - ١٤٥)

وانظر إلى قوله تعالى "قل لا أجد" والتي تدل على قلة المحرمات، فالإنسان لا يجد إلا إذا بحث وكأن تخصيص المحرمات يحتاج إلى بحث لكثرة المباحات.

وقوله تعالى: ﴿**حُرِّمَـتْ عَلَيْكُـمُ الْمَيْتَـةُ وَالْـدَّمُ وَلَحْـمُ الْخِنْزِيـرِ وَمَـا أُهِـلَّ لِغَـيْرِ اللّـهِ بِـهِ وَالْمُنْخَنِقَـةُ وَالْمَوْقُـوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَـةُ وَالنَّطِيحَـةُ وَمَـا أَكَلَ السَّـبُعُ إِلاَّ مَـا ذَكَّيْتُـمْ وَمَـا ذُبِـحَ عَـلَى النُّصُـبِ وَأَن تَسْتَقْسِـمُواْ بِـالأَزْلاَمِ ذَلِكُـمْ فِسْـقٌ الْيَـوْمَ يَئِـسَ الَّذِيـنَ كَفَـرُواْ مِـن دِينِكُـمْ فَـلاَ تَخْشَـوْهُمْ وَاخْشَـوْنِ الْيَـوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُـمْ دِينَكُـمْ وَأَتْمَمْـتُ عَلَيْكُـمْ نِعْمَتِـي وَرَضِيـتُ لَكُـمُ الإِسْـلاَمَ دِينًـا فَمَـنِ اضْطُـرَّ فِي مَخْمَصَـةٍ غَـيْرَ مُتَجَانِـفٍ لِّإِثْـمٍ فَـإِنَّ اللّـهَ غَفُـورٌ رَّحِيمٌ﴾**(المائدة - ٣)

وإذا تناولنا هذه المحرمات وجدنا مدى ضررها الشديد بصحة الإنسان إذا أكلها، ولكن مع التأكيد الشديد أن علينا تنفيذ هذه الأوامر الشرعية دون النظر إلى كون الأخذ بها ضارًا أو نافعًا، وإلا كنا عبيد مصالحنا، فحقيقة الإسلام أن نسلم أنفسنا لله ﷻ نأتمر بأوامره وننتهي بنواهيه، وإن كان رسول الله ﷺ قد أمرنا بطاعة ولي الأمر أو طاعة الإمام. حيث قال ﷺ "على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب وكره إلا أن يؤمر بمعصية فإن أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة [1] صدق رسول الله ﷺ.

فإن كانت طاعة أولي الأمر واجبة على المسلم فيما أحب وكره فمن الأولى أن تكون الطاعة واجبة لله ﷻ في كل الأحوال.

ومع ذلك نرصد أضرار ما حرمه الله على الإنسان والذي جاء ذكره في الآيات:

أولاً: الميتة:

وهي ما مات من الحيوان حتف أنفه بغير صيد ولا تذكية، وما ذاك إلا لما فيها من المضرة لما فيها من الدم المحتقن، فهي ضارة للدين والبدن لذا

(١) صحيح مسلم: كتاب: الإمارة، باب: وجوب طاعة الأمراء، جـ٦، صـ٣٩١، رقم ١٨٣٩.

حرمها الله، ويستثنى من الميتة السمك والجراد فقد روي عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال "أحلت لنا ميتتان ودمان فأما الميتتان فالحوت والجراد وأما الدمان فالكبد والطحال"[١] صدق رسول الله ﷺ.

وبمثله قال الدكتور/ زغلول النجار حيث قال: "إن موت الحيوان قبل تذكيته قد يكون بسبب مرض من الأمراض العضوية أو الفيروسية التي ألمت به، وبسبب شيخوخة أصابته، وهذا سبب كافٍ لتحريم أكل لحمه، فإذا أضفنا إلى ذلك ما يؤدي إليه الموت دون تذكيته؛ أي دون إراقة دمه إلى احتباس كل دمه في جسده اتضحت لنا حكمة تحريم أكل لحم الميتة، وذلك لأن الدم هو حامل فضلات الجسم المختلفة وأغلبها مواد قابلة للتعفن والتحلل إذا حبست في الجسد الميت للحيوان.. ومن هنا تتضح الحكمة الإلهية من تحريم أكل لحوم الميتة"[٢].

ثانيًا الدم:

ويقصد به هنا الدم المسفوح والذي جاء ذكره في الآية ١٤٥ من سورة الأنعام. وهو الدم الذي يخرج من عروق جسد الحيوان بسبب قطع العرق وما عليه من الجلد ويؤكد الدكتور/ زغلول النجار: "أن هذا الدم يكون محملاً بالهرمونات والفضلات النيتروجينية التي تفرزها الخلايا مثل الأمونيا، واليوريا وحمض اليوريك وهي سموم قاتلة يحملها الدم عادة إلى الكلى للتخلص منها إلى خارج الجسم عن طريق البول، هذا بالإضافة إلى العديد من الغازات الحرة والمذابة في بلازما الدم، والفيروسات والجراثيم، والطفيليات الحية والميتة.. وغيرها. من هنا كانت الحكمة الإلهية في تحريم أكل الدم المسفوح كغذاء، أما أكل الكبد والطحال من الحيوان المذكى فهو حلال"[٣].

(١) سنن ابن ماجه: للإمام المحدث أبي عبد الله محمد بن يزيد القزويني "ت ٢٧٥هـ"، تحقيق محمود محمد محمود دار الكتب العلمية بيروت، لبنان، ط ١، ١٩٩٨، كتاب: الأطعمة، باب: الكبد والطحال، جـ٤ صـ٣٤، حديث رقم ٣٣١٤

(٢) من آيات الإعجاز العلمي الحيوان: للدكتور/ زغلول النجار، صـ٣٥٧.

(٣) نفسه: صـ٣٥٨،

وهنا يتبادر إلى الذهن سؤال.. هل هناك من يأكل أو من يشرب الدم؟

والإجابة من جهتين:

الأولى: أن ذلك تشريع، والتشريع لا بد وأن يعم كل الحالات.

الثانية: ما رواه صاحب التحرير والتنوير إذ قال: "وقد كانت العرب تأكل الدم فكانوا في المجاعات يفصدون من إبلهم ويخلطون الدم بالوبر ويأكلونه، ويسمونه العِلْهِز"[١]. وحكمة تحريم الدم أن شربه - بالإضافة إلى الأضرار المذكورة - يورث ضراوة في الإنسان فتغلظ طباعه ويصير كالحيوان المفترس.

ثالثًا: لحم الخنزير:

وأول ما يلفت انتباهنا هو إضافة كلمة "لحم" إلى "الخنزير" وقال فيه المفسرون أقوالاً متباينة.

فالطبري يقول: "يعنى: حرم عليكم لحم الخنزير أهليُّه وبريُّه"[٢].

والألوسي يقول: "خص اللحم بالذكر مع أن بقية أجزائه أيضًا حرام لأن معظم ما يؤكل من الحيوان وسائر أجزائه كالتابع له وقيل: خص اللحم ليدل على تحريم عينه ذُكي أو لم يذك".

ويضيف: "ولعل السر في إقحام لفظ اللحم هنا إظهار حرمة ما استطيبوه وفضلوه على سائر اللحوم واستعظموا وقوع تحريمه"[٣].

أما صاحب التحرير والتنوير فيقول: "وعندي أن إقحام لفظ "اللحم" هنا إما مجرد تفنن في الفصاحة، وإما للإيماء إلى طهارة ذاته كسائر الحيوان وإنما المحرم أكله لئلا يفضي تحريمه بالناس إلى قتله أو تعذيبه فيكون فيه حجة

(١) التحرير والتنوير: للطاهر بن عاشور، جـ٦، صـ٩٠.
(٢) تفسير الطبرى: جـ٩، صـ٤٩٣.
(٣) تفسير الألوسي: جـ٢، صـ٤٢.

لمذهب مالك بطهارة عين الخنزير كسائر الحيوان الحي، وإما للترخيص في الانتفاع بشعره لأنهم كانوا يغرزون به الجلد"[١].

وإن كنت متحفظًا على قوله "مجرد تفنن في الفصاحة"!! والخنزير - كما سبق تناوله - حيوان قذر قبيح نجس.

يقول عنه الدكتور/ زغلول النجار:

إنه يأكل النبات والحيوان والجيف والقمامة كما يأكل فضلاته وفضلات غيره من الحيوان، وهو كريه المنظر نظرًا لطبيعته الرمامة وقذارته الواضحة، فإنه معرض للإصابة بالعديد من الأمراض من أمثال حمرة الخنازير، وحمى الخنازير ويتسبب في هذا المرض فيروس خاص يوجد في الجيف، ويمكن انتقاله للإنسان عن طريق أكل لحوم الخنزير ودهونه، هذا بالإضافة إلى العديد من المواد المسببة للسرطان والطفيليات والجراثيم التي تعشش في لحم الخنزير ويتسبب بعضها في أمراض معدية بل وقاتلة للإنسان في كثير من الأحيان ومن أخطر مسببات الأمراض في الخنازير:

١- **ديدان التريخينا**: وهي تسبب للإنسان أمراضًا روماتيزمية عديدة والتهابات عضلية مؤلمة تؤدي إلى انتفاخ الأنسجة العضلية وتصلبها مما قد يؤدي إلى إقعاد المريض إقعادًا كاملاً ومعاناته من الآلام المبرحة حتى وفاته بعدما يصاب بالتهاب المخ والنخاع الشوكى.

٢- **الدودة الشريطية الوحيدة للخنزير**: وتتسبب في العديد من الأمراض للإنسان مثل فقر الدم، واضطرابات الجهاز الهضمي والمغص، والإسهال، والقيء، والاكتئاب الشديد وقد يصل ذلك إلى النوبات الصرعية، والتشنجات العصبية الشديدة وأخطر ما في هذه الدودة هو دخول يرقاتها إلى مجرى الدم الذي قد يحملها إلى أحد الأعضاء الحيوية كالمخ أو القلب او الكبد أو الرئتين

(١) التحرير والتنوير: جـ٢، صـ١١٩.

حيث تنتهي بوفاة المريض بعد معاناة طويلة.

وغيرها من الديدان التي تتسبب في الإضرار بصحة الإنسان وإصابته بأخطر الأمراض والتي تنتهي غالبًا بوفاته [١].

رابعًا: ما أهل لغير الله به:

وهو ما ذكر عليه غير اسم الله عند ذبحه حيث كانوا في الجاهلية إذا ذبحوا القرابين للأصنام نادوا عليها باسم الصنم فقالوا: باسم اللات أو باسم العزى.. وأصله من استهلال الصبي إذا صاح حين يسقط من بطن أمه، ومنه إهلال المحرم بالحج إذا لبى، لذا سموا الهلال هلالاً لأنهم كانوا يرفعون صوتهم عند رؤيته ليعلم بعضهم بعضًا، ولم يذكر المفسرون علة لهذا حتى جاء العلم الحديث ليؤكد لنا: "أنه في بحث مختبري منهجي أثبت عشرون من كبار علماء الطب البشري والطب البيطرى، والصيدلة، والعلوم أن التسمية والتكبير عند ذبح الحيوان تعمل عملية تعقيم كاملة لبدنه، وتطهره من الدماء والجراثيم بعكس الذبائح التي لا يذكر اسم الله عليها"[٢].

خامسًا: المنخنقة: وهي البهيمة من الأنعام التي تموت خنقًا.

سادسًا: الموقوذة: قال أبو جعفر: "الميتة وقيذًا.

يقال منه: وقَذَهُ يَقِذُه وقذًا: إذا ضربه حتى أشرف على الهلاك ومنه قول الفرزدق "الكامل".

شغارةٍ تَقِذُ الفَصيلَ بِرِجْلها فطَّارةٍ لِقَوادِمِ الأبكارِ[٣]

وعن ابن عباس: الموقوذة: التي تضرب بالخشب حتى توقذ فتموت.

(١) من آيات الإعجاز العلمي الحيوان: للدكتور/ زغلول النجار، صـ٣٦٠ وما بعدها

(٢) نفسه: صـ٣٦٤

(٣) خزانة الأدب: للبغدادي جـ٦، صـ٤٩٢.

وعن قتادة: كان أهل الجاهلية يضربونها بالعصى، حتى إذا ماتت أكلوها"[١].

سابعًا: المتردية:

وهي التي تتردى من سطح أو جبل أو تتردى في بئر فتموت.

ثامنًا: النطيحة:

فعيلة بمعنى مفعولة، والنطح ضرب الحيوان ذي القرنين بقرنيه حيوانًا آخر، والمراد التي نطحتها بهيمة أخرى فماتت.

تاسعًا: وما أكل السبع:

أي بهيمة أكلها السبع، والسبع كل حيوان يفترس الحيوان كالأسد والنمر والضبع والذئب والثعلب، فحرم على الناس كل ما قتله السبع لأن أكيلة السبع تموت بغير سفح دم غالبًا بل بالضرب على المقاتل"[٢]

وهذه الأنواع الخمسة الأخيرة حكمها حكم الميتة إذا لم تدرك بالذبح وفيها الروح.

أما قوله تعالى "إلا ما ذكيتم" فهو استثناء يعنى: إلا ما أدركتم ذكاته من هذه الأنواع الخمسة وفيه بقية حياة، وتذكية البهيمة ذبحها ذبحًا شرعيًا كي تذكو وتطيب.

لذا سمي الذبح الشرعي تذكية لأن لحم الذبيحة - كما يقول د. زغلول النجار: يطهر به ما كان منتشرًا فيه من دماء وسوائل أخرى متصلة بتلك الدماء مثل السوائل الليمفاوية، وكلها يحمل أوساخ البدن ومسببات أمراضه، ومن هنا كان من معاني "الذكاة" الشرعية هو التتميم، أي تتميم تصفية بدن الذبيحة مما بها من دماء وملوثات.

(١) تفسير الطبري: جـ٩، صـ٤٩٦

(٢) التحرير والتنوير: للطاهر بن عاشور، جـ٦، صـ٩١- ٩٢.

ويتم ذلك بنحر الحيوان أي بقطع مجرى الطعام والشراب والنفس من الحلق "أي بقطع حلقومه ومريئه" وبذلك يُقطع الودجان وهما عرقان غليظان في جانبي ثغرة النحر فتنهر الدماء والسوائل الليمفاوية بتدفق شديدة مع التسمية والتكبير "باسم الله الله أكبر" مستخدمًا في ذلك آلة حادة حتى لا يتألم الحيوان"[1].

عاشرًا: ما ذبح على النصب:

وهو ما ذبح لغير الله ولم يذكر اسم الله عليه، والنصب: جمع نصاب: وهي أحجار كان مشركو قريش ينصبونها حول الكعبة وكانوا يذبحون عليها، وهي غير الأصنام المنقوشة المصورة، وبديهي أن الذبح لغير الله ضرب من الشرك ومغايرة للفطرة التي فطر الله الناس عليها.

والذبح على النصب حكمه حكم ما أهل لغير الله به سواء بسواء فكلاهما ذبح لغير الله - تعالى - أو أشرك مع الله ﷻ غيره في الإهلاك بالذبح وهو شرك بواح.

ولأن الله ﷻ - كما أسلفنا - لا يحرم شيئًا إلا أحل البديل أو البدائل الطيبة له فقد جاءت الآية التالية من سورة المائدة لتذكر سعة ما أحل الله ﷻ لعباده المؤمنين. قال تعالى: ﴿**يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُواْ مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُواْ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُواْ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ**﴾(المائدة – ٤)

فالسؤال عن المباح متوقع بعد النص على المحرمات، وهو ما يفيده استخدام الفعل المضارع "يسألونك" الذي يدل على التجدد والاستمرار فالسؤال عن الحلال والحرام سؤال ملح ومستمر إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

(١) من آيات الإعجاز العلمي الحيوان: للدكتور/ زغلول النجار، صـ٣٨١-٣٨٢.

"ماذا أحل لهم": ببناء الفعل الماضي لما لم يسم فاعله وهو الله ﷻ للمعرفة به فإن مسألة الحلال والحرام لهي من أمر الله.

"قل أحل لكم الطيبات": أي قل يا محمد أحل لكم الطيبات.

ونلحظ دلالة قوله تعالى "لكم": أي لنفعكم ومصلحتكم.

"الطيبات": هي ما تستطيبه النفوس بالإدراك السليم المستقيم.

ونلحظ مجيء كلمة "الطيبات" بصيغة الجمع بما يدل على تعدد واتساع الطيبات المباحة، والتي وردت الإشارة إليها في سورة البقرة.

قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلاَلاً طَيِّبًا وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ**﴾. (البقرة - ١٦٨)

هذا عن **القضية الأولى** التي تضمنتها الآية الرابعة من سورة المائدة، أما **القضية الثانية** والتي يرد ذكرها بعد حرف العطف ﴿**وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ... الآية**﴾

فقد روي عن أبي سلمة بن عبد الرحمن عن عائشة ﵂ أنها قالت واعد رسول الله ﷺ جبريل ﵇ في ساعة يأتيه فيها فجاءت تلك الساعة ولم يأته، وفي يده عصًا فألقاها من يده وقال ما يخلف الله وعده ولا رسله ثم التفت فإذا جرو كلب تحت سريره فقال يا عائشة متى دخل هذا الكلب ها هنا؟ فقالت: والله ما دريت فأمر به فأخرج فجاء جبريل فقال رسول الله ﷺ واعدتني فجلست لكم فلم تأتِ فقال منعني الكلب الذي كان في بيتك إنا لا ندخل بيتًا فيه كلب ولا صورة"[1].

وروي عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ أمر بقتل الكلاب إلا كلب صيد أو كلب غنم أو ماشية"[2]

(١) صحيح مسلم: حديث كتاب: اللباس والزينة، باب تحريم تصوير صورة الحيوان وتحريم اتخاذ ما فيه صورة، جـ٧، صـ٢٦٨، رقم ٢١٠٤.

(٢) نفسه: كتاب: المساقاة، باب: الأمر بقتل الكلاب، جـ ٥، صـ٣٩٦، ١٥٧١.

وقد ذكر الواحدي في أسباب النزول: "عن أبي رافع قال: أمرنا رسول الله ﷺ بقتل الكلاب فقال الناس يا رسول الله ما أحل لنا من هذه الأمة التي أمرت بقتلها فأنزل الله تعالى "يسألونك ماذا أحل لهم الآية"[١].

فقد أمر النبي ﷺ بقتل الكلاب لأنها تمنع دخول الملائكة البيوت. كما أن الشيطان يتمثل بها.

وقد سئل النبي ﷺ عن الكلب الأسود البهيم فقال شيطان[٢] واستثنى النبي ﷺ تربية الكلب لصيد أو حراسة وبين لنا المباح في الصيد بالكلاب المعلمة تفسيرًا لقوله تعالى: "وما علمتم من الجوارح مكلبين تعلمونهن مما علمكم الله... الآية"

فعن عدي بن حاتم قال: سألت رسول الله ﷺ. قلت: إنا قوم نصيد بهذه الكلاب فقال: إذا أرسلت كلابك المُعَلَّمَة وذكرت اسم الله عليها فكل مما أمسكن عليك وإن قتلن إلا أن يأكل الكلب فإن أكل فلا تأكل فإني أخاف أن يكون إنما أمسك على نفسه، وإن خالطها كلاب من غيرها فلا تأكل"[٣].

فها هو النبي ﷺ يضع لنا حد الانتفاع بصيد الكلب المدرب والذي هو من الجوارح، والجوارح: هي الكواسب من سباع البهائم كالكلب والفهد والنمر أو سباع الطير كالصقر والبازي والعقاب.

والمُكَلب: كما يقول الزمخشري: مؤدب الجوارح ومدربها بالصيد لصاحبها ورائضها لذلك بما علم من الحيل وطرق التأديب والتثقيف، واشتقاقه من

(١) أسباب النزول: للواحدي النيسابوري، تحقيق: مجدي فتحي، وخيريى سعيد، المكتبة التوفيقية، ط١، ٢٠٠٣، صـ١٤٩.

(٢) مسند أحمد: شرح: أحمد محمد شاكر، دارالحديث بالقاهرة، ط١، ١٩٩٥، جـ١٧، صـ٥٥٠ حديث رقم ٢٥١١٩

(٣) صحيح مسلم: كتاب الصيد والذبائح، باب الصيد بالكلاب المعلمة، جـ٧، صـ٦٦، رقم ١٩٢٩.

الكلب لأن التأديب أكثر ما يكون في الكلاب فاشتق من لفظه لكثرته من جنسه[١] "تعلمونهن مما علمكم الله "من علم تدريب هذه السباع وترويضها أو من آداب الصيد لأنها إلهام من الله ﷻ.

أما عن قوله تعالى: "مما أمسكن عليكم"

فهو الضابط في التحليل أو التحريم فمعظم المفسرين على إباحة أكل ما صادته الجوارح، إذ كانت معلمة وأمسكت بعد إرسال الصائد، وعلامتها: أن تُسترسل إذا أرسلت، وتنزجر إذا زجرت وتمسك الصيد ولا تأكل منه، وأقل ما يعرف به ذلك ثلاث مرات، فإن أكلت منه فليس مما أمسكن على صاحبهن فلا يحل أكله كما بينت لنا السنة المطهرة.

ويقول صاحب التحرير والتنوير فى: "واذكروا اسم الله عليه": أمر بذكر الله على الصيد ومعناه أن يذكره عند الإرسال لأنه قد يموت بجرح الجارح، وأما إذا أمسكه حيًا فقد تعين ذبحه فيذكر اسم الله عليه - حينئذ، ولقد أبدع إيجاز كلمة "عليه"ليشمل الحالتين"[٢].

فالكلب هنا أو الجارح شأنه شأن السهم الذي يصاد به فيجب ذكر اسم الله عليه.

رابعًا: رحمة الله ﷻ بأمة محمد ﷺ في التحريم:

تتجلى رحمة الله ﷻ بالمسلمين في شتى التكليفات فلا يكلف الله نفسًا إلا وسعها، وقد خفف الله على المسلمين في كثير من الأمور الشرعية، من هذا أنه أباح لهم الأنعام دون تحديد جزء منها دون غيره، وتتجلى لنا هذه الرحمة، وهذا التخفيف لو رحنا نبحث عما حرم على الذين من قبلنا في هذا الجانب لنحمد الله ﷻ على نعمة الإسلام وكفى بها نعمة. **قال تعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ**

(١) الكشاف للزمخشري: جـ٢، صـ٨.

(٢) التحرير والتنوير: للطاهر بن عاشور: جـ٦، صـ١١٨.

هَـادُواْ حَرَّمْنَـا كُلَّ ذِي ظُفُـرٍ وَمِـنَ الْبَقَـرِ وَالْغَنَـمِ حَرَّمْنَـا عَلَيْهِـمْ شُـحُومَهُمَا إِلاَّ مَـا حَمَلَـتْ ظُهُورُهُمَـا أَوِ الْحَوَايَـا أَوْ مَـا اخْتَلَـطَ بِعَظْـمٍ ذَلِـكَ جَزَيْنَاهُـم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّـا لَصَادِقُـونَ﴾. (الأنعـام - ١٤٦)

وبدايـة لا نفصـل هـذه الآيـة عـن الآيـات السـابقة عليهـا، فلـما بـين الله ﷻ للمسـلمين مـا حـرم عليهـم، ومـا أحـل لهـم وأن مـا حرمـه عليهـم خبيـث لا يصلح أكلـه، بـين ﷺ مـا حـرم عـلى اليهـود ببغيهـم وكثـرة جدالهـم؛ فحـرم عليهـم كل ذي ظفـر، وشـحوم البقـر والغنـم إلا ما حملـت ظهورهمـا أو الحوايـا أو ما اختلـط بعظم.. فـكأن التحريـم عـلى المسـلمين رحمـة والتحريـم عـلى بنـي إسرائيـل عقـاب لهـم.

والظفـر: العظـم الـذي تحـت الجلـد، والمخالـب: وهـي تقابـل الحافـر والظلـف وتكـون للكلـب والسـبع والإبـل والهـر والأرنـب ونحوهـا، فهـذه محرمـة عـلى اليهـود بنـص شريعـة موسـى ﷺ، ففـي الإصحـاح الرابـع عـشر مـن سـفر التثنيـة الجمـل والأرنـب والوبـر فـلا تأكلوهـا"[١].

الشـحوم: جمـع شـحم، وهـو المـادة الدهنيـة التـي تكـون مـع اللحـم في جسـد الحيـوان، وقـد أبـاح الله لليهـود أكل لحـوم البقـر والغنـم وحـرم عليهـم شـحومهما إلا مـا كان في الظهـر.

الحوايـا: جمـع حَوِيَّـة، وهـي الأكيـاس الشـحمية التـي تحـوي الأمعـاء أو مـا اختلـط بعظـم: وهـو الشـحم الـذي يكـون ملتفًـا عـلى عظـم الحيـوان مـن السـمن فهـو معفـو عنـه لعـسر تجريـده عـن عظمـه"[٢].

وهـذه الآيـة تبـين لنـا منـة الله ﷻ عـلى المسـلمين إذ أبـاح لهـم جميـع الحيـوان إلا مـا ذكـر نـص في تحريمـه. أمـا اليهـود فقـد شـددوا فشـدد الله عليهـم مبينًـا أن ذلـك ببغيهـم وبظلمهـم لأنفسـهم.. فـما ظلمهـم الله ولكـن أنفسـهم يظلمـون.

(١) تفسير التحرير والتنوير: للطاهر بن عاشور، جـ٨، صـ١٤٢.
(٢) نفسـه: جـ٨، صـ١٤٢.

المبحث الرابع: الحيوان والشعائر

الشعائر: أعمال الحج وكل ما جُعِل علمًا لطاعة الله ومفردها: شعيرة [١].

ويظهر ارتباط العنصر الحيواني بشعائر الحج من خلال ظهوره كهدي أو كونه دالاً على سرعة تلبية الناس للأمر بالحج أو من خلال المباح والمحرم من الصيد أثناء الإحرام.

أولاً: الحيوان.. هديًا:-

والهدي: هو ما يهدى من النعم إلى الحرم تقربًا إلى الله ﷻ [٢].

وقد ورد ذكر الهدي في القرآن الكريم في غير آية قال تعالى: ﴿**وَأَتِمُّواْ الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلاَ تَحْلِقُواْ رُؤُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ**﴾. (البقرة - ١٩٦)

فبعد ما أمر الله ﷻ بإتمام الحج والعمرة لله ذكر ما يمكن أن يمنع هذا الإتمام، وهنا يجب على الحاج أن يقدم ما تيسر له من الهدي وهو الحيوان المتقرب به لله في الحج، والمقصود من هذا كما يقول صاحب التحرير والتنوير: "تحصيل بعض مصالح الحج بقدر الإمكان، فإذا فاتتك المناسك لا يفوت ما ينفع فقراء مكة ومن حولها" [٣].

(١) مادة "شعر "فى: لسان العرب، مختار الصحاح.

(٢) فقه السنة: السيد سابق، دار الريان، للتراث، ط ١٩٩٠،٢، مجـ١، صـ٦٦٥.

(٣) التحرير والتنوير: للطاهر بن عاشور، جـ٢، صـ٢٢٤.

وهذا ما حدث في الحديبية سنة ست من الهجرة لما حال المشركون بين النبي ﷺ ومن معه دون الوصول إلى المسجد الحرام. وعقد صلح الحديبية على أن يعود المسلمون في العام التالي، وشق على نفوس الصحابة أن يتحللوا قبل أن يبلغ الهدي محله - أي مكانه الذي ينحر فيه - حتى نحر النبي ﷺ هديه أمامهم وتحلل من إحرامه.

وكلمة "ما استيسر من الهدى" فيها من التخفيف على المسلمين ما فيها حتى جاز أن يشترك كل سبعة في بدنة. هذا من جانب، ومن جانب آخر فإن الحاج لا يحرم أجر حجته، ويعتبر كأنه قد أتم فينحر ما معه من الهدي ويحل.

واشترط الله ﷻ عدم التحلل من الإحرام والذى علامته حلق الرأس، إلا بعد أن يبلغ الهدي محله، ومحله مكة وما حولها لقوله تعالى:

﴿**ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ**﴾ (الحج - ٣٣)

﴿**هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ**﴾ (المائدة - ٩٥)

أما إذا زال سبب الإحصار، وكان الحاج في مأمن على نفسه وأهله وماله فعلى المتمتع بالعمرة إلى الحج أن يقدم ما استيسر من الهدي - وهو هدي المتعة أو التمتع، وبعد التيسير تيسير آخر في قوله تعالى ﴿**فمن لم يجد**﴾ أي الهدي: فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ.

وقال تعالى: ﴿**وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٣٦) لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ**﴾(الحج - ٣٦: ٣٧)

"والبدن": جمع بدنة، سميت كذلك لعظم بدنها وهي الإبل خاصة، ولأن رسول الله ﷺ ألحق البقر بالإبل فعن جابر بن عبد الله قال: "نحرنا مع رسول الله ﷺ عام الحديبية البدنة عن سبعة والبقرة عن سبعة"[١] صدق رسول الله ﷺ.

"من شعائر الله": أي من أعلام دينه التي شرعها الله ﷻ

"لكم فيها خير": ونلحظ هنا تنكير "خير" لتفيد عموم واتساع هذا الخير والنفع.

يقول صاحب التحرير والتنوير: "الخير": النفع الذي يحصل للناس في الدنيا من انتفاع الفقراء بلحومها وجلودها، وما يحصل للمهدين وأهلهم من الشبع من لحمها يوم النحر، وخير الآخرة من ثواب المهدين، وثواب الشكر من المعطين لحومها لربهم الذي أغناهم بها. لذا أمر الناس بأن يذكروا اسم الله عليها حين نحرها"[٢].

فالحاج من شأنه الحرص على كل ما له فيه خير ونفع، وذكر الله عليها عند الذبح هو قول بسم الله والله أكبر اللهم منك وإليك.

"صواف": أي قائمات قد صففن أيديهن وأرجلهن فهو جمع صافة ولعلهم كانوا يصفونها في المنحر يوم النحر بمنى.

"فإذا وجبت جنوبها": أي سقطت جنوبها كناية عن زوال الروح عنها وهو ما يدل على الأمر بالإسراع والمبادرة من الانتفاع بها، والذي تدعمه "الفاء" الداخلة على فعل الأمر "كلوا" واختلف الفقهاء في الأكل من لحوم الهدايا الواجبة، وقد رصد صاحب التحرير والتنوير آراء الفقهاء في هذه المسألة فيقول:

قال مالك: يباح الأكل من لحوم الهدايا الواجبة، وهو عنده مستحب، ولا يؤكل من فدية الأذى وجزاء الصيد ونذر المساكين.

(١) صحيح مسلم: كتاب: الحج، باب: الاشتراك في الهدي، جـ٥، صـ٥٦ حديث رقم ١٣١٨.
(٢) التحرير والتنوير: للطاهر بن عاشور، جـ١٧، صـ٢٦٣.

وقال أبو حنيفة: يأكل من هدي التمتع والقران، ولا يأكل من الواجب الذي عينه الحاج عند إحرامه.

وقال الشافعي: لا يأكل من لحوم الهدايا بحال مستندًا إلى القياس، وهو أن المهدي أوجب إخراج الهدي من ماله فكيف يأكل منه؟

وقال أحمد: يؤكل من الهدايا الواجبة إلا جزاء الصيد والنذر [١]

فأكثر الآراء على جواز الأكل من لحوم الهدي.

"وأطعموا القائع والمعتر": وقد جاء في تفسير الجلالين:

"القانع: الذي يقنع بما يُعطى ولا يسأل ولا يعترض

والمعتر: السائل أو المتعرض لأكل اللحم"[٢]

﴿**كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ**﴾: أي مع كمال عظمها ونهاية قوتها فلا تستعصي عليكم حتى إنكم تأخذونها منقادة فتذبحونها وتنتفعون منها فهذه نعمة تستوجب الشكر لذا قال تعالى ﴿**لعلكم تشكرون**﴾.

أما الآية التالية ﴿**لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا**....﴾

فيقول ابن كثير: وقد كانوا في جاهليتهم إذا ذبحوها لآلهتهم وضعوا عليها من لحوم قرابينهم ونضحوا عليها من دمائها فقال تعالى: ﴿**لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا**﴾

وعن ابن جريج قال: كان أهل الجاهلية ينضحون البيت بلحوم الإبل ودمائها فقال أصحاب رسول الله ﷺ: فنحن أحق أن ننضح فأنزل الله ﴿**لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنكُمْ**﴾[٣]

(١) التحرير والتنوير: جـ١٧، صـ٢٦٥.

(٢) تفسير الجلالين: جلال الدين المحلي، جلال الين السيوطي، مراجعة أحمد محمد شاكر، على محمد شاكر، دار المعارف بمصر، جـ٢، صـ٦٠.

(٣) تفسير ابن كثير: جـ٥، صـ٤٣١.

وفي هذه الآية إظهار للحكمة من وراء ذبح الهدي أو ذبح الأضحية فلن يصيب الله تعالى هذه اللحوم المتصدق بها، ولا الدماء المهراقة بالنحر، لكن يصيبه ما يصحب ذلك من تقوى قلوبكم التي تدعوكم إلى تعظيمه تعالى والتقرب له سبحانه، والإخلاص له ﷻ

وفي قوله تعالى: ﴿**على ما هداكم**﴾ يقول صاحب التحرير والتنوير: "على للاستعلاء المجازي الذي هو بمعنى التمكن. أي لتكبروا الله عند تمكنكم من نحرها"[١].

ولكن أقول: إن "على" هنا بمعنى التعليل، وبهذا الموضع استشهد المرادي حيث قال: "ومن معاني "على" التعليل: كقوله تعالى "ولتكبروا الله على ما هداكم"[٢] فيكون سبب تكبير الله وحمده نعمة الهدي وما يلحق بها من منافع شتى في الدنيا والآخرة.

"وبشر المحسنين": أي وبشر يا محمد المحسنين المتبعين أوامر الله الملتزمين بحدوده.

وحول معنى أن الهدي ما جعل إلا لصالح الناس

قال تعالى ﴿**جَعَلَ اللّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِّلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلاَئِدَ ذَلِكَ لِتَعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَنَّ اللّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**﴾(المائدة – ٩٧)

وفي ذكر الهدي والقلائد مع ذكر الكعبة والشهر الحرام فيه إيماءة إلى عظم نفعها للناس، وقيامًا للناس: أي تقوم به حياتهم.

---

(١) التحرير والتنوير: للطاهر بن عاشور، جـ ١٧، صـ ٢٧٠.

(٢) الجنى الداني في حروف المعاني: للحسن بن قاسم المرادي، تحقيق الدكتور/ فخر الدين قباوة، أ/ محمد نديم فاضل، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط ١، ١٩٩٢، صـ ٢٧٧

وعظم شأن الكعبة معروف، وعطف الشهر الحرام عليها شبه عطف الخاص على العام باعتبار كون الكعبة أريد بها ما يشمل علائقها وتوابعها، فإن الأشهر الحرم ما اكتسبت الحرمة إلا من حيث هي أشهر الحج والعمرة للكعبة، وكذلك عطف "الهدي" و"القلائد".

ويقول صاحب التحرير والتنوير: وكون الهدي قيامًا للناس ظاهر، لأنه ينتفع ببيعه للحاج أصحاب المواشي من العرب، وينتفع بلحومه من الحاج فقراء العرب فهو قيام لهم، وكذلك القلائد فإنهم ينتفعون بها، فيتخذون من ظفائرها مادة عظيمة للغزل والنسج، فتلك قيام لفقرائهم، ووجه تخصيصها بالذكر هنا، وإن كانت من أقل آثار الحج، التنبيه على أن جميع علائق الكعبة فيها قيام للناس حتى أدنى العلائق، وهو القلائد، فكيف بما عداها من جِلال البدن ونعالها وكسوة الكعبة"[1].

ولهذا الترتيب دلالة: "فقد ذكر الله ﷻ القوام من المكان "الكعبة/ البيت الحرام" وتبع ذلك القوام من الزمان "الشهر الحرام" فلما ذكر ما به القوام من المكان والزمان أتبعه بما به قوام الفقراء من شعائر فقال: "والهدي" ثم أتبعه أعزه وأخصه فقال: "والقلائد": أي والهدي العزيز الذي يقلد فيذبح ويقسم على الفقراء"[2]

ومن الآيات التي تتحدث عن ذبح الأضاحي وإراقة الدماء باعتبارها منسكًا من مناسك الله قوله تعالى: ﴿**وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ**﴾(الحج - ٣٤)

(١) التحرير والتنوير، للطاهر بن عاشور، جـ٧، صـ٥٨ - ٥٩.

(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: لبرهان الدين أبي الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي (٨٠٩ - ٨٨٥هـ) مكتبة ابن تيمية، ط١، ١٩٧٣، جـ٧، صـ٣٠٧.

والنسك: العبادة والطاعة وكل ما تقرب به إلى الله تعالى، والنسيكة الذبيحة، وقيل: النسُك: الدم، تقول: من فعل كذا وكذا فعليه نُسُك: أي دم يهريقه بمكة شرفها الله تعالى، واسم تلك الذبيحة النسيكة، والجمع: نُسُك، ونَسَائِك.

والمَنْسَك، المَنْسِك الموضع الذي تذبح فيه النسيكة، ونَسَك ينْسُك نِسْكًا إذا ذبح، ويقال للمتعبد: ناسك [1] يقول صاحب الكشاف:

"شرع الله لكل أمة أن ينسكوا له: أي يذبحوا لوجهه على وجه التقرب، وجعل العلة في ذلك أن يذكر اسمه تقدست أسماؤه على النسائك"[2].

وقال بعض أهل العلم منسكًا: عيدًا. فالمراد أن المسلمين لهم منسك واحد هو البيت الحرام.

يقول صاحب التحرير والتنوير: "وفي ذلك رد على المشركين؛ إذ جعلوا لأصنامهم مناسك تشبه مناسك الحج، وجعلوا لها مواقيت ومذابح مثل الغَبغَب منحر العزى، فذكرهم الله تعالى بأنه ما جعل لكل أمة إلا منسكًا واحدًا للقربان إلى الله تعالى الذي رزق الناس الأنعام التي يتقربون إليه بها فلا يستحق غير الخالق الرازق أن يُجعل له منسك فتتعدد المناسك"[3]. ودلالة تنكير "منسكًا" هنا تفيد الإفراد.

﴿**لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُم**﴾، وحرف الجر "على" هنا يفيد التعليل أي يذكروا اسم الله بسبب ما رزقهم من بهيمة الأنعام.

﴿**فَلَهُ أَسْلِمُوا**﴾: هنا تقديم وتأخير إذ تقدم الجار والمجرور ليفيد الحصر فلا يكون التسليم والانقياد إلا لله وحده.

---

(١) انظر: لسان العرب: لابن منظور، مادة نسك

(٢) الكشاف: للزمخشري، جـ٣، صـ٢٢٤.

(٣) التحرير والتنوير: للطاهر بن عاشور، جـ١٧، صـ٢٥٩.

﴿وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ﴾: أي المتواضعين لله ﷻ فالتواضع لله من سمات المؤمن الحق.

وكما يذبح الحاج فإن المستطيع من غير الحجيج عليه ذبح الأضحية.

قال تعالى: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ . (الكوثر)

وهنا استدل العلماء على وجوب آداء صلاة العيد أولاً ثم القيام بالنحر بعد ذلك.

والنحر أفضل نفقات العرب، لكن النحر يختص بالإبل والبقر، أما الضأن فيذبح، ومعلوم أن النبي ﷺ ضحى بكبشين أملحين، أي أنه لم يضح إلا بالضأن، والظاهر تغليب لفظ النحر، وهو الذي روعي في تسمية يوم الأضحى يوم النحر، وليشمل الأضحية من البدن والهدي في الحج وليعم كذلك ما يذبحه الحاج في الأراضي المقدسة أو غير الحاج في باقي بلاد المسلمين.. والله أعلم.

أما عن الربط بين الصلاة لله والنحر.

فيقول الألوسي: "إن الصلاة جامعة لجميع أقسام الشكر ولذا قيل فصلِ دون فاشكر، وانحر البدن التي هي خيار أموال العرب باسمه تعالى وتصدق على المحاويج خلافًا لمن يدعهم ويمنع منهم الماعون"[1] .

ولكن هناك بعض الآراء توجه قول الله ﷻ "فصل لربك وانحر" توجيهًا آخر: فقد جاء في تفسير الطبري: من قال إنها: وضع اليد على اليد في الصلاة وقال غيرهم: وضع اليد على اليد ومنهم من قال: أن يرفع يديه إلى النحر عند افتتاح الصلاة والدخول فيها، بل منهم من قال: وانحر: استقبل القبلة بنحرك أي ذاكرًا أنه سمع بعض العرب يقول منازلهم تتناحر أي هذا بنحر هذا: أي قبالته.

وذكر أن بعض بني أسد أنشده "الطويل"

(١) تفسير الألوسي: جـ٣٠، صـ٢٤٦

أبا حَكَـمٍ هَل أَنْتَ عَمُ مُجالِدٍ وسَيِّـدِ أَهْـلِ الأَبْطَـحِ المتَنَاحِرِ [١]

أي ينحر بعضه بعضًا [٢]

على أن الطبري نفسه يستبعد هذه الآراء قائلاً:

"وأولى هـذه الأقـوال عنـدي بالصـواب قـول مـن قـال: فاجعـل صلاتـك كلهـا لربـك خالصًـا دون مـا سـواه مـن الأنـداد والآلهـة، وكذلـك نحـرك اجعلـه لـه دون الأوثـان شـكرًا لـه عـلى مـا أعطـاك مـن الكرامـة والخـير الـذي لاكـفء لـه [٣] . وكذلـك ذكـر الألـوسي في تفسـيره: "والأكثـر عـلى أن المـراد بالنحـر نحـر الأضاحـي" [٤] .

ثانيًا: دليل على الاستجابة لأوامر الله:-

وثمـة دور آخـر للعنـصر الحيـواني نرصـده. إذ جـاء دليـلاً عـلى اسـتجابة العبـاد لأمـر الله لهـم بالحـج الـذي شرعـه الله للمسـلمين وأمرهـم بـه وجعـل أفئـدة النـاس تهـوي إلى بيتـه الحـرام.

قـال تعـالى: ﴿**وَأَذِّن فِي النَّـاسِ بِالْحَـجِّ يَأْتُـوكَ رِجَـالاً وَعَـلَى كُلِّ ضَامِـرٍ يَأْتِـينَ مِـن كُلِّ فَـجٍّ عَمِيـقٍ**﴾ (الحـج - ٢٧)

فبمجـرد النـداء بالحـج يلبـي النـاس مـن كل فـج عميـق رجـالاً يسـعون عـلى أقدامهـم أو ركوبًـا عـلى كل ضامـر.

والضامـر هنـا صفـة للدابـة.. وسـيلة انتقـال العـربي الأول وهـي في اللغـة بمعنـى الهـزال وخفـة اللحـم، بيـد أن صاحـب التحريـر والتنويـر يضيـف صفـة أخـرى تخـرج بالكلمـة عـن معناهـا المـراد إذ يقـول: "والضمـور مـن محاسـن الرواحـل

(١) لم ينسب لقائل معين

(٢) تفسير الطبري: جـ٢٤، صـ٦٥٢ وما بعدها

(٣) نفسه: جـ٢٤، صـ٦٥٥

(٤) تفسير الألوسي: جـ٣٠، صـ٢٤٧

والخيل لأنه يعينها على السير والحركة"[١].

وهنا لا تكون على الراكب مشقة.. ولكن السياق قد يخالف هذا الرأي إذ قال تعالى "يأتوك رجالاً" أي يواجهون مشقة في بلوغ البيت الحرام سيرًا وسعيًا على الأقدام، ويستوجب ذكر المشقة كذلك تمشيًا مع السياق أن تكون "ضامر" بمعنى مجهدة لكثرة السير هزيلة، وهنا تجد صعوبة في بلوغ البيت الحرام.. وهو ما يناسب السياق. الذي يعبر عن مدى حرص المؤمنين على تلبية أمر الله بالحج.. وتحمل المشاق والصعاب والجهد الجهيد وسواء عبر عن "الضامر" بأنه دابة قوية فتية يسهل سيرها وقطعها المسافات الطوال طاعة الله، أو كانت الضامر هزيلة ضعيفة فإنها في الحالتين دليل على حرص المؤمنين ومبادرتهم إلى تلبية دعوة الله لعباده بالحج.. والله أعلم بمراده.

ثالثًا: المباح والمحرم من الصيد للمُحرِم:-

إن الحاج حال إحرامه يمنع من أشياء، وتحل له أشياء أخرى فمما يمنع منه - وله علاقة بالحيوان - صيد البر وقت إحرامه فإذا تحلل من الإحرام أحل له ذلك الصيد، وأحل له صيد البحر وطعامه كما أحل له قتل بعض الحيوانات في الحل وفي الحرم، وهي ما نصت عليه السنة النبوية المطهرة، ولا يخلو الأمر من بعض الابتلاء والاختبار بغية التمحيص، ومعرفة من يخاف الله بالغيب.. وهذا أصل الإخلاص مع الله والصدق مع النفس.

قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٩٤) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَقْتُلُواْ الصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاء مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَو عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللّهُ عَمَّا سَلَف وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ اللّهُ**

(١) التحرير والتنوير: للطاهر بن عاشور، جـ١٧، صـ٢٤٤.

مِنْـهُ وَاللّـهُ عَزِيـزٌ ذُو انْتِقَـامٍ (٩٥) أُحِـلَّ لَكُـمْ صَيْـدُ الْبَحْـرِ وَطَعَامُـهُ مَتَاعًـا لَّكُـمْ وَلِلسَّـيَّارَةِ وَحُـرِّمَ عَلَيْكُـمْ صَيْـدُ الْـبَرِّ مَـا دُمْتُـمْ حُرُمًـا وَاتَّقُـواْ اللّـهَ الَّـذِيَ إِلَيْـهِ تُحْـشَرُونَ (٩٦)﴾. (المائـدة - ٩٤: ٩٦)

وتفتتـح الآيـات بنـداء للمؤمنـين فيـه إخبـار بأنهـم سـيخوضون امتحانًـا وتمحيصًـا ليظهـر مـدى تمسـكهم بوصايـا الله ﷻ وأوامـره وتركهـم لنواهيـه. وفي هـذه الآيـة تمهيـد للآيـة التاليـة ﴿**يـا أيهـا الذيـن آمنـوا لا تقتلـوا الصيـد وأنتـم حـرم**﴾.

وقولـه تعـالى: "تَنَالُـهُ أَيْدِيكُـمْ" أي صيـد سـهل الحصـول عليـه بمجـرد مـد أيديكـم "وَرِمَاحُكُـمْ"، وهـو هـين أيضًـا فتصـل إليـه رماحهـم بـدون كبـير مشـقة، ولكلمـة: "تَنَالُهُ" دلالـة؛ إذ تعـبر عـن سـهولة هـذا الصيـد الـذي هـو في متناولهـم.

وتوحي كلمة "شيء" التي جاءت بصيغة النكرة بالتنويع.

وعلـة هـذا الاختبـار تكمـن في قولـه تعـالى ﴿**لِيَعْلَـمَ اللّـهُ مَـن يَخَافُـهُ بِالْغَيْبِ**﴾وهـو اختبـار في الإخـلاص والـذي هـو عـماد الإيـمان.

أمـا عـن تفصيـل الصيـد الـذي تنالـه الأيـدي أو الرمـاح فيقـول صاحـب التحرير والتنويـر: "أشـارت الآيـة إلى أنـواع الصيـد صغـيره وكبـيره فقـد كانـوا يمسـكون الفـراخ بأيديهـم ومـا هـو وسـيلة إلى الإمسـاك بالأيـدي مـن شـباك وحبـالات وجـوارح لأن جميـع ذلـك يئـول إلى الإمسـاك باليـد، وكانـوا يعـدون وراء الكبـار بالخيـل والرمـاح كـما كانـوا يفعلـون بالحمـر الوحشـية وبقـر الوحـش"[1].

أمـا مـن اجـترأ وتعـدى حـدود الله مـن بعدمـا بينهـا الله ﷻ للنـاس فيسـتحق العـذاب الأليـم فجـاء ختـام الآيـة بقولـه تعـالى "فمـن اعتـدى بعـد ذلـك فلـه عـذاب أليـم".

(١) التحرير والتنوير: للطاهر بن عاشور، جـ٧، صـ٣٩.

وهـذا العـذاب الأليـم لمـن لم يتـب ويتـدارك خطـأه بالتوبـة أو الكفـارة وهـذا مـن عظيـم رحمـة الله بعبـاده في كل أحوالهـم حتـى في حـال المعصيـة لـذا جـاءت الآية التاليـة قولـه تعـالى: ﴿**يَـا أَيُّهَـا الَّذِيـنَ آمَنُـواْ لاَ تَقْتُلُـواْ الصَّيْـدَ وَأَنتُـمْ حُـرُمٌ وَمَـن قَتَلَـهُ مِنكُـم مُّتَعَمِّـدًا فَجَـزَاء مِّثْـلُ مَـا قَتَـلَ مِـنَ النَّعَـمِ يَحْكُـمُ بِـهِ ذَوَا عَـدْلٍ مِّنكُـمْ هَدْيًـا بَالِـغَ الْكَعْبَـةِ أَوْ كَفَّـارَةٌ طَعَـامُ مَسَـاكِينَ أَو عَـدْلُ ذَلِـكَ صِيَامًـا لِّيَـذُوقَ وَبَـالَ أَمْـرِهِ عَفَـا اللّـهُ عَمَّـا سَـلَف وَمَـنْ عَـادَ فَيَنتَقِـمُ اللّـهُ مِنْـهُ وَاللّـهُ عَزِيـزٌ ذُو انْتِقَـامٍ**﴾ (المائـدة – ٩٥)

وهـذه الآيـة مرتبطـة بالآيـة الأولى مـن نفـس السـورة: ﴿**يَـا أَيُّهَـا الَّذِيـنَ آمَنُـواْ أَوْفُـواْ بِالْعُقُـودِ أُحِلَّـتْ لَكُـم بَهِيمَـةُ الأَنْعَـامِ إِلاَّ مَـا يُتْـلَى عَلَيْكُـمْ غَـيْرَ مُحِـلِّي الصَّيْـدِ وَأَنتُـمْ حُـرُمٌ إِنَّ اللّـهَ يَحْكُـمُ مَـا يُرِيدُ**﴾(المائـدة – ١)

والتـي تتحـدث عـن تحريـم الصيـد حـال الإحـرام.. وقـد سـبق تناولهـا وقلنـا عـن تحريـم الصيـد هنـا تحريـم مؤقـت مرتبـط بحالـة الإحـرام ولكـون الصائـد محرمًـا، وكـون الصيـد مـن صيـد الحـرم لكنهـا توضـح جـزاء مـن وقـع في هـذا الخطـأ متعمـدًا فـإن الله ﷻ مـن رحمتـه أنـه لا يؤاخـذ عبـاده عـلى نسـيانهم، فعـن أبي هريـرة قـال: قـال رسـول الله ﷺ "إن الله تجـاوز عـن أمتـي الخطـأ والنسـيان ومـا اسـتكرهوا عليـه"[1].

والجـزاء مرتبـط - كـما تـدل الآيـة - عـلى حالـة قتـل الصيـد، أمـا جرحـه فليـس فيـه جـزاء. كـما أن الجـزاء يقـع بمـن قتـل الصيـد سـواء أكل منـه أم لم يـأكل. ولكـن أليـس عـلى النـاسي غـرم؟

الحـق أن الآيـة لم توضحـه، وقـال صاحـب التحريـر والتنويـر: "ليـس في ذلـك أثر عـن النبـي ﷺ، وقـال مالـك، وأبـو حنيفـة، والشـافعي وجمهـور فقهـاء الأمصـار: إن العمـد والخطـأ في ذلـك سـواء، لذلـك سـوى بينهـما.

(١) سـنن ابـن ماجـه: كتـاب: الطـلاق، بـاب: طـلاق المكـره والنـاسي، جـ٢، صـ٥١٧، حديـث رقـم ٢٠٤٣.

وقال مجاهد والحسن، وابن زيد، وابن جريج: إن كان متعمدًا للقتل ناسيًا إحرامه. فهو مورد الآية، فعليه الجزاء، وأما المتعمد للقتل وهو ذاكر لإحرامه فهذا أعظم من أن يكفر وقد بطل حجه، وصيده جيفة لا يؤكل "[1].

ولكني أرى أن الآية ما نصت إلا على متعمد القتل من المحرمين ولو تتبعنا ضمير المخاطب لدلنا على ذلك.

﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ**﴾: نداء لعامة المؤمنين.

﴿**لاَ تَقْتُلُواْ الصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ**﴾: لا تقتلوا الصيد حال إحرامكم أيها المؤمنون ﴿**وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا**﴾: أي من تعمد قتل الصيد وهو محرم منكم أيها المؤمنون.

من هنا فلا نجد أن الآية صرحت ببطلان حج من تعمد قتل الصيد وهو محرم، بل فرضت عليه كفارة، ويكون على الناسي جزاء فجمهور العلماء على أن العامد والناسي سواء في وجوب الجزاء عليه لأن قتل الصيد إتلاف.

والإتلاف مضمون في العمد وفي النسيان لكن المتعمد مأثوم والمخطئ غير ملوم ﴿**فَجَزَاء مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ**﴾، والجزاء من جنس العمل، فكما تعمد هذا المحرم قتل الصيد فتكون كفارته من قتله سواء بالمثل أو بالقيمة، قال ابن كثير: "والذي حكم به الصحابة في المثل أولى بالاتباع فإنهم حكموا في النعامة ببدنة، وفي بقرة الوحش ببقرة، وفي الغزال بعنز، وأما إذا لم يكن الصيد مثليًا - لا مثيل له من البهيمة - فقد حكم ابن عباس فيه بثمنه يحمله إلى مكة، وقوله: "يحكم به ذوا عدل منكم": يعني أنه يحكم بالجزاء في المثل، أو بالقيمة في غير المثل عدلان من المسلمين "[2] وقال أبو حنيفة: يشتري بالقيمة هديًا إن شاء وإن شاء اشترى طعامًا.

(١) التحرير والتنوير: للطاهر بن عاشور، جـ٧، صـ٤٤.

(٢) تفسير ابن كثير: جـ٣، صـ١٩٢.

وقوله تعالى: ﴿هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ﴾: أي واصلاً إلى الكعبة والمراد وصوله إلى الحرم، بأن يذبح هناك، ويفرق لحمه على مساكين الحرم أو كفارة طعام مساكين أو عدل ذلك صيامًا.

يقول صاحب التحرير والتنوير: "مقدار الطعام موكول إلى الحكمين، وقد شاع عن العرب أن "المد" من الطعام هو طعام رجل واحد، لذا قدره مالك بمد لكل مسكين.. وهو قول أكثر العلماء.

ومن العلماء من قدر لكل حيوان معادلاً من الطعام. فعن ابن عباس يعدل الظبي إطعام ستة مساكين، والأيل يعدل بإطعام عشرين مسكينًا، وحمار الوحش بثلاثين"، والأحسن أن ذلك موكول إلى الحكمين"[1].

وأرى أن هذا من مرونة القرآن وصلاحيته لكل مكان وزمان؛ إذ يكون الحكمان أعلم بأحوال زمنهم، وأوعى باحتياجات عصرهم ﴿لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ﴾ ﴿عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾

ولا يكون المحرم ممنوعًا من قتل كل الكائنات الحية وإن كان القرآن لم يصرح بالمباح للمحرم أن يقتله فإن السنة النبوية قد ذكرت ذلك فعن عائشة ﵂ قالت: قال رسول الله ﷺ: "خمس من الدواب كلها فاسق لا حرج على من قتلهن العقرب والغراب والحدأة والفأرة والكلب العقور" صدق رسول الله ﷺ[2]

كما ذكرنا من قبل: أن الله ﷻ ما حرم على المسلمين شيئًا ألا أوجد له البدائل الطيبة الكثيرة فيقول تعالى:

﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾(المائدة - ٩٦)

(١) التحرير والتنوير: للطاهر بن عاشور، جـ٧، صـ٤٨.

(٢) صحيح مسلم: كتاب: الحج باب: ما يندب للمحرم وغيره، جـ٥، صـ٣١٨، رقم ١٢٠٠.

وكأن المباح للمسلمين واسع اتساع البحر و﴿**صيد البحر**﴾بمعنى المصيد وهو ما خرج من البحر كالسمك وغيره فأطلق الله ﷻ الإباحة في صيد البحر للمحرم إذ ليس في شيء من أرض الحرم بحر لأن أصل الحكمة في حرمة الصيد على المحرم هي حفظ حرمة الكعبة وحرمها.

والأمر هنا مختص بما يعيش في البحر فحسب، لذا سمي صيد البحر، أما ما يعيش في البر والبحر فليس من صيد البحر كالضفدع والسلحفاة ولكننا نلحظ العطف بين ﴿**صيد البحر وطعامه**﴾أليسا بمعنى؟

فقد ذكر الطبري في تفسيره آراء العلماء[1] في قوله تعالى: ﴿**طَعَامُهُ**﴾وأجمعوا على أنها بمعنى: ما قذف به إلى ساحله ميتًا أو طعامه: ميتته ولا اختلاف بينهما في هذا.

﴿**مَتَاعًا لَّكُمْ**﴾لتنفعوا وتتمتعوا به، ﴿**لِلسَّيَّارَةِ**﴾: وهي الجماعة السائرة في الأرض لسفر أو تجارة"والمعنى: أحل لكم صيد البحر تتمتعون بأكله ويتمتع به المسافرون أي تبيعونه لمن يتجرون ويجلبونه إلى الأمصار"[2]

﴿**وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا**﴾

وتكرار تحريم صيد البر وقت الإحرام فيه توكيد لما سبق في الآية السابقة في قوله تعالى: ﴿**لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم**﴾.

﴿**ما دمتم حرمًا**﴾: تحديد لوقت تحريم الصيد بفترة الإحرام القليلة، وفي ذلك تسرية لنفوسهم وتخفيف عنهم؛ إذ هي مدة محدودة ﴿**واتقوا الله الذي إليه تحشرون**﴾: أي اتقوه فيما نهاكم من الصيد وفي جميع ما أمركم به فإنكم راجعون إليه وحده.

(١) تفسير الطبرى: جـ١١، صـ٦٣.

(٢) التحرير والتنوير: للطاهر بن عاشور، جـ٧، صـ٥٢ - ٥٣.

المبحث الخامس: الحيوان والرزق

خلق الله الكون وما فيه من مخلوقات وتكفل ﷻ برزق جميع خلقه، بل إنه ﷻ أوجب على نفسه الرزق للخلق قبل أن يثبت لنفسه العلم بأحوالهم قال تعالى: ﴿**وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ**﴾ (هود - ٦)

والدابة: هي كل ما يدب على الأرض من غير الإنسان ويقصد بالرزق هنا الطعام.. قال تعالى:﴿**كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا**﴾ (آل عمران- ٣٧)

وقوله ﷻ ﴿**وما من دابة**﴾تفيد تعميم رزق الله لكل عباده وفي قوله تعالى: ﴿**على الله رزقها**﴾تقديم وتأخير فقدم (على الله) قبل متعلقه وهو (رزقها) لإفادة القصر، أي أن رزق هذه الدواب على الله ﷻ لا على غيره.. يقول صاحب التحرير والتنوير: "أما "على"والتي تدل على اللزوم والمحقوقية، ومعلوم أن الله لا يلزمه أحد شيئًا، فما أفاد معنى اللزوم فإنما هو التزامه بنفسه بمقتضى صفاته المقتضية ذلك له كما أشار إليه قوله تعالى: ﴿**وَعْدًا عَلَيْنَا**﴾(الأنبياء - ١٠٤)، وكذلك قوله تعالى: ﴿**حَقًّا عَلَيْنَا**﴾(يونس - ١٠٣) [1].

وأقول إن هذا التكفل لهو من باب تفضل الله على عبيده؛ فالدواب لا حيلة لها في اكتساب رزقها، وهذا دليل على أنه عليم بأحوالها وهنا تتجلى لنا "دلالة الترتيب"والتي إن دلت على شيء فإنما تدل على رحمة الله بجميع مخلوقاته؛ إذ يُبدأ بذكر تكفل الله برزق كل ما يدب في الأرض ثم ذكر علمه بجميع أحوالها في قوله تعالى ﴿**ويعلم مستقرها ومستودعها**﴾.

لكن هذه الكائنات الحية تتوكل على الله حق توكله.. حتى أن رسول الله ﷺ ضرب بها المثل في حسن التوكل على الله، فعن عمر بن الخطاب قال سمعت

(١) التحرير والتنوير: للطاهر بن عاشور، جـ١٢، صـ٦.

رسول الله ﷺ يقول: ﴿**لو أنكم توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصًا وتروح بطانا**﴾[١]

وما يعضد أن الدواب لا حيلة لها في اكتساب الرزق ما جاء في سورة العنكبوت إذ قال تعالى: ﴿**وَكَأَيِّن مِن دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ**﴾ (العنكبوت - ٦٠)

أما عن الدابة هنا فهي رمز لكل المخلوقات بما فيها الإنسان. فمنها استدلال على ضمان رزق عباد الله الذي يرزق الدواب التي تسير في الأرض لا تحمل رزقها أما عن عطف "وإياكم" على ضمير "دابة" فيقول صاحب التحرير والتنوير: "المقصود منها: التمثيل في التيسير والإلهام للأسباب الموصولة وإن كانت وسائل الرزق مختلفة"[٢].

وقد جاء في ذكر أسباب نزول هذه الآية عن ابن عمر قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ حتى دخل بعض حيطان الأنصار فجعل يلقط من التمر ويأكل فقال: "يا ابن عمر ما لك لا تأكل" فقلت: لا أشتهيه يا رسول الله فقال: "لكن أشتهيه وهذه صبيحة رابعة ما ذقت طعامًا ولو شئت لدعوت ربي فأعطاني مثل ملك كسرى وقيصر فكيف بك يا ابن عمر إذا بقيت في قوم يخبئون رزق سنتهم ويضعف اليقين" قال: فو الله ما برحنا حتى نزلت ﴿**وَكَأَيِّن مِن دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ**﴾[٣].

أما عن "دلالة الترتيب" هنا إذ جاء ذكر رزق الدابة التي لا تحمل رزقها مقدمًا على رزق الله ﷻ للناس ليكون أبلغ في القدرة؛ فإن الله ﷻ يرزق الدواب المنتشرة في بقاع الأرض فلا يعجزه أن يرزقكم أنتم فالله ﷻ يرزق الدواب الضعاف كما يرزقكم أنتم أيها الأقوياء.

(١) سنن ابن ماجه: كتاب الزهد، باب: التوكل واليقين، جـ٤، صـ٤٩٤، حديث رقم ٤١٦٤ ٣١٨
(٢) التحرير والتنوير: للطاهر بن عاشور، جـ٢١، صـ٢٥.
(٣) أسباب النزول: للواحدي، صـ٢٦٦

ويقول صاحب الكشاف: "لما أمر رسول الله ﷺ من أسلم بمكة بالهجرة؟ خافوا الفقر والضيعة فكان يقول الرجل منهم: كيف أقدم بلدة ليس لي فيها معيشة فنزلت الآية"(١).

إذن فالآية وإن كانت الصدارة فيها للدواب بدلالة تقدم ذكرها في الآية، فإنها تهدف ابتداءً إلى ضمان الله ﷻ لرزق عباده من الناس، بل إنه يرزق كل الناس برهم وفاجرهم، مؤمنهم وكافرهم ولا يكون مقدار الرزق مقياس تفاضل بين الناس. فإن الله ﷻ يفضل بعض الناس على بعض في الرزق لحكمة لا يعلمها إلا هو قال تعالى: ﴿**وَاللّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الْرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُواْ بِرَآدِّي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاء أَفَبِنِعْمَةِ اللّهِ يَجْحَدُونَ**﴾(النحل - ٧١)

والرزق من أمر الله ﷻ ومن أسمائه الحسنى "الرزاق" فلا يرزق إلا الله ﷻ قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاء وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ**﴾ (فاطر - ٣)

قال تعالى: ﴿**وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ شَيْئًا وَلاَ يَسْتَطِيعُونَ**﴾(النحل - ٧٣)

ولا يقتصر رزق الإنسان على الطعام والشراب، فالمال رزق والولد رزق بل إن حسن العمل رزق.. فالرزق كلمة عامة تشمل أنواع الخير كافة.. هذا إن ذكرت في شأن الإنسان، أما إذا ذكر الرزق في شأن الحيوان فيقصد به الطعام والماء فحسب، ويرتبط رزق الحيوان ارتباطًا وثيقًا بنفع الإنسان فلو أقمنا معادلة رياضية لوجدنا أنه كلما زاد رزق الأنعام زاد نفع الإنسان، فكأنها علاقة تناسب طردي؛ فرزق الأنعام مرتبط برزق الإنسان، وهذا الارتباط بين الحيوان والإنسان في الرزق عبر عنه القرآن في غير آية.

(١) الكشاف: للزمخشري، جـ٣، صـ٤٩٤.

ولأن أصل الرزق، أو أصل الطعام هو الماء؛ فقد تردد ذكر الماء كرزق في قوله تعالى: ﴿**لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا**﴾ (الفرقان - ٤٩)

وفي قوله تعالى: ﴿**أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاء إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ**﴾ (السجدة - ٢٧)

فالآيتان تتحدثان عن نعمة الماء وما تأتي به من نفع يعود خيره على الأنعام وعلى الإنسان على حد سواء.

فالضمير في الآية الأولى يعود على ﴿**الماء الطهور**﴾ الذي ذكر في الآية السابقة عليها ﴿**وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاء مَاء طَهُورًا**﴾ (الفرقان - ٤٨)

وفي الآية نلحظ دلالة (مما) والمكونة من: (مِنْ، ما)

ف- "من" هنا تبعيضية إشارة إلى أن كثيرًا من الخلق ينتفع بالماء لكن الاقتصار على ذكر الأنعام والأناسي لأنهما موضع المنة فيسقيهم الله ﷻ لأنهم مخلوقات بما يدل على العناية الإلهية بجميع خلق الله ﷻ على اختلاف صورهم وأنواعهم.

يقول صاحب التحرير والتنوير: والأناسي: جمع إنس، وهو مرادف إنسان. فالياء فيه ليست للنسب وجمع على فعالِي مثل كُرسي وكراسي ولو كانت ياؤه نسب لجُمع على أناسية كما قالوا: صيرفي وصيارفة، ووصف الأناسي بـ "كثيرًا" لأن بعض الأناسي لا يشربون من ماء السماء، وهم الذين يشربون من مياه الأنهار كالنيل والفرات، والآبار والصهاريج، ولذلك وصف العرب بأنهم بنو ماء السماء فالمنة أخص بهم قال زيادة [1] "الطويل":

(١) زيادة بن زيد بن مالك بن ثعلبة بن عبد الله بن أسلم بن الحاف بن قضاعة شاعر إسلامي من شعراء صدر الإسلام ينتمي إلى بيت شعر، فأخوه عبد الرحمن شاعر وابنه السور شاعر أيضاً.

ونَحْنُ بنو ماءِ السَمَاءِ فَلا نَرَى لأنْفُسِنَا مِن دُونِ مَمْلَكَةٍ قَصْرَا (١)

وإن كان لدي تحفظ على توجيه صاحب التحرير والتنوير لكلمة "كثيرًا" وأرى أنها أريد بها سعة الرزق وسعة المنتفعين به من الناس لأن الذين يشربون من الأنهار أو غيرها.. فهم أيضًا يُرزقون من رزق الله رب هذه الأنهار ورب كل شيء.

أما الآية من سورة "السجدة" فتتحدث عن نفس النعمة، نعمة الماء الذي يكون سببًا في خروج الزروع المختلفة والمتنوعة بدلالة "منه" على ذلك، ف- "مِنْ" تبعيضية تدل على كثرة وتنوع ما يخرج من الأرض من مزروعات، فتأكل الأنعام منه ما يناسبها كالقصيل والورق وبعض الحبوب المخصوصة بها، ويأكل الإنسان ما يناسبه كالبقول والخضراوات والفاكهة.. وغيرها.

أما عن "دلالة الترتيب" هنا فتقديم الأنعام - كما أسلفت من قبل.. على الإنسان لأن منفعتها في نهاية الأمر تئول إلى الإنسان في نهاية الأمر، فالنفع إن كان يخصها في بادئ الأمر فإن هذا النفع على الإجمال واصل إلى الإنسان.

لكن الألوسي يرصد لنا سببًا آخر لتقدم الأنعام على الإنسان في هذا الموضع فيقول: "وقدم الأنعام لأن انتفاعها مقصور على ذلك والإنسان قد يتغذى بغيره ولأن أكلها منه مقدم لأنها تأكله قبل أن يثمر ويخرج سنبله، وقيل ليرتقي من الأدنى إلى الأشرف وهو بنو آدم"(٢)

ومن الآيات التي تتحدث عن رزق الله ﷻ للناس والأنعام قوله تعالى: ﴿**مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ**﴾ (النازعات - ٣٣)

---

(١) خزانة الأدب: تأليف عبد القادر بن عمر البغدادي "١٠٣٠ ـ ١٠٩٣ هـ" تحقيق أ/ عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، ط ١، ١٩٨٦، جـ٤، صـ٣٦.

(٢) روح المعاني: للألوسي، جـ٢١، صـ١٤٠.

ولا يمكن تناول هذه الآية بمعزل عما سبقها من آيات ليستبين لنا كنه هذا المتاع، فالآيات السابقة على هذه الآية يقول الله ﷻ فيها: ﴿**وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا (٣٠) أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءهَا وَمَرْعَاهَا (٣١) وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا (٣٢) مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ (٣٣)** ﴾(النازعات)

فيفهم أن المتاع هنا كل ما سبق من دحي الأرض وخروج الماء وإرساء الجبال. يقول صاحب الكشاف: دحاها: أي بسطها ومهدها للسكنى والذي يستوجب تسوية أمر المأكل والمشرب وإمكان القرار عليها والسكون بإخراج الماء والمرعى وإثباتها أوتادًا لها حتى تستقر ويستقر عليها.

والمقصود بالمرعى: ما يأكل الناس والأنعام. واستعير الرعي للإنسان كما استعير الرتع في قوله تعالى: ﴿**يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ**﴾(يوسف - ١٢) وقرئ يرتع: من الرعي[١]

ويرجع ابن كثير علة خلق هذه الأشياء كلها لمنفعة الناس والأنعام والتي هي في نهاية الأمر تئول إلى منفعة وتمتع الإنسان، وهو ما يوضح لنا "دلالة الترتيب" سواء في هذه الآية أو في الآية المشابهة لها "عبس ـ ٣٣" حيث قدم الضمير "لكم" الدال على الإنسان في هذين الموضعين لأنه في كل الأحوال المنتفع الأكبر.

ويقول ابن كثير: أي دحا الأرض فأنبع عيونها وأظهر مكنونها وأجرى أنهارها، وأنبت زروعها وأشجارها وثمارها، وثبت جبالها لتستقر بأهلها ويقر قرارها كل هذا متاع لخلقه ولما يحتاجون إليه من الأنعام التي يأكلونها ويركبونها مدة احتياجهم إليها في هذا الدار إلى أن ينتهي الأمد، وينقضي الأجل"[٢]

(١) الكشاف: للزمخشري، جـ٤، صـ٥٤١.

(٢) تفسير ابن كثير: جـ٨، صـ٣١٧.

وشبيه بهذه الآية قوله تعالى: ﴿**مَّتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ**﴾ (عبس - ٣٢)

والتي لا تنفصل عن سياقها الواردة فيه.

قال تعالى: ﴿**فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ (٢٤) أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاء صَبًّا(٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا (٢٦) فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا(٢٧) وَعِنَبًا وَقَضْبًا (٢٨) وَزَيْتُونًا وَنَخْلاً (٢٩) وَحَدَائِقَ غُلْبًا (٣٠) وَفَاكِهَةً وَأَبًّا (٣١) مَّتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ (٣٢)**﴾ (عبس ـ ٢٤: ٣٢)

إذ تتحدث هذه الآيات عن نعم الله ﷻ على الإنسان ومنها نعمة النبات الذي به بقاء حياة الإنسان وحياة ما ينفعه من الأنعام، والفاكهة: ما يأكله الناس على سبيل التفكة، والأب: "ما يأكله الدواب، وعن قتادة الفاكهة لكم والأب لأنعامكم وغاية كل هذه الأشياء تكمن في كونها "متاعًا لكم ولأنعامكم"والمتاع: ما ينتفع به زمنًا ثم ينقطع.

وما يقال في هذه الآية قد قيل في الآية الشبيهة بها (النازعات- ٣٣)

كما ارتبط رزق الناس برزق الأنعام وذلك في قوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاء أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاء فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّىَ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ**﴾(يونس-٢٤)

وإن كانت الآية تتحدث عن قصر التمتع بالحياة الدنيا، ومجئ الآخرة في الوقت الذي يظن أهل الدنيا أنهم قادرون عليها.

إلا أننا نلقي الضوء على قوله تعالى "مما يأكل الناس والأنعام"فتتجلى قدرة الله ﷻ في أن الماء الذي ينبت الزرع واحد والأرض واحدة، والثمر مختلف تمام الاختلاف، بل منه ما يناسب الإنسان ولا يناسب الحيوان، ومنه ما يناسب الحيوان ولا يناسب الإنسان.

ولا تفوتنا "دلالة العطف" في هذه البنية التمثيلية التي شبهت حال الدنيا في سرعة انقضائها وانقراض نعيمها بعد الإقبال، بحال نبات الأرض في جفافه وذهابه به حطامًا بعد ما التف وتكاثف وأصبح طعامًا للناس والأنعام، فالماء بمجرد نزوله: يختلط به نبات الأرض الذي سرعان ما يخرج ثمراته للناس والأنعام مؤذنًا بسرعة نماء الحياة كما أن الفاء في قوله تعالى "فجعلناها" تفيد السرعة كذلك بما يدل على سرعة انقضاء وزوال نعيمها بعد البهجة به وانتشار النضارة وأسباب رغد العيش.

وثمة شيء آخر يلفت أنظارنا فلا يخلو ارتباط رزق الإنسان برزق الحيوان من تلك الدعوى التي جاء بها الإسلام وهي الرفق بالحيوان.. هذه الدعوة الإسلامية البحتة والتي في نهاية الأمر إنما تصب في صالح الإنسان، ففي الدنيا يزداد انتفاعه من الحيوان إذا هو ترفق واعتنى به، وفي الآخرة قد يكون رفقه بالحيوان سبيلاً لدخوله الجنة ومغفرة ذنبه كما أسلفنا من قبل في مستهل هذا الكتاب.

ونشتم هذا التوجيه في قوله تعالى ﴿**كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُوْلِي النُّهَى**﴾(طه ـ ٤٥)؛ فبرغم أن ظاهر الآية يدل على كثرة نعم الله على عبده واتساع رزق الله ليكفي الإنسان وسائر الأنعام، إلا أننا نلحظ هذا التوجيه الذي يتمثل في فعل الأمر ﴿**ارْعَوْا**﴾

وهو من مادة "رعى"، والرعيُّ كما يقول ابن منظور "مصدر رعى الكلأ ونحوه يرعى رعيًا، والراعي يرعى الماشية أي يحوطها ويحفظها"[1].

من هنا فلا يشمل معنى "ارعوا" الطعام فحسب بل يشمل الإحاطة والحفظ، وحسن الرعاية، فعلى الإنسان المؤمن أن يعمل على حفظ هذه الأنعام من كل ما يهددها من أخطار، ومن باب أولى ألا يكون الإنسان نفسه سببًا من أسباب إيذاء الحيوان.

(١) لسان العرب: لابن منظور، مادة "رعى"، جـ١٤، صـ٣٢٥.

ودعوة الرفق بالحيوان في كل الأحوال ثابتة في السنة المطهرة حتى عند ذبح هذا الحيوان فإن النبي ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى أمرنا بأن نحسن الذِبحة حتى إذا قَتْلنا الضار من الحيوان فعلينا كذلك أن نحسن القِتلة وذلك باتخاذ كل أسباب عدم إيلام الحيوان. فعن شداد بن أوس قال: ثنتان حفظتهما من رسول الله ﷺ إن الله ﷻ كتب الإحسان على كل شيء فإذا قتلتم فأحسنوا القِتلة وإذا ذبحتم فأحسنوا الذِبحة ليُحدْ أحدكم شفرته، وليُرِح ذبيحَته"[1].

فهذا الحديث الصحيح الذي يحث بل يأمر بالإحسان إلى الحيوان حتى عند ذبحه أو قتله، بالإضافة إلى الأحاديث التي ذكرناها في مستهل هذا الفصل والتي توضح لنا أهمية الرفق بالحيوان فربما كان ذلك سببًا لدخول الجنة أو يكون تركه سببًا لدخول النار من هنا يتضح لنا إسلامية هذه الدعوى.

فالإسلام دين الرفق والرحمة حتى بالحيوان.. فما بالنا بالإنسان!

المبحث السادس: الحيوان والعبودية لله

خلق الله ﷻ كل شيء وسواه في أحسن صورة لعبادته وذكره والتسبيح بحمده، وأكرم هذه المخلوقات الإنسان الذي كرمه الله تعالى وفضله وميزه على سائر المخلوقات، واختصه بالتكليف بعبادته والقيام بما فرض عليه من صلاة وصيام وزكاة وحج. لكن الله ﷻ أخبرنا في كتابه العزيز أن كل المخلوقات تعبد الله ﷻ ومن هذه المخلوقات الحيوان الذي أخبرنا القرآن الكريم أنه يعبد الله ﷻ من خلال مظهرين من أهم مظاهر العبادة ألا وهما التسبيح السجود.

أولاً: الحيوان والتسبيح:-

والتسبيح هو قول سبحان الله وهو تنزيه لله عن كل نقص وعيب

(١) سنن النسائي: دار البشائر الإسلامية بيروت، لبنان، ط٢، ١٩٨٦، كتاب: الضحايا، باب الأمر بإحداد الشفرة، جـ٧، صـ٢٢٧، حديث رقم ٤٤٠٥.

يقول ابن كثير: "والسماوات السبع والأرض ومن فيهن من المخلوقات تقدسه وتنزهه عما يقول هؤلاء المشركون، وتشهد له بالوحدانية في ربوبيته وإلاهيته، قوله تعالى: "وإن من شيء إلا يسبح بحمده". "أي وما من شيء من المخلوقات إلا يسبح بحمد الله ولكن لا تفقهون تسبيحهم أيها الناس لأنها بخلاف لغاتكم، وهذا عام في الحيوانات والجمادات والنباتات"[١].

بل ربما فاق تسبيح الدواب لله تسبيح ابن آدم له سبحانه، فعن سهل بن معاذ عن أبيه عن رسول الله ﷺ أنه مر على قوم وهم وقوف على دواب لهم ورواحل فقال لهم اركبوها سالمة أو دعوها سالمة ولا تتخذوها كراسي لأحاديثكم في الطرق والأسواق فرُب مركوبةٍ خير من راكبها وأكثر ذكرًا لله تبارك وتعالى منه "صدق رسول الله ﷺ[٢]

وجاء في السنن الكبرى للبيهقي عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: لا تقتلوا الضفادع فإن نقيقها تسبيح، ولا تقتلوا الخفاش فإنه لما خرب بيت المقدس قال يا رب سلطني على البحر حتى أغرقهم"[٣].

وتحدث القرآن الكريم عن تسبيح المخلوقات لله ﷻ في غير آية.

قال تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾. (النور- ٤١)

وأفادت هذه الآية عموم تسبيح المخلوقات لله ﷻ وذلك بدلالة **﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾**: كناية عن كل المخلوقات، وقد ألهم الله ﷻ كل

(١) تفسير ابن كثير: جـ٥، صـ٧٨.

(٢) مسند الإمام أحمد: جـ١٢، صـ٢٥٣، حديث رقم ١٥٥٦٦.

(٣) السنن الكبرى: الحافظ الجليل أبو بكر أحمد بن الحسين بن على البيهقي (ت ٤٥٨ هـ)، دار مجلس دائرة المعارف العمانية، ط ١، جـ٩، صـ٣١٨.

مخلوقاته كي يسبحوه بطرق خاصة تناسب فطرتهم التي فطرهم الله عليها.

﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾: ومعظم التفسيرات تعاملت مع الصلاة والتسبيح على أنهما مرادفان في المعنى وتأولوا لذلك بقولهم: الصلاة لبني آدم والتسبيح لغيرهم من الخلق [١].

ولم يبعد كثيرًا صاحب التحرير والتنوير عن هذا المعنى حيث يقول: "تسبيح العقلاء حقيقة، وتسبيح الطير مجاز مرسل في الدلالة على التنزيه، وفيه استعمال لفظ التسبيح في حقيقته ومجازه، ولذلك خولف بينهما في الجملة الثانية فعبر بالصلاة والتسبيح مراعاة لاختلاف حال الفريقين، فريق العقلاء، وفريق الطير، وإن جمعتها كلمة "كل" فأطلق على تسبيح العقلاء اسم الصلاة لأنه تسبيح حقيقي. فالمراد بالصلاة الدعاء وهو من خصائص العقلاء وليس في أحوال الطير ما يستقيم إطلاق الدعاء عليه على وجه المجاز، وأبقى لدلالة أصوات الطير اسم التسبيح لأنه يطلق مجازًا على الدلالة بالصوت"[٢].

أما لماذا اختص الطير بالذكر من بين باقي المخلوقات لاسيما في الآيات المتعلقة بالتسبيح ففي غير هذه الآية ذكر الطير مسبحًا في قوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلاً يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ﴾. (سبأ - ١٠)

وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ(١٨) وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ (١٩)﴾(ص - ١٨:١٩)

فاختيار الطير تحديدًا بالذكر في موضع التسبيح قضية سكت عنها المفسرون فلم أجدها في أي من التفاسير الكثيرة التي بحثت فيها ولا يمكنني القول في هذا برأيي، لكن بالطبع لم يكن هذا الاختصاص إلا لعلة لا يعلمها إلا الله.

(١) تفسير الطبري: جـ١٩، صـ١٩٩.

(٢) تفسير التحرير والتنوير: للطاهر بن عاشور، جـ١٨، صـ٢٥٨.

وإن كانت الآيتان الأخيرتان قد تحدثتا عن هذه النعمة التي أنعم الله بها على نبيه داود فهي خاصية اختصه الله بها دون جميع خلقه.

ولكن كيف يسبح الحيوان؟

بالطبع له لغة لا نعلمها، فهو يسبح بكيفية تتلائم مع الفطرة التي فطره الله عليها، فإن كان للمكلفين تسبيح إرادي اختياري فإن لهذه الكائنات تسبيحًا فطريًا تسخيريًا لا إرادة لها فيه لكن هذه المخلوقات تدرك التسبيح وتعيه.. فالطير كانت تعلم أنها تسبح مع سيدنا داود عليه السلام.

ولغات كل نوع من أنواع الحيوانات يعلمها الله تعالى - لمن يشاء من عباده كما فهمها لسيدنا سليمان عليه السلام.

وكل الكائنات الحية تعرف أنبياء الله وتعرف أنها من عباد الله ﷻ، بل إن فطرتها أتاحت لها تمييز العبد المؤمن من العبد الكافر فها هو الهدهد يستنكر سجود أهل سبأ لغير الله، وها هي النملة تعرف سليمان.

وقد عُبِّر عن ذلك في السنة النبوية المطهرة فعن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: "إنه ليس شيء بين السماء والأرض إلا يعلم أني رسول الله إلا عاصي الجن والإنس"[1] صدق رسول الله ﷺ

وتبقى كيفية التسبيح لهذه الكائنات من أسرار الكون التي لا يعلمها إلا الله.

ثانيًا: الحيوان والسجود:-

لم يقتصر حديث القرآن الكريم على إظهار تسبيح كل ما في الكون لله ﷻ. بل ذكر أمرًا تعبديًا آخر لهو أقرب حالات التعبد عند الله ﷻ ألا وهو السجود فعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: "أقرب ما يكون العبد لربه وهو ساجد

(١) مسند الإمام أحمد: مسند جابر بن عبد الله، جـ١١، صـ٤١٨، رقم ١٤٢٦٩.

فأكثروا الدعاء"[١] . والسجود تعرفه كل المخلوقات، ففي قصة هدهد سليمان استنكر الهدهد سجود قوم سبأ لملكتهم وعدم سجودهم لله، وقد ذكر القرآن الكريم أن جميع ما في السماوات والأرض يسجد لله.

قال تعالى:

﴿وَلِلّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَالْمَلآئِكَةُ وَهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ (النحل - ٤٩)

ولا يكون السجود إلا لله ﷻ، وقد دلنا على ذلك في الآية أسلوب الحصر، الذي يتجلى من خلال تقديم الجار والمجرور على الفعل "ولله يسجد": ومجئ الفعل بصيغة المضارع للدلالة على استمرار السجود وتجدده.

أما عن مجئ "ما" الدالة على غير العاقل فيقول البغوى: "إنما أخبر بـ "ما"لغلبة ما لا يعقل على ما يعقل في العدد، والحكم للأغلب كتغليب المذكر على المؤنث [٢] .

وإن راح البغوي يذكر للسجود تأويلات لغير معناه إذ يقول: "قيل السجود: الطاعة، وقيل: سجود الأشياء تذللها، وقيل سجود الجمادات وما لا يعقل: ظهور أثر الصنع فيها"[٣] .

على أننا لا نجد في الآية ما يدعم تأويل معنى "السجود"لمعنى آخر غير السجود الذي نعرفه، وإن اختلف وضع سجود هذه الكائنات، إذ هي بالطبع تسجد سجودًا لا يعلمه إلا الله ﷻ. كما أن تسبيحها لا يعلمه إلا الله، فإن عدم إدراكنا لكيفية التسبيح والسجود لا ينفي كونها تسبح وتسجد لله.

---

(١) صحيح مسلم: كتاب: الصلاة، باب: ما يقال في الركوع والسجود، جـ٢، صـ٣٦٩، رقم ٤٨٢.
(٢) تفسير معالم التنزيل: للبغوي، جـ٥، صـ٢٢.
(٣) نفسه: جـ٥، صـ٢٢.

ويقول صاحب التحرير والتنوير: "معنى سجود الدواب لله أن الله جعل في تفكيرها الإلهامي التذاذها بوجودها، وبما هي فيه من المرح والأكل والشرب... فحالها بذلك كحال شاكر تتيسر تلك الملائمات لها"[1].

من هنا كانت جميع مخلوقات الله ﷻ مطيعة له عابدة له لا تعصي الله ما أمرها. أما الإنسان فكثيرًا ما يعصي الله ﷻ ويكفر بنعمه - حينئذ يكون مثله مثل الدواب بل أضل منها.. وقد شبه القرآن الكريم المشركين الغافلين عن عبادة الله والإيمان به شبههم بالدواب بل بشر الدواب. قال تعالى: ﴿**إِنَّ شَرَّ الدَّوَابَّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ**﴾ (الأنفال - ٢٢)

وقال تعالى: ﴿**إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ**﴾ (الأنفال - ٥٥)

فجميع مخلوقات الله جُبلت على الطاعة وحسن عبادة الله ولا يعصي الله إلا الجن والإنس.. هدانا الله وإياكم سبيل الإيمان وبلغنا برحمته الفردوس من الجنان.

المبحث السابع: الحيوان والآخرة

لم يخلق الله ﷻ هذا الكون باطلاً، فهناك موت وبعد الموت بعث ونشور وحساب، وإما جنة وإما نار.

فالله ﷻ يجمع في يوم القيامة كل مخلوقاته من أجل الحساب ولا يكون حساب الحيوانات إلا قضاءً.. عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ "لتؤدُّن الحقوق إلى أهلها حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء"[2] صدق رسول الله ﷺ. ثم تكون هذه الحيوانات بعد القضاء ترابًا حينئذ يتمنى الكافر أن يكون ترابًا.

(١) تفسير التحرير والتنوير: للطاهر بن عاشور، جـ ١٤، صـ ١٧٠.
(٢) مسند الإمام أحمد بن حنبل: جـ٩، صـ١٧٧، رقم ٩٣٠٣.

قال تعالى: ﴿**إِنَّا أَنذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا**﴾ (النبأ ـ ٤٠)

فينتهي حساب الحيوانات بعد هذا القضاء فحسب، لكن هناك دوران للعنصر الحيواني يرتبط فيهما بالآخرة كعلامة من علامات قيام الساعة أو العنصر الحيواني في الجنة.

أولاً: الحيوان وعلامات قيام الساعة:

جاء ذكر العنصر الحيواني في أوائل سورة التكوير والتي تتحدث عن أحوال يوم القيامة قال تعالى: ﴿**وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ**﴾ (التكوير - ٤:٥)

وأول ما ننتبه إليه تكرار "إذا" وافتتاح السورة بها وتكررها في باقي الآيات وعن دلالتها يقول صاحب التحرير والتنوير: "الافتتاح بـ"إذا" افتتاح مشوق لأن "إذا" ظرف يستدعي متعلقًا، ولأنه أيضًا شرط يؤذن بذكر جواب بعده، فإذا سمعه السامع ترقب ما سيأتي بعده، فعندما يسمعه يتمكن من نفسه كمال تمكن، وخاصة بالإطناب بتكرير كلمة "إذا" وتعدد الجمل التي أضيف إليها اثنتي عشرة مرة، وهذا الإطناب اقتضاه قصد التهويل"[1].

والسياق هنا سياق تهويل وتحذير من الآخرة، وقد دعمت كل جملة أو آية مبدوءة بـ"إذا" هذا السياق حتى تصل به إلى الإخبار بيوم القيامة حيث يقول تعالى: "علمت نفس ما أحضرت"، وروي عن عمر بن الخطاب أنه قرأ أول السورة فلما بلغ "علمت نفس ما أحضرت" قال: "لهذا أجريت القصة"[2]

و"**العِشار**": جمع عشراء، وهي الناقة التي أتى على حملها عشرة أشهر ثم هو اسمها إلى أن تضع لتمام السنة ويقول صاحب الكشاف: "وهي أنفس ما

(١) تفسير التحرير والتنوير: للطاهر بن عاشور، جـ٣٠، صـ١٤٠.
(٢) نفسه: جـ٣٠، صـ١٥٠.

تكـون عنـد أهلهـا وأعزهـا عليهـم"[١]

عطلـت: تركـت مهملـة لا ينتفـع بهـا ولا يرعاهـا أحـد ولا يحلبهـا أحـد وذلـك كنايـة عـن انشـغال النـاس بأنفسـهم، فمنظـر هـذه النـوق المهملـة برغـم أنهـا أعـز مـال العـربي ليـدل دلالـة واضحـة عـلى هـول النـاس وفزعهـم الـذي يصرفهـم عـن كل مـا حولهـم.

الوحوش: جمع وحش، وهو الحيوان البري غير المستأنس.

والحشر: الجمع من كل ناحية في مكان واحد.

كـما أن حـشر هـذه الوحـوش عـلى اختـلاف طبائعهـا العدوانيـة في مـكان واحـد لا يعـدو شيء منهـا عـلى الآخـر مـن شـدة الرعـب عـلى مـا فيهـا مـن غلظـة قلـب لهو صـورة توضـح مـدى مـا يعـتري النـاس مـن خـوف وفـزع.. اللهـم آمـن روعاتنـا. ويـروي صاحـب الكشـاف عـن قتـادة قولـه: "يحـشر كل شيء حتـى الذبـاب للقصـاص، وقيـل: إذا قـضي بينهـا ردت ترابًـا فـلا يبقـى منهـا إلا مـا فيـه سرور لبنـي آدم وإعجـاب بصورتـه كالطـاووس ونحـوه"[٢].

وإن لم يكـن بـين أيدينـا دليـل مـن الكتـاب والسـنة عـلى هـذا القـول ومثلـه قـول القائلـين إن كلـب أهـل الكهـف في الجنـة.. والله أعلـم فالـذي دل عليـه الكتـاب والسـنة أن دور الحيـوان ينتهـي تمامًـا بعـد القصـاص فيـما بينهـا ثـم تكـون ترابًـا.

ثانيًا: الحيوان والجنة:-

وهـذا العنـصر هـو الطـير في قولـه تعـالى وصفًـا لحـال نعيـم أهـل الجنـة: ﴿**وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ**﴾(الواقعة - ٢١)

(١) الكشـاف: للزمخشري، جـ٤، صـ٥٤٩.

(٢) نفسه: جـ٤، صـ٥٥٠.

"وَلَحْمِ طَيْرٍ": كما يقول الطاهر بن عاشور: "هو أرفع اللحوم وأشهاها وأعزها"[١]. والاشتهاء: مادة اشتهى، والافتعال للمبالغة.

وروى البغوي عن ابن عباس "يخطر على قلبه لحم الطير فيصير ممثلاً بين يديه على ما اشتهى، ويقال إنه يقع على صحفة الرجل فيأكل منه ما يشتهي ثم يطير فيذهب"[٢].

ولا يفوتنا ملاحظة عطف "لحم طير مما يشتهون" على "وفاكهة مما يتخيرون" أي يأخذون خيارها وأحسنها.

وهنا تتجلى لنا كذلك "دلالة الترتيب" فيقول الخازن: فاللحم والفاكهة إذا عرضا على الجائع مالت نفسه إلى اللحم، وإذا عرضا على الشبعان مالت نفسه إلى الفاكهة، فالجائع مشته، والشبعان غير مشته بل هو مختار، وأهل الجنة إنما يأكلون لا من جوع بل للتفكه، فميلهم إلى الفاكهة أكثر"[٣]. لذا قدم ذكر الفاكهة على ذكر اللحم.

فالطير هنا ممثل العنصر الحيواني في الجنة لا على سبيل الجزاء، بل هو نعمة ومنة يمتنها الرحمن على عبيده في الجنة التي جعل الله فيها لعباده الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.. جعلنا الله وإياكم من أهلها بلا سابقة عذاب ولا مناقشة حساب.

***

(١) التحرير والتنوير: للطاهر بن عاشور، جـ٢٧ صـ٢٥٩.

(٢) معالم التنزيل: للبغوى، جـ٧، صـ١٠.

(٣) تفسير الخازن: لعلاء الدين على بن محمد بن إبراهيم البغدادي المشهور بالخازن (ت ٧٢٥هـ)، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، ط٢، ١٩٥٥، جـ٦، صـ١٦.

المصادر والمراجع

١. **القرآن الكريم.**

٢. **أدب القصة في القرآن الكريم**: الدكتور/ عبد الجواد محمد المحص، الدار المصرية للنشر ط١.

٣. **أسباب النزول**: الواحدي النيسابوري (ت ٤٦٨ هـ)، تحقيق أ/ مجدي فتحي السيد، وأ/ خيري سعد، المكتبة التوفيقية، ط١، ٢٠٠٣.

٤. **الأصمعيات**: اختيار: الأصمعي أبي سعيد عبد الملك بن قريب بن عبد الملك (١٢٢- ٢١٦ هـ) تحقيق أ/ أحمد محمد شاكر، أ/ عبد السلام هارون، دار المعارف - مصر.

٥. **الأغاني**: للإمام أبي الفرج الأصفهاني، دار الفكر.

٦. **أمثال الحديث**: للقاضي أبي الحسن بن عبد الرحمن بن خلاد الرامهرمزي تحقيق، أ/ أحمد عبد الفتاح تمام، مؤسسة الكتب الثقافية، ط١، ١٩٩٨.

٧. **الأمثال القرآنية**: محمد بكر إسماعيل، مطبعة الأمانة، ط ١، ١٩٨٦

٨. **أمثال القرآن وصور من أدبه الرفيع**: عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني دار القلم، دمشق، ط٢، ١٩٩٢.

٩. **البرهان في علوم القرآن**: بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي (٧٤٥-٧٩٤هـ)، تحقيق أ/ محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية (عيسى البابي الحلبي)، ط١ - ١٩٥٧ م.

١٠ .**التراث القصصي عند العرب**: الدكتور/ مصطفى عبد الشافي الشورى، الهيئة العامة لقصور الثقافة، ط ٢ - ١٩٩٩ .

١١ .**التعريفات**: علي بن محمد بن علي الجرجاني (٧٤٠ - ٨١٦ هـ) تحقيق أ/ إبراهيم الإبياري - دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ٢٠٠٠ .

١٢ .**تفسير البحر المحيط**: أبو حيان محمد بن يوسف الشهير بـ أبي حيان الأندلسي الغرناطي (٦٥٤- ٧٥٤ هـ)، دار الفكر للطباعة، ط ١، ١٩٩٢ .

١٣ .**تفسير التحرير والتنوير**: محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر، ط ١، ١٩٨٤ .

١٤ .**تفسير الجلالين**: جلال الدين السيوطي، وجلال الدين المحلي، مطبعة الأمانة، دار نشر الوعي، ط ١ .

١٥ .**تفسير الخازن**: المسمى: لباب التأويل في معاني التنزيل، أبو الحسن علي بن محمد بن إبراهيم بن عمر الشيحي المعروف بالخازن، (٦٧٨ - ٧٢٥ هـ)، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ط٢، ١٩٥٥ .

١٦ .**تفسير القرآن العظيم**: أبو الفداء اسماعيل ابن كثير القرشي الدمشقي (٧٠٠ـ ٧٧٤ هـ)، تحقيق أ/ سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط٢، ١٩٩٩ .

١٧ .**تفسير القرطبي**: المسمى بـ (الجامع لأحكام القرآن): أبو عبد الله بن أحمد الأنصاري القرطبي (٦٠٠-٦٧١هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٨٥ .

١٨ .**التفسير الكبير للرازي**: أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بالفخر الرازي، (٥٤٤ - ٦٠٦هـ) دار الغد العربي، ط١، ١٩٩١ .

١٩. **تفسير المنار**: للإمام محمد عبده: تأليف: الشيخ محمد رشيد رضا الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط ١، ١٩٧٢.

٢٠. **جامع البيان عن تأويل آي القرآن**: محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي أبو جعفر الطبري (٢٢٤-٣١٠ هـ)، دار الفكر، ط ١

٢١. **جمهرة أشعار العرب في الجاهلية والإسلام**: لأبي زيد بن أبي الخطاب القرشي (ت ١٧٠هـ) تحقيق أ/ علي محمد البجاوي، دار نهضة مصر.

٢٢. **جمهرة الأمثال**: أبو هلال العسكري، تحقيق أ/ محمد أبو الفضل إبراهيم دار الفكر، ط ٢، ١٩٨٨.

٢٣. **الجني الداني في حروف المعاني**: للحسن بن قاسم المرادي (ت ٧٤٩ هـ) تحقيق الدكتور/ فخر الدين قباوة، أ/ محمد نديم فاضل، دار الكتب العلمية، ط١، ١٩٩٢.

٢٤. **حياة الحيوان الكبرى**: كمال الدين محمد بن موسي الدميري (٧٤٢ - ٨٠٨ هـ) مطبعة البابي الحلبي، مصر، ط٥، ١٩٧٨.

٢٥. **حياة قلم**: عباس محمود العقاد، كتاب الهلال، ط ١

٢٦. **الحيوان**: أبو عثمان عمر بن بحر الملقب بالجاحظ (١٦٠ـ٢٥٥ هـ) دار ومكتبة الهلال، ط ١، ١٩٨٦.

٢٧. **خزانة الأدب**: تأليف عبد القادر بن عمر البغدادي (١٠٣٠ ـ ١٠٩٣ هـ) تحقيق أ/ عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، ط ١، ١٩٨٦

٢٨. **ديوان أبي تمام**: حبيب بن جاسم بن أوس الطائي (ت ٢٣١هـ)، شرح إيليا الحاوي، دار الكتاب اللبناني، ط١، ١٩٨١.

٢٩. **ديوان ذي الرمة**: المكتب الإسلامي للطباعة والنشر، ط٢، ١٩٦٤.

٣٠.ديوان النابغة الذبياني: تحقيق أ/ محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف مصر.

٣١.روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني: لشهاب الدين السيد محمود الألوسي البغدادي (ت ١٢٧٠هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت ط ٤، ١٩٨٥.

٣٢.الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام: للفقيه المحدث أبي القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن أبي الحسن السهيلي (٥٠٨ - ٥٨١ هـ)، تحقيق أ/ طه عبد الرؤوف سعد، ط ٣، ١٩٧٨.

٣٣.زهر الآداب وثمر الألباب: لابي إسحاق إبراهيم بن علي الحصري القيرواني، تحقيق أ/ محمد علي البجاوي، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي، ط ١، ١٩٥٣ ٠

٣٤.سنن ابن ماجة: الحافظ أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني ابن ماجة (٢٠٧-٢٧٥هـ)، تحقيق أ/ محمود محمد محمود، دار إحياء الكتب العلمية بيروت، ط١، ١٩٩٨.

٣٥.سنن أبي داود: الإمام الحافظ أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني (٢٠٢-٢٧٥هـ) شرح أ/ عبد القادر عبد الخير، وآخرين، دار الحديث، القاهرة، ط١، ١٩٩٩.

٣٦.سنن الدارمي: الحافظ عبد الله بن عبد الرحمن السمرقندي (١٨١-٢٥٢ هـ) تحقيق أ/ فواز أحمد، أ/ خالد السبع، مطبعة البابي الحلبي، ط١، ١٩٨٧

٣٧.السنن الكبرى: الحافظ الجليل أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي (ت ٤٥٨ هـ)، دار مجلس دائرة المعارف العمانية، ط١

٣٨. سنن النسائي: الإمام النسائي دار البشائر الاسلامية، بيروت ط١٩٨٦،٢

٣٩.شعب الإيمان: الحافظ الجليل أبو بكر احمد بن الحسين بن علي البيهقي (ت ٤٥٨ هـ)، دار الكتب العلمية بيروت.

٤٠.صحيح البخاري: الإمام محمد بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبه (١٩٤- ٢٥٦ هـ)، مكتبة الإيمان، ط١، ١٩٩٨

٤١.صحيح مسلم بشرح النووي: الإمام مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (٢٠٦ - ٢٦١ هـ)، مكتبة الإيمان بالمنصورة، ط١، ١٩٩٨

٤٢.طبقات فحول الشعراء: لمحمد بن سلام الجمحي (١٣٩-٢٣١ هـ)، شرح محمد محمود شاكر مطبعة المدنى.

٤٣.عرائس المجالس: لأبي إسحاق بن محمد بن إبراهيم النيسابوري المعروف بالثعلبي (ت ٤٢٧ هـ)، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، ط ١، ٢٠٠٤

٤٤.عجائب المخلوقات: زكريا بن محمد بن محمود القزويني (٦٠٠- ٦٨٢ هـ) مكتبة الإيمان، ط١، ٢٠٠٣

٤٥. غرائب القران ورغائب الفرقان: نظام الدين الحسن بن محمد بن الحسين القمي النيسابوري (ت ٧٢٨ هـ)، تحقيق أ/ إبراهيم عطوه عوض، شركة ومكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، ط١، ١٩٧٠

٤٦.فتح البيان في مقاصد القرآن: أبو الطيب محمد بن حسن القنوجي (١٢٤٨ - ١٣٠٧ هـ)، إدارة إحياء التراث الإسلامي، قطر، ط١

٤٧.فقه السنة: السيد سابق، دار الريان للتراث، ط٢، ١٩٩٠.

٤٨.قراءه تحليلية في الحقول الدلالية لضرب الأمثال القرآنية: الدكتور/ محمد إبراهيم الطاووسي، دار النهضة العربية، ط ١، ٢٠٠٤

٤٩.قصص الأنبياء: الدكتور/ عبد الوهاب النجار، دار المنار، ط ١

٥٠. **قصص الحيوان في القران**: الشيخ/ محمد متولي الشعراوي، أخبار اليوم، ط ١، ١٩٩٩.

٥١. **قصص القرآن**: محمد بكر إسماعيل، دار المنار، ط٢، ١٩٩٧

٥٢. **القصص القرآني**: عرض ووقائع وتحليل أحداث، د/ صلاح الخالدي، دار القلم، دمشق ط١، ٢٠٠٤.

٥٣. **كتابات وكتاب في النثر العربي الحديث**: د/ محمد مصطفى هداره الشنهابي للطباعة والنشر، الإسكندرية، ط١

٥٤. **الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الاقاويل في وجوه التأويل**: أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي (٤٦٧- ٥٣٨ هـ) تحقيق أ/ يوسف الحمادي، مكتبة مصر، ط١

٥٥. **لسان العرب**: أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الافريقي المصري (٦٣٠ - ٧١١ هـ)، دار صادر، بيروت، ط١، ١٩٥٦

٥٦. **لطائف الإشارات**: لزيد الإسلام عبد الكريم بن هوازن بن طلحة بن محمد القشيري، تحقيق الدكتور/ إبراهيم بسيوني، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، ط١، ١٩٧١.

٥٧. **محمد والفتح**: الدكتور/ طارق سعد شلبي، دار الفردوس للطباعة، ط١، ٢٠٠١

٥٨. **مسند الإمام أحمد**: الإمام أحمد بن محمد بن حنبل (١٦٤- ٢٤١ هـ) شرح أ/ حمزة أحمد الزين، دار الحديث القاهرة، ط١، ١٩٩٥

٥٩. **المصباح المنير**: أحمد بن محمد بن علي المقري الفيومي (ت ٥٧٧ هـ) المطبعة الأميرية، ط٥، ١٩٢٢

٦٠. **معالم التنزيل**: لمحيي السنة ابو محمد الحسين بن مسعود البغوي (ت ٥١٦هـ) دار طيبة، ط٤، ١٩٩٧.

٦١. **مع قصص السابقين في القرآن**: الدكتور/ صلاح الخالدي، دار القلم دمشق، ط٤، ٢٠٠٤.

٦٢. **المفردات في غريب القرآن**: أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني، مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة المكرمة، ط١، ١٩٩٧.

٦٣. **من آيات الإعجاز العلمي: الحيوان في القرآن الكريم**: الدكتور/ زغلول راغب محمد النجار، دار المعرفة، بيروت، ط١، ٢٠٠٦

٦٤. **من القصص الحق**: الشيخ محمد محمود ندا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط١، ١٩٩٤.

٦٥. **مواقف الأنبياء في القرآن**: تحليل وتوجيه: الدكتور/ صلاح الخالدي دار القلم، دمشق، ط١، ٢٠٠٣.

٦٦. **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور**: برهان الدين أبو الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي (٨٠٩- ٨٨٥ هـ)، مكتبة ابن تيمية، ط١، ١٩٧٣

٦٧. **النكت والعيون**: أبو الحسن علي بني محمد بن حبيب الماوردي البصري دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٢

٦٨. **تفسير الخازن**: لعلاء الدين على بن محمد بن إبراهيم البغدادي المشهور بالخازن (ت ٧٢٥هـ)، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، ط٢، ١٩٥٥، جـ٦، صـ١٦.

***

الفهرس

إهداء ٥
مقدمة ٧
تمهيد ١١
الفصل الأول: الحيوان في المثل القرآني ١٣
تمهيد: أهمية المثل القرآني: ١٣
الغرض الدلالي الأول: الله لا يستحيي من الحق ١٦
الغرض الدلالي الثاني: الإيمان قوة والكفر ضعف ٢٢
الغرض الدلالي الثالث: من صفات الكفار ٢٦
الغرض الدلالي الرابع: معجزة كل نبي تناسب عصره ٣٩
الغرض الدلالي الخامس: العمل الضائع والاعتماد الخائب ٤٣
الغرض الدلالي السادس: حال الناس يوم القيامة ٤٦
الغرض الدلالي السابع: الذم ٥٠
الغرض الدلالي الثامن: تأييس للكفار من دخول الجنة ٥٣
الفصل الثاني: الحيوان في القصص القرآني ٥٧
دور الحيوان في قصص القرآن ٦٢
بقرة بني إسرائيل ٦٢
غراب ابني آدم عليه السلام ٧٠
أصحاب الفيل ٧٥

ناقة صالح ٧٨
عجل بني إسرائيل ٨٢
حيتان أصحاب السبت ٨٨
حوت يونس عليه السلام ٩٧
كلب أصحاب الكهف ١٠٠
وادي النمل الذي مر به سليمان ١٠٤
هدهد سليمان ١٠٦
حمار الذي مر على قرية ١١٤
طير إبراهيم الخليل عليه السلام ١١٧
الفصل الثالث: الحيوان والإنسان ١٢١
مدخل: ١٢١
المبحث الأول: الحيوان من دلائل قدرة الله تعالى ١٢٣
المبحث الثانى: الحيوان نعمة من نعم الله على الإنسان ١٣٧
المبحث الثالث: المحرم والمباح في طعام الحيوان ١٧٤
المبحث الرابع: الحيوان والشعائر ١٩٧
المبحث الخامس: الحيوان والرزق ٢١٢
المبحث السادس: الحيوان والعبودية لله ٢٢٠
المبحث السابع: الحيوان والآخرة ٢٢٥
المصادر والمراجع ٢٢٩